الدولة والإمبراطورية

في

العصور الوسطى

تأليف

ل . م . هارتمان

ج . باراكلاف

ترجمة وتقديم

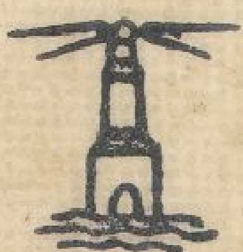
دكتور

جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٧٠



دار المعارف بمصر

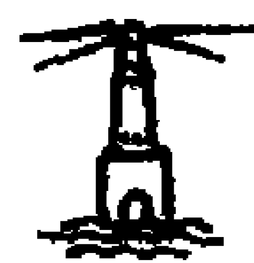
الدولة والإمبراطورية
في
العصور الوسطى

تأليف

ل. م. هارتمان — ج. باراكلاف

ترجمة وتقديم

دكتور
جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية



دار المعارف بمصر

طبعات الترجمة العربية

الطبعة الأولى ١٩٦٦

الطبعة الثانية ١٩٧٠

الدولة والإمبراطورية

فى

العصـــور الوسطى

الدولة والامبراطورية

في

العصور الوسطى

تصدير الطبعة الثانيــة

بعد قرابة أربـع سنوات من صدور الطبعة الأولى من الترجمـة العربية لـكتاب « الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى » ، يسرنا أن نقدم لقراء العربية طبعته الثانية مزيدة منقحة . مزيدة بما أدخلناه عليها من إضافات وزيادات تبدو فى التقديم الذى مهدنا به للطبعة الأولى والذى يعتبر فى الواقع دراسة تاريخية فى الأسس التى قامت عليهـــا الدولة وكـذلك فى الفـكرة الإمبراطورية خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ . فضلا عن بعض الهوامش السفلية التى رأينا أن طبيعة الموضوع تستلزم تزويده بها . ثم أن هـذه الطبعة الجديدة أيضا منقحة بما جددناه فيها من صياغات .

والله أسأله السداد ؟

جوزيف نسيم يوسف

الاسكندرية فى ديسمبر سنة ١٩٦٩

كلمة المترجم

(تصدير الطبعة الاولى)

يحتوى هذا الكتاب على بحثين قمت بنقلهما إلى العربية : الأول عنوانه « الدولة فى العصور الوسطى المبكرة : بيزنطة — إيطاليا والغرب » تأليف ل. م. هارتمان ، والثانى باسم « الإمبراطورية فى العصور الوسطى : فكرة وحقيقة » تأليف ج. باراكلاف .

والبحث الأول كان أصلا محاضرة حولها هارتمان إلى مقالة بعد أن زودها بالمراجع والهوامش اللازمة . وكان عنوانها فى الطبعة الأولى التى صدرت باللغة الألمانية سنة ١٩١٣ « فصل عن الدولة فى أواخر العصر القديم وأوائل العصر الوسيط » . وقد قام هـ. ليبشيتز (١) بنقلها إلى الإنجليزية ، مقدماً لها بكلمة سريعة عن المؤلف ، ومجال دراسته ، وإنتاجه العلمى ، مع اختصار بعض الفقرات الواردة فى النص الأصلى ، وحذف ما فات وقته وزمانه ، وإضافة إيضاحات أخرى موجزة سواء فى المتن أو فى الهوامش السفلية . ونشرها فى السلسلة العامة لمطبوعات الجمعية التاريخية الانجليزية بلندن سنة ١٩٤٩ ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى ترجمتنا هذه .

والمؤلف لودو موريتز هارتمان غنى عن التعريف . فهو من كبار المؤرخين

---

(١) له عدة بحوث ومقالات ، من أهمها كتابه H. Liebeschütz, «Kosmologische Motive in der Bildungswelt der Frühscholastike,» Vorträge (1923—24) der Bibliothek Warburg, Leipzig, 1926; idem, Medieval Humanism in the Life and Writings of John of Salisbury, London, 1950.

الغربيين المعنيين بالتاريخ الوسيط وحضارته . تتلمذ على تيودور ممسن [١] فى الفترة الأخيرة من حياته العلمية . ولذلك أهمية خاصة ، إذ نهج هارتمان نهج أستاذه فى النظر إلى العصرين القديم والوسيط باعتبارهما وحدة واحدة لا تنفصم ، وإن اختلفت الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى كليهما .
وخلف لنا الكثير من البحوث والمقالات ، من أهمها مؤلفه الضخم المعروف باسم « تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى » «Geschichte Italiens im Mittelalter» فى أربعة مجلدات ، ويتناول الفترة من عصر ثيودوريك إلى عصر هنرى الثانى . والكتاب فى مجموعه مصدر ثقة فى تاريخ إيطاليا الوسيط . ويستوعب البحث الذى بين أيدينا خلاصة المادة الغزيرة الواردة فى الأجزاء الثلاثة الأولى من الكتاب المذكور . ويعتبر الجزء الأول منه من أفضل ما كتب عن القوط الشرقيين . وقد ظهرت له طبعة مستقلة فى جوتا سنة ١٩٢٣ باسم « الملكية فى إيطاليا » «Das italienische königreich» .
ومن إنتاجه كذلك كتابه المعنون « دراسات فى تاريخ الإدارة البيزنطية فى إيطاليا (٥٤٠ — ٧٥٠) » «Untersuchungen zur Geschichte der byzantinischen Verwaltung in Italien (540 — 750)» ، وكذلك كتاب « سيادة آل أوتو » «Die ottonische Herrschaft» .

وتكشف كتابات هارتمان عن تخصصه فى التاريخ الإيطالى الوسيط . كما

---

(١) من أهم مؤلفات ممسن البحوث والمراجع التالية : T.E. Mommsen, «Ostgotische Studien,» Neues Archiv der Gesellschaft für ältere deutsche Geschichtskunde, XIV (1889), 223—49,451—544, XV (1890), 181 — 86; idem, «Apollinaris Sidonius und seine Zeit, Reden und Aufsätze, Berlin, 1905; idem, Medieval and Renaissance Studies, ed. by E. F. Rice, Ithaca, 1959.

يكشف البحث الذى قمنا بنقـــله إلى العربية فى هذا الكتاب عن نظرة المؤلف الشاملة للموضـــوع ، وكذلك أوجه الخلاف بين الامبراطورية البيزنطية فى الشرق من ناحية وبين مملكتى الفرنجة واللمبارديين فى الغرب من ناحية أخرى. فضلا عن شكل الدولة فى كل من الغرب الجرمانى والشرق البيزنطى فى القرون الوسطى المبكرة . ففيه دراسة ممتعة مركزة فى الأسس الاجتماعية والاقتصادية لأوجه النشاط السياسى خلال تلك الفترة من الزمن ، مع تمييز محدد دقيق بين كل من الاقتصاد « النقـــدى » money economy والاقتصاد « الطبيعى » natural economy أو « الاقطـاعى » manorial economy ، وبين كل من البيروقراطية بشقيها المدنى والعسكرى فى الشرق البيزنطى والاقطـاعية المحلية فى الغرب الجرمانى ، وإيضاح السبب فى أن كلا من الشرق والغرب قد نهج نهجاً يختلف عن الآخر . كل هذا يعرضه المؤلف فى أسلوب على يحوى زبدة بحوثه ودراساته ، والاستنتاجات التى توصل إليها ، والتى استغرقت السنين الطوال من العمل المتواصـــل المستمر . ولا شك أن معرفته بالعصر الكلاسيكى والتراث اللاتينى القديم قد أفادته كثيراً فى هذا الشأن .

يمهد هارتمان لحديثه عن شكل الدولة فى كل من الشرق والغرب فى العصور الوسطى المتقدمة ، بكلمة عن نظم الحكم كما عرفها التاريخ القديم . فيبدأ بأرسطو ونظريته السياسية التى تقوم أساساً على شكل واحد من أشكال الدولة ، وهو نظام المدينة اليونانية الحـــرة أو دولة المدينة التى كانت تتمتع باكتفاء ذاتى ، وتكون وحدة سياسية مستقلة عند الإغريق القدماء. وكانت هذه المدينة الحرة أو « البوليس » تتكون من عدد من القرى ، وكل قرية تتكون بدورهـا من اجتماع عدد من الأسر . والأسرة عندهم هى الوحدة الأساسية التى يقوم عليها المجتمع الانسانى . ويكون مثل هذا النظام السياسى مثالياً إذا ضمن للمدينة الحرة

الاكتفاء الذاتى . ويستعرض المؤلف بعد ذلك مراحل التطور فى نظام المدينة اليونانية الحرة التى نادى بها فيلسوف اليونان الكبير ، وهى الملكية والأرستقراطية أو حكم الأشراف والديمقراطية أو حكم العامة . ويرى أن روما فى تاريخها القديم قد مرت بنفس هذه المراحل الثلاث دون حدوث تغيير جوهرى فى جهاز الحكم والأسس التى يرتكز عليها ، وهى تقسيم العمل بين المحاربين الأحرار والعمال الكادحين غير الأحرار . والأحرار هم الغازون المنتصرون الذين يتمتعون بالنشاط السياسى وبالسلطة العليا فى البلاد . أما غير الأحرار فهم المنتجون للطعام المحرومون من حقوقهم ومن صفتهم كمواطنين . ولكن روما لم تلبث أن تخطت الحدود الضيقة لنظام دولة المدينة ، وكان ذلك خلال القرنين الأخيرين من تاريخ الجمهورية . فلم يستمر وجودها كمدينة حرة بعد التوسع فى عملية تحرير العبيد ، ومنحهم حقوقاً سياسية لم تكن تمارس إلا داخل روما ذاتها .

وامتد هذا التطور الذى طرأ على النظم السياسية والإدارية حتى شمل نظام الخدمة العسكرية . فتحولت الفرق التى كانت تعمل فى خدمة الإمبراطور ، والمعروفة باسم « ميليشيا » إلى جيش نظامى مدرب . وكانت الإمبراطورية الرومانية هى الخاتمة الطبيعية لهذا التطور . وقد ضمت عدداً من الأجناس والثقافات والحضارات المختلفة المتباينة والتى كان محورها البحر الأبيض . ولم يعد نظام دولة المدينة يتناسب مع مقتضيات عالم متغير . فأبطلت هذا النظام ، وأوجدت تنظيما جديداً يتفق والأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة وقتذاك . فانتهى نظام الحكومة الذاتية ، وفقدت المجالس البلدية وظائفها الإدارية ، وأصبح المجتمع أكثر تعقيداً وتشابكا . كما زال التقسيم القديم بين أفراد هذا المجتمع ، وغدت المهن والحرف متوارثة . كل هذا مهد لظهور طبقة

جديدة لم تكن معروفة من قبل هى البيروقراطية الرومانية بوظائفها ودرجاتها ومراتبها ورتبها ، والتى تمثل تطوراً كاملا فيما يتعلق بمركزية الحكم والإدارة . ولم تكن تلك البيروقراطية مستمدة من نظـــام دولة المدينة ، ولكنها تمثل فى الواقع ظاهرة جديدة فى المجتمع الرومانى تتميز بأساسها الهلليفستى القائم على الإقطـــاعات الكبيرة من الأرض يديرها جهاز من الإدار يين الأرقاء (١) . وأخذ هذا الشكل الجديد للتنظيم السياسى فى النمو خلال القرون الثلاثة الممتدة من عهد أوغسطس (٢٧ ق.م — ١٤ م) إلى عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م). هذا ، ويكشف الصراع الذى قام فى أخريات التاريخ القديم بين البيروقراطية الرومانية والدولة الاقطاعية الناشئة ، عن الشكل الذى كانت عليه الدولة فى كل من الشرق والغرب خلال العصور الوسطى المتقدمة .

فإذا نظرنا إلى بيزنطة — وريثة روما القديمة وحضارتها — نجد أنها كانت بيروقراطية الصبغـــة والطابع . إذ تميزت بجهازها الحكومى المركزى الضخم المعقد الذى يدير شئون الحكم فى الداخل والخارج ويعمـــل على تهيئة الأمن وسبل الاستقرار لها . وكان على رأسه الإمبراطور ، فالأعيان ، فالموظفون مرتبين ترتيباً دقيقـــاً وفقاً لمنزلتهم ودرجاتهم . وقد اشتهرت بعدائها الشديد للاستقلال المحلى واتجاهها نحو المركزية .

كانت بيزنطة إذن بيروقراطية الصبغة والطابع ، مركزية الحكم والإدارة . ومن المدهش أن الدولة أخرجت لنـا عدداً من الأباطرة الذين يعتبرون حجة

---

(١) تعرض الاســـتاذ م. روستفتزف فى كتـــابه « التـــاريخ الاجتماعى والاقتصادى للعالم الهللينستى » لهذه الناحية فى شيء من التفصيل. وأشار هارتمان إلى ذلك فى الفصل الاول من بحثه المترجم فى هذا الكتاب. انظر أيضا H. St. L. B. Moss, The Birth of the Middle Ages (1937), 1 — 37.

فى هذا الميدان ، من أمثال ليو السادس المعروف بليو العاقل من الأسرة المقدونية وإبنه قسطنطين السابع . لقد أبدى ليو العاقل نشاطاً وافراً فى ميدان التأليف فى الكثير مما يتعلق بشئون الدولة وأنظمتها . من ذلك كتاب « المحتسب البيزنطى » الذى أوضح فيه جميع الصناعات والسلع وأسعارها والتجارة فيها . وهو أيضاً صاحب كتاب « البروتوكول الإمبراطورى » لتنظيم البلاط وأصحاب الرتب . ونهج قسطنطين نهج أبيه فى هذا الصدد ، إذ كان هو الآخر من المحبين للكتابة والتأليف فى شئون الحكم والإدارة وما يتعلق بهما . ومن مؤلفاته « كتاب الأقاليم » «De Thematibus» الذى يمدنا فيه بسجل واف للولايات وحدودها وسكانها ومواردها . وكذلك كتاب « تنظيم الإدارة فى الإمبراطورية » «De administrando Imperio» الذى تم إعداده ليكون هدياً ونبراساً لإبنه رومانوس الشاب الذى عرف فيما بعد باسم رومانوس الثانى . ويحتمل أن يكون تاريخ وضعه فيما بين عامى ٩٤٩ و ٩٥٣ ، وهو يتضمن العديد من التوجيهات بشأن سياسة بيزنطة الخارجية . ويستعرض فيه كذلك أحوال الأمم التى لها علاقات مع بيزنطة . أما أطول مؤلفاته وأهمها فيما نحن بصدده فهو كتاب « مراسم القصور » «De cerimoniis» وهو عبارة عن مؤلف من قطع مختلفة مترابطة ببعضها ، ويتناول الأباطرة الذين سبقوا قسطنطين وأولئك الذين جاءوا بعده . ولهذا فهو يتضمن زيادات أضيفت إليه فى فترة متأخرة . كما يشمل فهارس للمقابر والأروقة والنفائس ، فضلا عما تضمنه من قواعد المعاملة فى البلاط وآداب السلوك . وفيه يصف سلطة الإمبراطورية وحقوقها وواجباتها وكل ما يتعلق بالحياة داخل القصر الإمبراطورى من حيث الإدارة المالية للقصر وكيفية تنظيم الاحتفالات الرسمية وكل ما يمت إلى الاتيكيت والبروتوكول بصلة . ولهذه المعلومات أهمية كبرى لأنها تمدنا بمادة وافية عن البيروقراطية البيزنطية والبلاط الإمبراطورى الذى يتميز ببهائه وطقوسه الدينية . وآخر

مؤلفات قسطنطين هو كتابه عن حياة جده الامبراطور بازيل المقدونى المعروف باسم « حياة بازيل » الذى يدافع فيه عن جده ويتكلم عنه باحترام وتقدير زائدين . ويمتاز أساساً بتلك المقدرة التى تتضح فى تغاضى قسطنطين عن الجوانب السيئة فى أعمال بازيل الأول مؤسس الأسرة المقدونية (١) .

وإن دل كل هذا على شىء ، فإنما يدل على تلك الصبغة التى اصطبغت بها الدولة البيزنطية كنتيجة طبيعية لسياسة الاقتصاد النقدى التى أخذت بها .

وكان هذا النظام البيروقراطى المركزى فى بيزنطة يقوم على قاعدة إقتصادية متينة تقوم بدورها على الضرائب باعتبارها مصدراً رئيسياً للدخل العام . ويقول هارتمان إن الضرائب كانت القاعدة الاقتصاديه المتينة التى قامت عليها تلك الدولة . ونراه يوجه عناية خاصة إلى هذه الناحية لما لها من أثر فعال على تكييف شكل الدولة ونظام الحكم فيها . ولسنا بحاجة للدخول فى تفصيلات النظام الضرائبى فى بيزنطة . فمصادر التاريخ البيزنطى ومراجعه تحوى نبذاً وإشارات عديدة متنوعة فى هذا الصدد . ويكفى أن نعرض له هنا عرضاً موجزاً . يقول ستيفن رنسيمان إن الضرائب كانت على نوعين : مباشرة وغير مباشرة . والضرائب المباشرة بدورها نوعان : ضرائب الأرض وضرائب الرءوس أو الأفراد . والأولى تقدر تبعاً لقيمة الأرض . وكانت جميع الممتلكات بما فيها الضياع الإمبراطورية ملزمة بدفع الضرائب . كما كانت تفاصيل التقديرات تدون فى سجلات فرعية بعواصم المقاطعات ، وفى السجل الرئيسى الكامل المحفوظ بدار الحكومة المركزية . وكانت هذه الضرائب تدفع أول الأمر عيناً ؛

---

(١) Baynes & Moss, Byzantium, 231; Barker, Social and Political Thought in Byzantium (1957), 100 — 104; Runciman, Byzantine Civilisation (1948), 81; Ostrogorsky, Byzantine State, 190 — 191.

ثم أصبحت تدفع نقـــداً فيما بعد . وكان نظام جبايتها متغيراً وفقاً للظروف والأحوال بين النظام المسمى بالضرائب الجماعية ونظام الالتزام التضامنى . هذا عن ضريبة الأرض، أما ضريبة الرءوس فمعلوماتنا عنها قليلة ويكتنفها الغموض. وهناك ضرائب إضافية على المنـازل والبهـائم والبضائع والآلات وغيرها ، كان يستخدم معظمها فى الأغراض الحربية . وأما الضرائب غير المباشرة فتتكون من مكوس الموانى والأسواق والعشور ورسم التمغة ورسوم الجمارك وهى أهمها ، ونعنى بها رسوم التصدير والاستيراد التى ضمنت مورداً ضخماً لخزانة الدولة .

ويضيف رنسيمان بأن هذا النظـــام الضرائبى المحكم كان يمون الإمبراطور بفيض لا ينقطع من المال الذى يدفع نقداً ، الأمر الذى مكنه من مواصلة العمل دون توقف بهيئة موظفيه المركزية الضخمـــة ، مع الاحتفاظ بجيش دائم ثابت قوى وأسطول بحرى كبير على أهبة الاستعداد لأى طارىء (١).

والحقيقة التى لا خلاف حولها أن الدولة البيزنطية كانت تشتهر بثرائها الفاحش الذى أطمع فيها الغزاة عبر القرون . ونلمس ذلك بوضـــوح فى كتابات عدد من المؤرخين القدامى من اللاتين والبيزنطيين على الســـواء :

---

(١) انظر S. Runciman, Byzantine Civilisation (1948), 96—100. وترجمته العربية « الحضارة البيزنطية » (١٩٦١) ، ص ١٠٨ — ١١٢ . راجع أيضا N. H. Baynes and H. St. L. B. Moss (eds.) Byzantium (1953), 56, 58, 69, 81 — 4, 282, 288 — 9, 293; N. H. Baynes, The Byzantine Empire (1939), 99 — 131; idem, Byzantine Studies and other Essays (1960), 59 — 66, 77, 85 — 6; G. Ostrogorsky, History of the Byzantine State (1956), 37 f., 60, 120 — 1, 167. ويجد القارىء فى كتاب استروجيورسكى اشارات أخرى عديدة عن الضرائب مبعثرة فى صفحاته .

من أمثال فوشيه دى شارتر والبرت دكس من مؤرخى الحملة الصليبيـة الأولى وروبرت كلارى مؤرخ الحملة الصليبيةالرابعة ، والاميرة الاغريقية أنّا كومنينا ابنـة الكسيس كومنين الذى شـاهد عصره بداية الحركة الصليبية . وقـد تحدثت فى كتابها « الألكسياد » عن أطماع الصليبيين اللاتين فى القسطنطينية التى كانت تعج بالأموال والنفائس من ذهب وفضة وأحجار كريمة (١) .

كل هذا جعـل الدولة البيزنطية ـ وفقا لرواية هارتمان ـ فى مركز أقوى بكثير من مركز أى دولة جرمانية فى الغرب . كما كان نفوذ الامبراطور البيزنطى يفوق نفوذ أى حاكم جرمانى .

هكذا ارتبط النظامان الادارى والمالى فى بيزنطة ارتباطا وثيقا بقيـام جيش وأسطول لهما من الكفاية والخبرة والاستعداد ما يمكنهما من حفظ البلاد من أى عدوان خارجى أو ثورة داخلية . والأمثلة على ذلك عديدة نستمدها من تاريخ بيزنطة الطويل (٢) .

لقد جعلت هذه الظروف من الامبراطورية البيزنطية المكان الوحيـد طوال العصور الوسطى الذى كانت تدرس فيـه وسائل الحرب وفنـون القتال والخطط والتكتيكات الحربيـة . كما أسهمت فى اخراج عدد من

---

(١) انظر عن ذلك جـوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ـ ص ١٦١ ح ١ و٣٠٩ و٣١٤ و٣١٨ و٣٢٤ ـ ٣٢٥ ؛ روبرت كـلارى : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ـ ترجمة الدكتور حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٤) ـ ص١١٠ و١٢٢ وما بعدها و١٣٩ ؛ جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية ـ ص ١٨٩ .

(٢) فيما يتعلق بالجيش والاسطول ونظم الخدمة العسكرية فى بيزنطة ، انظر المراجع الاجنبية التالية :

C. W. C. Oman, The Art of War in the Middle Ages (1960), 12 — 4, 31, 56; Baynes, The Byzantine Empire, 132 — 49; idem, Byzantine Studies, 62 — 6, 173 — 85.

الكتاب العسكريين الأكفاء ، ومن الحكام والقادة العسكريين • ووجه كثير من مؤرخيها عنايتهم الى الشئون العسكرية ، مثل المؤرخ بروكوبيوس الذى عاصر الامبراطور جستنيان ووضع مؤلفه المعروف باسم « التاريخ السرى » •

ويزودنا رنسيمان ببيان واف بالكتاب والأباطرة الذين أولوا الشئون العسكرية اهتمامهم ، والذين تكشف كتبهم عن تطور تاريخ العسكرية البيزنطية ، وما يتصل بفنون الحرب والقتال من خطط وتكتيكات وأجهزة ومعدات ، وما يتعلق بالجيش وفرقه وكتائبه وعدده وعتاده ورواتبه ولوازمه • واذا كان الجيش قد حظى بعناية البيزنطيين ، فانهم لم يغفلوا كذلك أمر الأسطول الذى أثبت كفايته وقدرته فى الكثير من المناسبات ، وتلقى النتف المبعثرة فى المصادر البيزنطية بعض الضوء على السفن وأنواعها وأسلحتها وعددها ، والدور الذى قامت به فى مواجهة أساطيل الأعداء ، والمعارك البحرية التى خاضتها •

مثال حى لذلك كتاب « فن الحرب » «Tactica Leonis» للامبراطور ليو السادس • وهو مؤلف مختصر يتناول النظم والأساليب الحربية وفن الحرب النظرى فى أيامه • كما أنه يعطينا صورة دقيقة واضحة عن الجيش البيزنطى وأساليبه وتكتيكاته فى الحرب والقتال ، وصورة عامة سريعة عن الأعداء الذى كان عليه مواجهتهم وقتالهم • ومن هذا الكتاب نعرف أن فرق الفرسان الثقيلة كانت لا تزال تعتبر العمود الفقرى للقوة الحربية البيزنطية • وكانت توجد فرقة مقيمة فى كل ولاية من الولايات على أتم استعداد لدفع أى غزو أو هجوم • وقد زاد عدد الجيش زيادة كبيرة بازدياد عدد الولايات نفسها • وكان أفراده يجمعون من رعايا الامبراطورية ، بينما كان القواد يختارون من بين الأرستقراطية البيزنطية ومن بيوت الاشراف التى ورد ذكرها فى السجلات الملكية مثل بيوت دوكاس

Ducas وفوكاس Phocas وكومنين Comnenus وديوجينيس Diogenes وغيرها . والمتصفح لهذا الكتاب يلمس ثقة مؤلفه فى قوة الجيش البيزنطى وقدرته على ملاقاة الأعداء . كما أن فيـــه الكثير من النصائح التى يزود بها قواته . وفوق هذا وذاك فان الكتاب يمدنا بصورة واضحة عن كيفية تنظيم الجيش وتسليحه وتموينه وعن ملبسه والعنــاية التى تبذل للجند الجرحى فى ميدان القتال ، وما الى ذلك من البيانات والمعلومات الدقيقة الهامة . وان كان ليو قد خصص الجانب الاكبر من الكتاب فى الحديث عن الجيش ، فقد تعرض كذلك للأسطول البيزنطى والغرض منـــه . ونعرف منه أن الدولة كانت تحتفظ بثلاثة أساطيل ، أحدها فى البحر الأســـود ، والثانى فى المياه الغربية والأخير فى بحر ايجه . والأســطول الأخير هـــو أكبرها عدة وحجما وقاعدته فى القسطنطينية نفسها . هذا فضلا عن الموانى العديدة الموجـــودة فى ساموس وسالونيكا وغيرهما حيث كانت ترســـو السفن ويتم اصلاح قطع الأسطول التى يصيبها التلف (١) .

وخلاصة القول أن نجاح البيزنطيين فى تنظيم جيشهم وأســـطولهم ، فضلا عن جهازهم الديبلوماسى النشط اليقظ ، وحكومتهم البيروقراطية المركزية — كل هـــذا مكن دولة الروم من الصمود أكثر من ألف عام أمام الهزات التى تعرضت لها (٢) ويرى هارتمان أن الفضـــل الأول فى ذلك

---

(١) Ostrogorsky, Byzantine State, 83 n.2, 191, 226; Runciman, Byzantine Civilisation, 154 — 155.

(٢) انظر Runciman, op.cit., ch. VI, 136—62. ، وترجمته العربية « الحضارة البيزنطية » ، ص١٥٨ — ١٩٣ . راجع أيضا E. Barker (ed.), Social and Political Thought in Byzantium (1957), 123ff., 199ff.: Baynes and Moss (eds.), op. cit., 72 f, 294 ff.

يرجع الى نظامها المالى المتين القائم على سياسة الاقتصاد «النقدى».وهذا ما يؤكده أيضا شارل ديل فى كتابه « بيزنطة : عظمتهـا وانحلالها [١].

ويقودنا الحديث عن بيزنطة وجهازها البيروقراطى وحكومتها المركزية، الى الحديث عن رأس هـذه الحكومة والشخصية الأولى فيها ، ونعنى الامبراطور : فقد حرصت تلك الدولة على ألا تبقى السلطة فى قبضة حكام ضعاف يسيئون اليها ، بل أن تكون فى قبضة رجال أشداء أقوياء يتمتعون بشخصيات بارزة ، ويعرفون كيف ينهضون بها . ولم يكن هذا التنظيم وليد يوم وليلة ، ولكنه ارث من الأنظمة الرومانية القديمة ، تناوله المشرعون عبر القرون الطويلة بالتعديل والتبديل ، والصقل والتهذيب ، والحذف والاضافة ، حتى يتلاءم ومطالب الدولة الجـديدة . لقد كان الامبراطور البيزنطى هو الحاكم الفرد . وكان يلقب فى العهد المبكر باسم «امبراطور» أو « أوغسطس » . ثم حل لقب « الحاكم الاوتوقراطى » [٢] تدريجيـا محل لقب امبراطور ، عندما اصطبغت الامبراطورية بالصبغة الشرقيـة الهللينية ، وأصبح الامبراطور منذ أيام هرقل يلقب عادة باسم «باسيليوس» وهو الاسم الاغريقى القديم لملك الملوك . وكانت واجبـات الامبراطور ومشاغله ومهام الحكم وأعباؤه تلتهم كل وقته . وكان فى العـادة جنديا محاربا . وهو أيضـا رأس الكنيسة منـذ أن اعترف قسطنطين الكبـير بالمسيحية فى مستهل القرن الرابع [٣] . وهكذا تحدد منذ البداية موقف الدولة من الكنيسة باعتبارها جزءا لا يتجزأ منها . ولقد رفع كل هذا من

(١) انظر C. Diehl, Byzance : grandeur et décadence (1919), ch. V, 87 — 103.

(٢) أو الأوتوقراطور ، أى الحاكم الفرد المستبد .

(٣) Runciman, op. cit., 61 ff., cf also Baynes, The Byzantine Empire, ch.IV, 59 ff.

مقام الامبراطور ومكانته ، وجعله حارس أبواب السماء ، وراعى القطيع مثل بطرس كبير الرسل حسبما ادعى الامبراطور ليو الثالث الأيسورى • كما حال دون قيام صراع مكشوف حول الأمور الدنيوية بين الأباطرة ورجال الدين وعلى رأسهم البطاركة ، بعكس الحال فى الغرب اللاتينى الذى يعتبر من أبرز خصائصه ذلك الصراع العنيف الذى قام بين البابوية والامبراطورية حول المسائل العلمانية • لقد كان البطريق البيزنطى يدين بالولاء للامبراطور • فهو الذى يقوم بتعيينه ، وبوسعه أن يخلعه من منصبه ، وأن ينتخب رجل دين آخر يخضع لارادته ومشيئته • وكانت المحاولات الهادفة الى فصل الكنيسة عن سلطة الدولة مقضيا عليها بالفشل [1] .

واذا خرجنا عن دائرة الامبراطور والسلطة الضخمة التى كان يتمتع بها ، نجد أنه كانت توجد فى بيزنطة عائلات أرستقراطية كونت ثروات كبيرة مستثمرة فى الأرض • وكان كل من ينضوى فى سلك الجندية يكافأ بمنحه هبات من مزارع ضخمة تجيز له أن يؤسس أسرة نبيلة • ومع ذلك فقد سعى الأباطرة الى الحد من هذه العطايا ، والعمل على ألا تزيد رقعة المزارع التى

---

(١) Runciman, op.cit., 108 f., 112 ff.; cf also Baynes, The Byzantine Empire, 75 ff.; idem, Byzantine Studies, 48 — 53, 75 — 6, 302 — 5,368 — 70. وهناك حالات فردية معدودة وقع فيها الخلاف بين بعض الأباطرة والكنيسة البيزنطية ، ولكن لا يجوز اتخاذها كمقياس ثابت لاتجاه معين . مثال ذلك عندما عارض البطريق نيقولا ميستيكوس زيجة رابعة للامبراطور ليو السادس لمخالفتها القانون الكنسى . وانتهزت الكنيسة البيزنطية هذا الحادث لتحقيق استقلالها على حساب الامبراطور . أنظر عن ذلك Barker (ed.), op. cit., 9; J. M. Hussey, The Byzantine World (1957), 132. ونجد مثلا آخرا فى موقف الكنيسة البيزنطية وهيئة رجال الدين بها من الحركة اللا ايقونية والاباطرة اللاايقونيين . أنظر Ostrogorsky, op. cit., 179

كانت آخذة فى النمو حتى لا تكون مصدر خطر عليهم . وكانت آسيا الصغرى بصفة خاصة موطنا للعائلات الاقطاعية الكبيرة التى وصل بعضها الى الوظيفة الامبراطورية . كذلك كان يشغل المناطق الريفية مجتمعات قروية من الارقاء أو الاحرار . وكان القروى الرقيق مرتبطا بالارض ، وأبناؤه أرقاء مثله . كما كان سيده مالك الأرض يدفع الضرائب للدولة. وهناك مزارعون مستأجرون فى كثير من مزارع الأغنياء ، وهم من الأحرار ويدفعون الايجار نقدا أو عينا . والى جانب العبد الرق والمزارع المستأجر يوجد القروى الحر. وكل هؤلاء كانوا مرتبطين بالأرض الزراعية . وقد عملت الدولة جاهدة على أن يبقوا مرتبطين بها ، وعلى ألا يغادروها الى المدن حتى يتسنى استمرار تزويد العاصمة بالطعام والقوت الضرورين [١] .

لقد كانت الظروف التى تطور فيها التنظيم الزراعى فى بيزنطة تختلف تماما عن تلك التى تطور فيها فى الغرب. فلم يتمتع كبار ملاك الارض فى الشرق باستقلال ذاتى مثلما تمتع السادة الاقطاعيون فى الغرب . فحضارة الغرب فى تلك الحقبة من الزمن حضارة ريفية زراعية بحتة ، واقتصادها اقتصاد طبيعى يتصل بالأرض ، والمحلية ضاربة أطنابها فى كل شيء . ذلك أن الاقطاعية وحدة اقتصادية مغلقة مكتفية ذاتيا اكتفاء غير متطور . بينما حضارة الشرق حضارة مدنية ، اذ ظلت المدن فيها هى العمود الفقرى للتنظيم الاجتماعى . ولم يكن يخشى على سيادة الدولة من كبار ملاك الأرض وأصحاب المزارع الشاسعة الذين ظلوا دائما تحت رقابتها ونفوذها

---

(١) Runciman, op. cit., 196 f., 206 ff. — راجع أيضا الترجمة العربية لكتاب رنسيمان « الحضارة البيزنطية » ، ص ٢٣٥ — ٢٣٦ ، و ٢٤٨ — ٢٥٠ . وكذلك الفصل السادس من كتاب نورمان بينز ، وعنوان الفصل المذكور « ملاك الارض والضرائب » Baynes, The Byzantine Empire, 99 ff.

وقاموا بدفع الضرائب لها . وترتب على ذلك عدم قيام نظام اقطاعى أصيل فى بيزنطة حتى القرن الثانى عشر الميلادى تقريبا ، وهو الوقت الذى كان فيه الاقطاع فى الغرب قد بلغ ذروة نضجه وكماله وتمامه .

لعلنا نخلص مما سبق كيف ترك التنظيم المالى المتين القائم أساسا على سياسة « الاقتصاد النقدى » أثره فى قيام حكومة مركزية بيروقراطية فى الدولة البيزنطية ، وفى وجود امبراطور قوى على رأس هذه الحكومة بيده الأمر والنهى والحل والعقد ، وفى وجود جيش ثابت قائم مزود بكل مايلزمه من السلاح ومدرب أحسن تدريب ، وكذلك أسطول قوى مجهز بكل مايلزمه من عدة وعتاد ورجال . فضلا عن وجود تنظيم عسكرى قوى فى مناطق الحدود المعرضة للخطر يدفع عنها غائلة العدوان ويضمن للأطراف النائية للدولة الأمن والسلامة . وفوق هذا وذاك فقد غدت الكنيسة البيزنطية جزءا من الدولة وليست دولة داخل الدولة تسبب لها المتاعب والمضايقات. وأخيرا أدى هذا الوضع الاقتصادى الى وجود جهاز ادارى ضخم يشرف على شئون هذه الدولة الواسعة المترامية الأطراف ويعمل على تهيئة سبل الاستقرار لها فى الداخل والخارج . وغنى عن القول أن هذا كله مكن بيزنطة من البقاء أكثر من ألف عام بعد زوال الامبراطورية الرومانية القديمة فى الغرب ، متحدية بذلك الزوابع والأعاصير التى واجهتها بين الحين والحين .

واذا كانت الدولة البيزنطية قد تشكلت وفقا للظروف التى ألمت بها ، فقد كان للدول الجرمانية فى الغرب وضعها الخاص . ففى أخريات القرن الخامس سقطت روما فى أيدى الجرمان البرابرة . وبسقوطها تنتهى الامبراطورية الرومانية القديمة بنظمها وحضارتها ، وتنهال جحافل الجرمان فى جوفها ، وتؤسس ممالك على أنقاضها ، لها تقاليدها وعاداتها ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة بها .

ونستطيع القول بأن البرابرة لم يكن لهم هدف عام أو سياسة مرسومة لها أغراض يسعون الى تحقيقها ، عندما تحركوا فيما وراء نهرى الدانوب والراين لهدم الامبراطورية الرومانية وتجزئتها فيما بينهم ، ولم يكونوا يحقدون على روما أو يكرهونها • فقــد نزحت القبائل الجرمانية بكامل عددها تنشــد وطنا جديدا لها ، أملا فى التخلص من الضغــط الشديد المتزايد الذى جاء فى مؤخرتها من أجناس أخــرى أشد بربرية منهــا هى القبائل الســلافية والأجناس المغوليــة • وكان الجرمان أثناء ارتحالهم يعلمون تمام العلم حالة الدولة الرومانية عن طريق استخدام أباطرة الرومان — وبخاصة فى عهدهم الأخير — عددا كبيرا منهم كجند مرتزقة • وقدفتح هذا أعين الجرمان الى مــا تحويه الامبراطورية من تراث ورخــاء وثروة ومدنية • كما تعرفوا على نقــط الضعف والقــوة فيها ، فى وقت كانوا يستعدون فيه للنزوح داخــل حدودها • لقدبهرت المدنية الرومانية أعين الجرمان ، حتى أنهم عندما دخلوا فيها لم يقصدوا فى بادىء الأمر هدمها والقضاء على حضارتها ، بل كانوا يرغبون فى أن يجدوا لهم مكانا أمينــا بين ظهرانيها ، كى يتمتعوا بما فيها من نظام وحضارة مزدهرين •

وكان القوط هم أول الشعوب الجرمانية التى نزلت بالامبراطورية الرومانية المنهارة • وهم ينقسمون الى قسمين : القوط الشرقيون والقوط الغربيون • وقد اتجه الأولون غربا نحو الأدرياتيك ، وأسسوا فى أواخر القرن الخامس مملكة لهم فى ايطاليا بفضل ملكهم ثيودوريك الذى اشتهر فى التاريخ وبقى اسمه على صفحاته الى اليوم • ومما يذكر عنه أنه واصل التقاليد الرومانية القديمة قدر استطاعته ، مع احتفاظه بشىء من عنف النظام المتبربر • فقد كان ينظر الى الحضارة الرومانية كمثل أعلى يجب أن يحتذيه • ولم يظل

ملك القوط الشرقيين طويلا ، إذ انهار على يد جستنيان سنة ٥٣٧ . والقسم الثانى هم القوط الغربيون ، وقد انتهى بهم الأمر إلى تأسيس مملكة لهم فى أسبانيا عاشت قرابة ثلاثة قرون من الزمان إلى أن قضى عليها طارق بن زياد سنة ٧١١ .

وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه القوط ، ظهر عنصر آخر هو الوندال الذى دخل الإمبراطورية متأخراً بعض الشىء . وقد استولى الوندال على شمال افريقية سنة ٥٢٩ ، حيث أسسوا بها مملكة جديدة تمتد من المحيط الأطلسى إلى حدود مصر تقريبا . وانهار ملكهم سنة ٥٣٥ على يد بليزاريوس قائد جستنيان المشهور.

تلك هى أهم القبائل التى غزت أوروبا عقب سقوط الامبراطورية ، ولم تترك أثرها الدائم على المناطق التى اكتسحتها . ولكن هنالك عناصر متأخرة أتت فيما بعد ، وثبتت فى أماكنها الجديدة التى غزتها ، وتركت طابعها عليها ؛ وأهمها قبائل اللمبارديين فى شمال ايطاليا وقبائل الفرنجة فى فرنسا والمانيا . واللمبارديون من الأجناس الجرمانية التى قدمت من المناطق الشمالية ودخلت ايطاليا سنة ٥٦٨ . إذ قادهم ملكهم المدعو البوين Alboin عبر الألب إلى سهول ايطاليا الشمالية التى سميت بإسمهم إلى اليوم . وقد اختلفوا عن القبائل الجرمانية الأخرى فى طريقة معيشتها وحياتها فى المزارع والقرى الصغيرة . فقد كان اللمبارديون يفضلون الحياة فى المدن على الإقامة فى السهول المزرعة ، وذلك على غير عادة القوط والجرمان عموما . وبمرور الوقت زال ملكهم ، وكان ذلك فى أواخر القرن الثامن .

كذلك كان للفرنجة أهميتهم التاريخية الفائقة ، لأنه بدخولهم فى حظيرة الدول الأوروبية قامت حكومات جديدة فى أوروبا لها طابعها وكيانها ومقوماتها . وعلى هذا الأساس قامت دولة فرنسا ودولة ألمانيا ، اللتان كان لهما شأن عظيم فى تاريخ العصور الوسطى وفى التاريخ الحديث حتى يومنا هذا .

لقد استقر الفرنجة غربا فى غالة ، وأسسوا لهم مملكة ثابتة الدعائم . ومن أبرز ملوكهم مؤسس دولتهم المسمى كلوفيس Clovis . ومن أهم ما اتخذه من إجراءات ، اعتناقه هو ورجاله المسيحية على المذهب الكاثوليكى الرومانى سنة ٤٩٦ ، وهدفه من ذلك أن تكون هذه الوحدة الروحية التى تجمع بين شق الشعب الرومانى والجرمانى ، أساساً وطيد الأركان لتلك الدولة التى كان يجلس عليها . وساعد على تدعيم سلطانه أن أنعم عليه الامبراطور البيزنطى اناستاسيوس الأول Anastasius I سنة ٥٠٨ بلقب « حاكم غالة الرومانية » . فكان هذا إيذاناً بتأسيس الدولة الميروفنجية وعلى رأسها كلوفيس . ولكن جاء بعده عدد من الملوك الضعاف فى وقت اشتد فيه ساعد أمراء القصر ، إلى أن انتهى الأمر بزوال الأسرة الميروفنجية فى أواسط القرن الثامن ، وانتقال التاج إلى أسرة جديدة هى الأسرة الكارولنجية ، وعلى رأسها شارل العظيم أو شارلمان (١) . وبتأسيس هذه الأسرة وما ارتبط بها من إحياء الامبراطورية

---

(١) فيما يتعلق بالجرمان البرابرة وغزواتهم والممالك التى أقاموها على أنقاض الإمبراطورية الرومانية ، أنظر المراجع التالية :

J. L. LaMonte, The World of the Middle Ages (1949), 36—50, 70 — 3, 152—5; N. F. Cantor (ed.), The Medieval World (1963), 69 — 81 ; R.E. Sullivan, Heirs of the Roman Empire (1960), 10, 12—3, 17, 31, 37—42, 48—50, 63—6, 73, 101, 104, 107; S. Katz, The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe (1960), 88—9, 91—2, 99, 100, 104 — 5, 108 — 10, 112, 114 — 5, 118, 135; Moss, Birth of the Middle Ages, 38 — 78; S. Dill, Roman Society in the Last Century of the Western Empire (1958), 287—91, 309, 332 ff., 349; M. L. W. Laistner, Thought and Letters in Western Europe (1957), 15—25, 169—71, 189—90, 269—71; H. O. Taylor, The Mediaeval Mind (1959) I, 110 ff.; N. Machiavelli, Florence and the Affairs of Italy to the Death of Lorenzo the Magnificent (1960), 1—6, 10—2. =

الرومانية المقدسة فى الغرب، يدخل التاريخ الأوروبى فى مرحلة جديدة من أبرز صفاتها النزاع الذى قام بين الإمبراطورية الغربية من جهة وبين كل من الدولة البيزنطية فى الشرق والبابوية فى روما من جهة أخرى .

وإذا نظرنا نظرة فاحصة مدققة إلى الدول التى أقامها الجرمان على أنقاض الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، نجد أنها تختلف فى شكلها وطابعها عن الدولة الرومانية القديمة والدولة البيزنطية . فقد زالت مع الزمن البيروقراطية الرومانية نتيجة لتصدع الاقتصاد الرومانى ، واندثرت الطبقة الرومانية القديمة صاحبة الأرض باستقرار الجرمان فى الغرب وانتزاعهم السلطة والسيادة من الرومان . وأخذ النظام الاقطاعى فى الظهور والنمو ، وهو نظام عرفه الجرمان فى مواقعهم الأصلية حتى قبل نزولهم فى جوف الامبراطورية ، وأساسه العلاقة بين السيد والمسود أو التابع والمتبوع وقوامها الأرض وما تغله من خيرات . وساد تبعا لذلك نظام « الاقتصاد الطبيعى » بدلا من « الاقتصاد النقدى » الذى كان طابع الإمبراطورية الرومانية فى قرونها الأخيرة (١). ونما الاتجاه نحو المحلية والبعد عن

= راجع إيضا ديفز (هـ. و. ك.) : أوربا فى العصور الوسطى (١٩٥٨) ، ص ٢٧ — ٥٧ .

(١) فيما يتعلق بالتحول من نظـام الاقتصاد « النقدى » أو الاقتصاد « المالى » «money» economy الذى ميز الامبراطورية الرومانية فى أخريات عهدها ، إلى نظام الاقتصاد « الطبيعى » «natural» economy فى العصور الوسطى المبكرة ، أنظر : G. Mickwitz, Geld und Wirtschaft im römischen Reich des 4 Jahrh. n. Chr., Helsing fors, 1933; H. Geiss, Geld-und natural-wirtschaftliche Erscheinungsformen im staatlichen Aufbau Italiens während der Gotenzeit, Stuttgart, 1931 ; A. Dopsch, Natural — und Geldwirtschaft, Vienna, 1930. وينفى دوبش فى ص ١١٠ من كتابه سالف الذكر الرأى القائل بأن الجرمان قضوا تماما على سياسة الاقتصاد «النقدى» التى ميزت الامبراطورية الرومانية فى قرونها الأخيرة ، وأنهم أحلوا محلها سياسة الاقتصاد =

مركزية الحكم . وغدا الملك هو « الأول بين أقرانه » Primus inter Pares فحسب . فالسادة الإقطاعيون ملوك فى دوائر إقطاعاتهم ، حتى لقد اعتبروا أن الملك ليس فى الواقع إلا واحدا منهم قدموه على أنفسهم . كما عاد إلى الظهور التقسيم القديم بين طبقتى المحاربين الأحرار والعمال الكادحين غير الأحرار . ونجد مثلا واضحا لذلك فى مملكة اللبارديين . واختفى نظام الضرائب المباشرة، وانعدم الجند المرتزقة الذين تدفع لهم الدولة أجورهم ورواتبهم ، وبات الجيش إقطاعيا فى تكوينه . فضلا عن عدم وجود جهاز إدارى متكامل يتولى دفة الحكم فى البلاد ، والعمل على استتباب الأمن وفرض النظام وإقامه العدالة . فقد كان الجهاز الإدارى المتشابك والنظام المالى المعقد اللذين عرفهما الرومان القدماء ، وورثهما عنهم البيزنطيون ، فوق طاقة الجرمان وعقيلتهم وتصورهم (١) .

= «الطبيعى» التى تتفق مع احتياجاتهم ومطالبهم البدائية . والحقيقة أن استخدام المال كوسيلة لدفع الغرامات والضرائب وما إليها استمر بصفة عامة فى عصر كل من الميروفنجيين والكارولنجيين وبوجه خاص فى جنوب فرنسا وايطاليا . إلا أن عدم وجود حكومة منظمة ، فضلا عن عدم انتظام التجارة عقب انهيار الامبراطورية الرومانية فى الغرب وقيام البرابرة بغزواتهم — كل هذا أدى تدريجيا إلى تكوين مجتمعات محلية تعتمد فى معيشتها على سياسة الاكتفاء الذاتى . وكانت المقايضة هى وسيلة التعامل الرئيسية السائدة بينها . كذلك لم تكن المكافآت على الخدمات التى تؤدى تدفع نقدا . أنظر ; Moss, Birth of the Middle Ages, 270; H. Pirenne, G. Cohen and H Focillon, La civilisation occidentale au moyen âge (1941), 27—39, 104.

(١) ج. ج. كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (١٩٦٧) ص ٣٧ — هذا ولم يكن شكل الدولة قد تحدد بصورة واضحة فى تلك الفترة المبكرة من التاريخ الوسيط . فلم تكن توجد — وفقا لرأى فيجيز — فكرة واضحة عن الدولة ومقوماتها ومفهومها . كما لم يوجد حاكم أو ملك بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح . ففى ظل الإقطاعية لايوجد قانون عام ، كما أن الحقوق بجميع أنواعها هى فى الواقع حقوق خاصة وشخصية بما فى ذلك تلك التى يتمتع بها الملك أنظر :

J. N. Figgis, Political Thought from Gerson to Grotius (1960), 12-3.

وجدير بالذكر أن الانتقال من الاقتصاد « النقدى » إلى الاقتصاد « الطبيعى » لم يكن فجائيا أو غير متوقعا . كما أنه لم يظهر طفرة واحدة ليعلن عن نهاية عصر بنظمه وأوضاعه وبداية عصر جديد له أوضاع جديدة مغايرة . بمعنى أنه لم يتضح تماما فى الممالك الجرمانية المبكرة التى قامت على أنقاض الإمبراطورية الرومانية المنهارة فى الغرب . فقد كانت أوروبا وقتها تمر بفترة تغير من القديم إلى الوسيط . ولم يكن هناك شىء ثابت على حاله ، بل كان كل شىء فى تغير دائم مستمر . وقد اختلط الجديد بالقديم ، وإن كان القديم آخذا فى التلاشى بصفة تدريجية ليحل محله الجديد . وقد استغرق هذا ـ بطبيعة الحال ـ وقتا غير قصير . ونجد مثلا واضحا لذلك فى دولة القوط الشرقيين فى ايطاليا حيث احتفظ كل من المحاربين الجرمان والمدنيين الرومان بنظامه الخاص به . إذ ظل القوط ، بصفة عامة ، جندا مرتزقة كما كانوا من قبل ، بينما بقيت البيروقراطية الرومانية على حالها دون أن يؤثر فيها الوضع الجديد بشكل جذرى حاسم ومحدد .

ولكن بزوال الممالك الجرمانية المبكرة وقيام الدول الجرمانية المتأخرة مثل اللباردييين فى الشمال الايطالى والفرنجة فى غالة ، تتغير الأوضاع ، وتستبين أكثر فأكثر الملامح الجديدة التى طبعها الاقتصاد « الطبيعى » على المجتمع الغربى ، وتأخذ الدولة شكلا مغايرا يتلاءم مع أوضاع عالم متغير . إذ ينتزع اللبارديون والفرنجة ، وهم الغزاة المنتصرون، أملاك الطبقة الرومانية القديمة صاحبة الأرض. وكانت النتيجة الطبيعية لكل ذلك أن حل محل الدولة الرومانية نبت جديد ارتبط ارتباطا وثيقا بالأوضاع التى أحاطت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط .وكان أن زالت ضريبة الأرض التى عرفها الرومان القدماء ، ولم يعد هناك مكان للجند المرتزقة ، وبات الجيش اقطاعيا فى تكوينه ، وانهارت البيروقراطية الرومانية من أساسها ، واختفت طبقة الإداريين العلمانيين المرتبطة بها ، واندثرت مع

الزمن الطبقة الرومانية القديمة صاحبة الأرض لتحل محلها طبقة جديدة من الغزاة الجرمان التصقت بالأرض التى انتزعتها من أصحابها الرومان المغلوبين الذين جعلتهم اتباعا لها بصورة أو بأخرى . ونتج عن كل هذا نمو الاقطاعيات وتطورها حتى أنها أصبحت تشكل الوحدة الأساسية للنظام الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع الغربى الوسيط لقرون عديدة لاحقة .

هكذا قامت الدولة فى الغرب على أساس اقتصاد « طبيعى » يرتبط بالأرض وما تنتجه من محاصيل وغلات . وقد أدى هذا إلى وجود مجتمعات محلية ووحدات اقتصادية مغلقة غير متطورة تعتمد على سياسة الاكتفاء الذاتى . ولم يعد هناك ما يعوق النمو الاقطاعى والتقسيم الطبقى بين الأحرار وغير الأحرار فى الغرب ، أو بين الغزاة الجرمان المحاربين المنتصرين وأهالى البلاد المنهزمين العاملين فى الأرض . إذ كانت التربة ممهدة لنمو هذه البذرة الجديدة : فى مجتمع أصبحت الغلبة فيه للقوى ، وأصبح من يملك الأرض يملك معها السلطة والنفوذ .

وترتبت على ذلك آثار بالغة الأهمية والخطورة فى الغرب الأوروبى . إذ حلت المحلية محل الحكومة المركزية التى أصابها الضعف والوهن ، وبات المجتمع طبقيا فى تكوينه يتألف من طبقات أفقية تتسع تدريجيا كلما نزلنا إلى اسفل . على قمة هذا الهرم أقلية من السادة الاقطاعيين الذين يملكون الأرض ويتمتعون بثمارها وخيراتها دون جهد ، وفى قاعدته أغلبية ساحقة من العبيد والأقنان والأرقاء وصغار المستأجرين الذين يعملون ويكدحون فى الأرض لصالح متبوعيهم ، دون أن يتمتعوا بثمار كدهم وعرقهم .

وكنتيجة لهذه الأوضاع الجديدة التى استجدت على الغرب استقلت الكنيسة الرومانية اللاتينية عن الدولة ، ولم تعد جزءا منها كما كان الحال فى بيزنطة فى الشرق

لقد كانت بمثابة دولة داخل الدولة . ويزيد جورج جوردون كولتون الأمر وضوحا ، فيقول إن الكنيسة كانت الوريثة الشرعية للإمبراطورية الرومانية القديمة (١) . ولهذا القول مغزاه ودلالته . إذ قامت تلك الكنيسة برعاية أرواح أتباعها فى فترة القلق والاضطراب التى صاحبت غزوات البرابرة على الإمبراطورية وأعقبتها . وكان رجال الدين أنفسهم هم المحتكرين للعلم ، وأدت بهم الظروف إلى أن أصبحوا من كبار ملاك الأرض . فكانوا يقتنون العبيد ، ويتصرفون فيهم بالبيع والشراء ، ويتبادلونهم ويقتسمونهم فيما بينهم ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من الحكام العلمانيين (٢) . وقد تعرض هارتمان لذلك بشىء من التفصيل والتحليل .

ولقد كان الخلاف واضحا بين الغرب الجرمانى والدولة البيزنطية ، وترك أثره على كافة النواحى الأخرى ، وبخاصة المجال العسكرى . فلم تكن سياسة الاقتصاد «الطبيعى» التى سادت فى الدول الجرمانية لتسمح بتكوين جيش قائم منظم مدرب ، وإقامة استحكامات عسكرية ، وإنشاء أسطول بحرى ، مما يهىء للدولة الأمن والسلامة . بينما كان بوسع بيزنطة التى أخذت بسياسة الاقتصاد « النقدى » ، الإبقاء على جيش ثابت وأسطول كبير ، والعمل على صيانتها ، فضلا عن انشاء الحاميات والاستحكامات ، مما ساعدها على البقاء قرابة أحد عشر قرنا ، والصمود أمام الهزات والأزمات العنيفة التى كانت تتعرض لها بين وقت وآخر .

ويتناول هارتمان بعد ذلك سياسة الأباطرة الغربيين حيال ايطاليا ، موضحا أسباب ضعف النفوذ الإمبراطورى فيها ، قائلا إنه لم تكن هناك رقابة فعالة

---

(١) كولتون : المرجع السابق ، ص ٩٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٠ ومابعدها وص ١١٥ ومابعدها . أنظر أيضا جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٦٨ ومابعدها و ١١٢ ومابعدها .

أو إدارة حازمة من قبل شارلمان وخلفائه . ولم يكن بوسع أى امبراطور ألمانى ممارسة سلطة فعلية فى ايطاليا إلا عندما يكون هو شخصيا مقيما فيها ، وتحت إمرته جيش ثابت مستعد لمواجهة أى طارىء ، ولم يكن هذا الأمر ميسوراً بصفة دائمة ، ذلك أن الجيش الاقطاعى لم يكن جيشا قائما منظما ، كما أنه ليس بوسع الإمبراطور البعد عن عاصمته لفترات طويلة . وهذا يعنى أنه كانت هناك نوبات قصيرة من الرقابة اليقظة فى ايطاليا ، تعقبها فترات طويلة من التكاسل والتراخى . وكان للظروف التى طبعها الاقتصاد « الطبيعى » أثرها الواضح فى ذلك (١) .

وأقرب مثل إلينا إحياء الامبراطورية أيام شارلمان فى القرن التاسع ، وتجديدها فى عهد أوتو فى القرن العاشر . فقد تم ذلك عن طريق التدخل فى الشئون الايطالية بدعوة من البابوية ولصالحها ضد خصومها ، ومباركة البابوية للامبراطورية التى تم « احياؤها » وتلك التى تم « تجديدها » . ولقد أكد هذا ، من ناحية أخرى ، أهمية وجود ايطاليا وروما داخل نطاق الامبراطورية الجديدة . ذلك أن الامبراطورية الرومانية القديمة استمدت كيانها وشخصيتها ومفهومها من ايطاليا باعتبارها جزءا أساسيا منها ومن روما « الخالدة » مقر الكرسى الامبراطورى . وعلى هذا لكى تصبح الامبراطورية « رومانية » ، يجب أن تدخل ايطاليا وروما فى نطاقها . ولكى تدخل ايطاليا وروما فى نطاق الامبراطورية « المحياة » أو « المجددة » يجب أن تكون هناك رقابة دائمة فعالة ، وجيش قائم مسلح يحافظ على الوجود الامبراطورى فى ايطاليا . وهذا ما لم

---

(١) تعرض بارا كلاف لهذه الناحية بشىء من التفصيل فى الفصل الثالث من بحثه المترجم فى هذا الكتاب .

يتيسر فى ظل الاقتصاد « الطبيعى » الذى ساد الغرب خلال تلك الحقبة من الزمن ، والذى لم يسمح بوجود موارد مالية منظمة لا تنقطع يمكن الانفاق منها على جيش واسطول قويين بوسعها الابقاء على ايطاليا داخل حظيرة الامبراطورية . وهذا ما دفع المؤرخ هارتمان إلى أن يقول ، بحق ، أنه كان من الممكن كسب المعارك ولكن دون الافادة منها .

ويعرض المؤلف بعد ذلك لموقف إيطاليا من كل من البابوية والدولة البيزنطية . فاذا نظرنا إلى الأجزاء الإيطالية الخاضعة لبيزنطة ، نجد أنها كانت تختلف عن مثيلاتها فى الغرب الجرمانى . ففيها سمات مجتمع قائم على أساس بيروقراطى مندمج مع نظام خاضع للاقتصاد « الطبيعى » . ولم يكن الاتصال بين تلك الأجزاء وبين الحكومة المركزية فى بيزنطة قويا فى يوم من الأيام . كما لم يكن بوسع بيزنطة إعادة البيروقراطية المدنية والعسكرية فى إيطاليا إلى نفس المستوى الذى كانت عليه فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية نفسها . وعندما أعيد تأسيس الادارة البيزنطية فى جنوب ايطاليا أيام الامبراطور نقفور الثانى فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩) ، سعى إلى إعادة التوازن بين البيروقراطية وطبقة ملاك الأرض . وأما فيما يتعلق بالجهات الخاضعة للنفوذ اللبباردى ، فقد تركت دون مساس . وكانت معفاة من الضرائب المباشرة ، ولو أن الألقاب البيزنطية وجدت طريقها إليها (١) .

وأما عن المناطق الواقعة وسط ايطاليا ، فقد كانت البابوية هى وريثة الإدارة البيزنطية فيها . ويتضح هذا فى نوع الادارة البابوية واختصاصاتها ، وفى المحكمة البابوية ، وفى انزلاق البابوية إلى الاقطاعية ، وفى الكفاح فى سبيل السلطة والنفوذ بين البيروقراطية البابوية وطبقة ملاك الأرض من العلمانيين . والواقع أن البابوات

---

(١) أنظر الفصلين الثانى والثالث من بحث بارا كلاف . راجع أيضا :
Moss, op. cit., 125—131.

قد اهتموا منذ البداية بتكوين ملك دنيوى لهم وسط إيطاليا . ونجحوا فى ذلك نتيجة للظروف التى تتعلق بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، وكذلك الظروف التى أحاطت بظهور المسيحية ونشأة الكنيسة . وكان ملكهم يشمل بصفة عامة المنطقة الواقعة بين البحرين الأبيض والأدرياتيكى، وتدخل فى نطاقه عدة مدن من أهمها روما واربينو وبروجيا واسيسى وانكونا . ويلاحظ أن حضارة تلك المدن كانت حضارة زراعية ، ولم تشارك غيرها فيما بعد فى نشاطها التجارى أو الصناعى . وبقى النظام الإقطاعى قويا فى الدويلات البابوية حتى بعد أن انتهى من معظم أنحاء الغرب . ويرجع ذلك إلى موقف الكنيسة الجامد من التجارة النامية فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى ، فضلا عن عوامل أخرى عديدة ليس هنا مجال الدخول فى دقائقها وتفصيلاتها .(١)

ويعدد هارتمان فى خاتمة بحثه أوجه الخلاف بين هذين النموذجين للدولة فى كل من الغرب والشرق ، مؤكدا أن أوجه الخلاف ترجع فى المكانة الأولى إلى سياسة الاقتصاد « الطبيعى » التى سادت فى الغرب ، فى الوقت الذى أخذت فيه بيزنطة بسياسة الاقتصاد « النقدى » . ثم ينتقل إلى بيان النتائج المترتبة على ذلك فى كافة المجالات الأخرى من سياسية واجتماعية وثقافية وعسكرية وغيرها . وقد ظل الحال فى الغرب بصفة عامة على ماهو عليه . فلم يتغير شكل الدولة إلا فى المناطق الإيطالية التى تطور فيها البنيان الاقتصادى

---

(١) أنظر عن ذلك المراجع التالية : M. W. Baldwin, The Medieval Church (1953), 46 — 58; G. G. Coulton, Medieval Panorama (1955), 25 ff.. 34, 125, 131, 151, 172, 643, 655; idem, Medieval Village, Manor, and Monastery (1960), 494-5; La Monte, op. cit., 392-4. — راجع أيضا كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ص ٤٤ ومابعدها و ٧٥و١١٨ و٢٣٥ و٢٣٦ و٢٧٨ و٢٨٧ ومابعدها .

إلى اقتصاد « نقدى » عن طريق تذويب حكم صاحب الأرض ، مثل البندقية وامالفى وفلورنسا ودولة النورمان بجنوب ايطاليا .

كان ذلك فى أخريات القرون الوسطى فى وقت كانت فيه الأحوال فى أوروبا فى تغير تدريجـــى بطىء . إذ تداعى الإقطاع وحضارته ، وقامت على أنقاضه حضارة جديدة هى حضارة المدينة . كما ظهرت الطبقة المتوسطة من سكان المدن التى تميزت بنشاطها التجارى والصناعى. وبتدهور الإقطاع فقد الفارس الإقطاعى مكانته الاجتماعيـــة وسلطته العسكرية والسياسية التى كان يتمتع بها من قبل . وساعدت على ذلك عوامل عديدة متعددة منها قلة الحروب الاقطاعية ، واستقرار الأحوال فى أوروبا ، والتغييرات الهائلة التى طرأت على أساليب الحرب والقتال فى أواخر العصر الوسيط . وجدير بالذكر أن الحروب الصليبية لعبت هى الأخرى دوراً كبيرا فى القضاء على عصر الإقطاع فى الغرب من ناحية وفى ظهور حضارة المدينة من ناحية أخرى .

والواقع أن هذا التغيير الهائل الذى طرأ على المجتمع الغربى فى أواخر العصر الوسيط ، كان تغييرا جذريا شمل كافة النواحى والأنشطة والمجالات . ففى الوقت الذى انهار فيه الإقطاع باقتصاده «الطبيعى» وقامت المدينة باقتصادها « النقدى» ، ظهرت شخصية الفرد التى كانت الاقطاعيـــة قد طمست معالمها . وقامت الممالك الحديثـة المستقلة ، والتفت الشعوب حول حكامهـا ، ونمت القوميات ، وظهرت اللغات الرومانسية التى انبثقت عن لاتينية العصور الوسطى . كما نشأت الجامعات التى تخرج من بين جدرانهـا الشباب المثقف المستنير . وتم اختراع الطباعـة التى جعلت الكتب فى متناول كل فرد ينهل من فيضها . كما قامت الكشوف الجغرافية التى أحدثت تغييرات ضخمـــة فى الاقتصاد العالمى . ولهذا كله دلالته ومغزاه .

إذ يعنى ، بكلمة مختصرة ، إنتهاء عصر بنظمه وتقاليده وأفكاره ومثله وفلسفته ، وبداية عصر جديد له أوضاع جديدة مغايرة (١).

هذا عن هارتمان وكتيبه ، أما جوفرى باراكلاف فقد تعرض لموضوع يعتبر فى الواقع امتداداً لموضوع زميله وتتمة له ، وهو « الإمبراطورية فى العصور الوسطى : فكرة وحقيقة » . وكان هذا البحث فى الأصل محاضرة ألقيت فى الاجتماع السنوى للجمعية التاريخية بلندن فى ٦ يناير سنة ١٩٥٠ ، وحولت إلى مقالة بعد إدخال تعديلات بسيطة عليها . وباراكلاف مؤرخ له مكانته بين مؤرخى العصور الوسطى . ومن أهم مؤلفاته كتابه المعنون « أصول المانيا الحديثة » « The Origins of Modern Germany » ، ومؤلفه « المانيا فى العصور الوسطى » « Medieval Germany » ، وبحثه عن إمبراطورية العصور الوسطى الذى قمنا بنقله إلى العربية فى هذا الكتاب .

والموضوع الذى تعرض له باراكلاف من الموضوعات الصعبة الشائكة المعقدة ، ويحتل مكانة بارزة فى التاريخ الأوروبى الوسيط . ولم يظهر فيه باللغات الأجنبية سوى عدد قليل من الكتب ، نذكر منها تآليف فيشر Fisher ، وجيركه Gierke ، وميتلاند Maitland ، وجيزيبرشت Giesebrecht ، وهان Hahn ، ورايت Wright ، وتسويمر Zeummer ، وتسيدل Zeydel ، وبرايس Bryce . (٢) فضلا عن بعض المؤرخين الغربيين المعنيين بتاريخ الفكر السياسى مثل كارليل Carlyle ، وايوارت لويس Ewart Lewis . ولمؤلف برايس المعنون «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» أهمية كبيرة

---

(١) Stephenson, Mediaeval Feudalism, 102-7; W. T. Waugh, History of Europe from 1378 to 1494 (1932), 1 ff.

(٢) أنظر قائمة المراجع المذيل بها الفصل الأول من بحث باراكلاف .

فيما نحن بصدده . ذلك أن ما كتبه ، وما توصل إليه من نتائج واستنتاجات ، يتفق إلى حد بعيد مع ما توصلت إليه أحدث البحوث التاريخية فى هذا الشأن .

يتناول باراكلاف فى الفصل الأول من بحثه كتاب جيمس برايس بالدراسة والنقد والتحليل . وهو يثنى على برايس ومهناجه ومؤلفه ، وذلك على الرغم من اختلافه معه فى كثير من الآراء والنظريات المتعلقة بالفكرة الإمبراطورية فى القرون الوسطى . فهو يرى أن فكرة برايس عن الامبراطورية فكرة غامضة غير واضحة قد تبعث فى ذهن القارىء إنطباعات غير دقيقة . فالإمبراطورية فى نظر برايس عبارة عن « مملكة عالمية » ، وأنها هى والبابوية تكونان « رأس العالم المسيحى والمركز المعترف به فى هذا العالم » . ويستطرد برايس قائلا بأنه يتعين اعتبار عام ٨٠٠ بداية « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » فى الغرب . ويختلف معـــه باراكلاف فى الرأى . ويقـول إن أول مرة ظهر فيها اسم « الامبراطورية الرومانية المقدسة » لم يكن عام ٨٠٠ وإنما عام ١٢٥٤ . وكانت الإمبراطورية قبل ذلك التاريخ تعرف فى الغرب بأسماء أخرى . ففى سنة ١٠٣٤ كانت تعرف باسم « الإمبراطورية الرومانية » ، وفى سنة ١١٥٧ كان يطلق عليها إسم « الإمبراطورية المقدسة » . ويحاول المؤلف بعد ذلك تعريف الإمبراطورية الغربية فى القرون الوسطى وبيان طابعها وماهيتها ، ويجد نفسه وجها لوجه أمام السؤال التقليدى التالى : ماذا كانت تلك الإمبراطورية إن لم تكن « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » ؟ وهل يجوز تسميتها « الإمبراطورية الغربية » أو « إمبراطورية العصور الوسطى » ؟ ويرى أن هاتين التسميتين مضللتان بعيدتان عن الدقة والصواب . ذلك أن العالم الوسيط قد عرف عددا غير قليل من الإمبراطوريات التى أطلق عليها الاصطلاح المذكور . كما أن اصطلاح « الامبراطورية الغربية » لم يرد ذكره إلا مرة واحدة فقط فى الوثائق الرسمية ، وكان ذلك فى الخطـاب الذى بعث به

شارلمان إلى الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الأول سنة ٨١٣ . ويخلص باراكلاف من تحليله ودراسته بأن إمبراطورية العصور الوسطى لم تكن حدثا واحدا فقط ، وإنما هى سلسلة من الأحداث تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وأن « قصتها قصة متقطعة غير متصلة » ، إذ عنت « أحداثا مختلفة وقعت فى أزمنة مختلفة » . فامبراطورية القرن الرابع عشر مثلا تختلف عن إمبراطورية القرن العاشر ، وامبراطورية القرن العاشر كانت بدورها شيئا مغايرا لإمبراطورية شارلمان ، وهكذا . وذلك بخلاف وجهة نظر برايس الذى كان يرى فى تاريخ الإمبراطورية منذ بداية القرن التاسع حتى أوائل القرن التاسع عشر وحدة متصلة لاتنفصم بصرف النظرعن الزمان أو المكان . ويحاول المؤلف فى الفصول التالية بيان الأدوار الرئيسية التى مرت بها تلك الإمبراطورية منذ عام ٨٠٠ حتى مجىء آل هابسبورج سنة ١٤٣٨ ونهايتهم فى أوائل القرن التاسع عشر . ويطالب بإعادة معالجة الموضوع معالجة واعية شاملة على ضوء ما استجد من أحدث البحوث التاريخية بغية الوصول إلى آراء يقينية ثابتة .

وهذا يقودنا إلى العودة قليلا إلى الوراء ، وبالتحديد إلى ما قبل انهيار الإمبراطورية الرومانية القديمة . لقد تعرضت تلك الإمبراطورية إعتبارا من القرن الثالث لأزمات عنيفة هدت كيانها وقوضت بنيانها . فهدد الفساد شتى النواحى من اجتماعية واقتصادية وعسكرية ودينية وإدارية . وعاث البرابرة على حدود الدانوب والراين ، وكثرت إغاراتهم على تلك الحدود ، وفقدت روما معظم قوادها الأكفاء فى المعارك التى خاضتها . ولم تعد الولايات التابعة لها تعتمد على حماية جيوش الإمبراطورية لها ، بل على أهلها ، وانتخبت قوادا وحكاما من بين رجالها دفاعا عن نفسها . وهكذا بات المجتمع الرومانى مهددا بالتفكك والانهيار من الداخل والخارج ، مما كان له أكبر الأثر فى التفكير فى نقل

العاصمة من روما القـــديمة التى لم يعد بوسعها الوفاء بمطالب العصر ، وإنشاء عاصمة جديدة تـكون بمثابة « روما » ثانيـــة أو « روما » جديدة . وهذا ما حدث بالفعل عنـدما أسس قسطنطين الـكبير عاصمته القسطنطينيـة فى أوائل القرن الرابع عند التقاء البسفور ببحر مرمرة ، وانتقـل الأباطرة الرومان إلى عاصمتهم الجـديدة تاركين روما لمصيرها المرتقب . (١) .

أخذت روما تسير بخطى سريعة نحو الانهيار ، حتى إذا كانت سنة ٤٧٦ أعلن جندى من المتبربرين يسمى ادوا كر القضاء على ظل الإمبراطورية فى الغرب فى شخص آخر أباطرتها الضعاف وهو روميلوس اوجستولوس ، وأرسل شارات تلك الإمبراطورية من روما إلى الجالس على عرش بيزنطـــة وقتذاك وهـو الإمبراطور زينـو (٤٧٤ - ٤٩١) . وإن دل ذلك على شىء ، فهو يدل على انتهاء الإمبراطورية الرومانية القديمة من ناحية ، وعلى أن شخصا مثل ادواكر من أصـل جرمانى لم يستبح لنفسه اغتصاب لقب الإمبراطورية الذى كان فوق طاقة الجرمان وعقليتهم . كما أنه يدل على أن النفوذ الأدبى للإمبراطورية الرومانية فى الشرق قد امتد إلى الغرب (٢) .

وقد راودت فـكرة إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمـــة عددا من الأباطرة البيزنطيين . فنجد الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) يحاول إحياء

---

(١) C. Diehl, Histoire de l' Empire Byzantin (1920), 1 ff.; idem, Byzance, 4 ff ; Runciman, op. cit., 11 - 29; A. H. M. Jones, Constantine and the Conversion of Europe (1961), ch. I, 1-16.

راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى (١٩٦٧) ص ١١٨ - ١١٩ .

(٢) أنظر LaMonte, op. cit , 38 ff.; Cantor, op. cit., 9 ff.; Katz, op. cit., 92 ff.

تلك الإمبراطورية باستعادة الأراضى التى انتزعها البرابرة منها . وتمكن بفتوحاته الكبيرة فى الغرب من إعادة مجد الإمبراطورية القديمة باسترداد مقاطعاتها الضائعة . فقضى على مملكة الوندال فى افريقية الشمالية ، واستعاد ايطاليا من القوط الشرقيين . كما قضى على ملك القوط الغربيين فى أسبانيا ، واقتطع الجزء الجنوبى الشرقى من مملكتهم وضمه إلى بيزنطة. ولقد اجتذبت هذه الإمبراطورية التى أسسها جستنيان الأنظار إليها ، واعتقد المعاصرون له أن الإمبراطورية الرومانية القديمة تم إحياؤها من جديد. وكيف لا وقد تمكن من غزو افريقية وأجزاء من أسبانيا ، بينما انهارت مقاومة القوط الشرقيين فى ايطاليا ، (١) وأصبح البحر المتوسط مرة ثانية بحيرة رومانية على حد قول المؤرخ ستيفن رنسيمان (٢) .

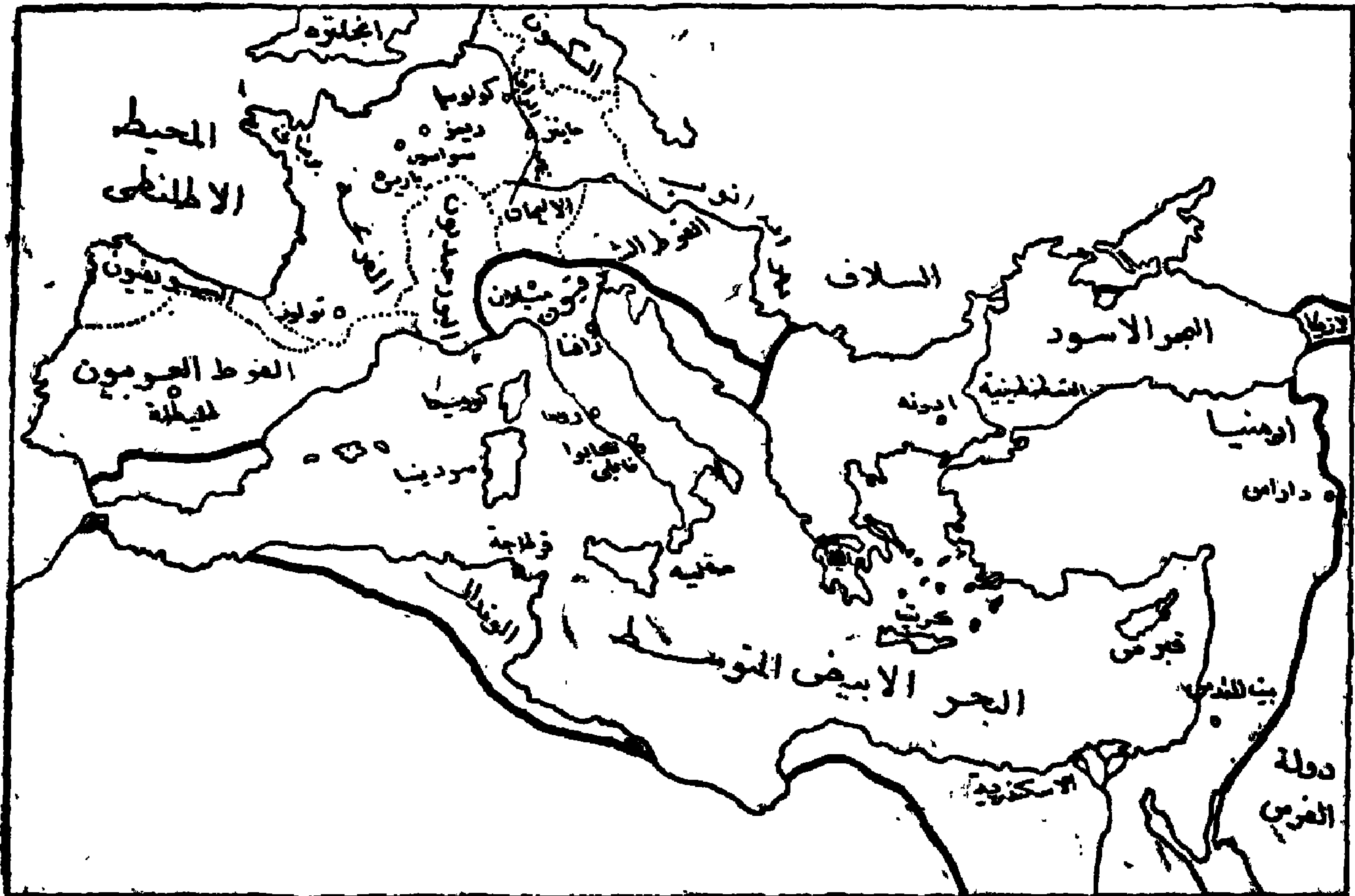
ولكن الباحث المدقق فى مجريات الأمور والأحوال يدرك على الفور أن هذه الإمبراطورية ، مع كل عظمتها ، لم تكن فى واقع الأمر إلا شبحا ضعيفا للإمبراطورية الرومانية القديمة التى كانت قد انتهت فعلا فى أواخر القرن الخامس بنزول البرابرة فى جوفها ، وتأسيس ممالكهم على أنقاضها . فسرعان ما زالت إمبراطورية جستنيان من الوجود بعد موته . إذ انكمشت حدودها الشرقية إلى آسيا الصغرى والبلقان ، واستولى اللمبارديون على ايطاليا سنة ٥٦٨ ، وبات ممثل الإمبراطور البيزنطى فى الغرب مجرد شبح لا حول له ولا طول . هذا ، بينما قامت الدولة العربية الفتية فى أوائل القرن السابع بفتوحاتها الواسعة أيام الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) بهدف تأمين حدودها ونشر رسالتها ،

---

(١) أنظر P. N. Ure, Justinian and his Age (1951), Il ff., 17 ff.; Ostrogorsky, op. cit., 63 ff.; Baynes and Moss, op. cit., 7 ff., Moss, op. cit , 95-107; R. H. C. Davis, A History fo Medieval Europe from Constantine to Saint Louis (1958), 53-67.

(٢) Runciman, *Byzantine Civilisation*, 35.

خريطة رقم (١)



امبراطورية جستنيان

ووضعت يدها على مصر والشام وشمال افريقية فالأندلس كلها . وهذا يعنى أن المحاولات المستميتة اليائسة التى بذلها جستنيان فى سبيل إعادة مجد الامبراطورية الرومانية القديمة لم تؤت ثمارها . فقد انهارت إمبراطوريته بعد موته بفترة وجيزة . وسار كل من الشرق البيزنطى الهللينى والغرب اللاتينى الجرمانى فى طريق مغاير . ولم يكن هناك بد من ذلك (١) .

لقد دل هذا على أنه منذ أواخر حكم جستنيان لم يعد هناك أمل فى إحياء الدولة الرومانية القديمة التى قضى البرابرة عليها وعلى معالمها وحضارتها . ورأت الدولة الرومانية فى الشرق أن تنهج نهجا جديدا يرتبط بالوضع الجغرافى للجزء المتبقى من الإمبراطورية الرومانية ، أى أن تتجه اتجاها شرقيا بيزنطيا هللينيا طبقا لمقتضيات الظروف ، وليس اتجاها غربيا لاتينيا . وفعلا نرى الأباطرة الذين جاءوا بعد جستنيان يتركون الغرب وشأنه ، وينصرفون إلى الاهتمام بدولتهم الجديدة . إذ لم يعد باستطاعتهم الجرى وراء السياسة المتعلقة بإعادة توحيد الدولة الرومانية . هذا ، باستثناء أمثلة فردية قليلة لا يصح اتخاذها كمقياس ثابت لاتجاه معين (٢) .

---

(١) أنظر Hussey, op. cit., 18—27; LaMonte, op. cit., 53 ff., 65 ff.; E. Atiyah, The Arabs (1958), 32 ff., Barker (ed.), Social and Political Thought in Byzantium, 27—8.

وكذلك جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ١٤١ والحاشية .

(٢) لقد أثبتت الظروف والأحداث التى مرت بها الدولة البيزنطية والسياسة التى انتهجتها حتى ذلك التاريخ أنه لايمكن إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء . ومع ذلك يجب أن نعرف أن إمبراطورا مثل جستين الثانى Justin II (٥٦٥ ـ ٥٧٨) الذى خلف جستنيان على الكرسى الإمبراطورى كان لايزال يعتقد أن باستطاعة الدولة الرومانية الشرقية أن تكون رومانية بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معان . وكان يرى أنه من الضرورى مواصلة المشروعات التى بدأها سلفه العظيم ، ولم يدرك أن هذه المشروعات لم تعد ميسورة التحقيق . وكان هذا =

ويستمر الجفاء بين الغرب وبيزنطة ، وهو الذى بذرت بذوره منذ أوائل القرن الرابع الميلادى ، إلى أن يقوم ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١) بحركته المعروفة ضد الأيقونات . وقد ترتبت عليها آثار بالغة الخطورة فى ايطاليا ، إذ ضعفت سلطة الإمبراطورية البيزنطية فيها ، وأصبح ممثل الإمبراطور فى روما مجرد شبح لا يملك نفعا أو ضراً . ولم يتسن تدعيم السلطة الإمبراطورية فيها بعد ذلك . لقد اغتنمت بابوية روما هذه الفرصة لتثبيت نفوذها واستقلالها على حساب القسطنطينية . فقاوم البابوات حركة تحطيم الصور والتماثيل . وبلغ بهم الأمر أن تحالفوا مع اللمبارديين فى سبيل طرد الحاميات البيزنطية من جنوب ايطاليا . وتطور الأمر عندما أصدر البابا جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) قراراً بحرمان الإمبراطور اللا أيقونى . ورد ليو على قرار حرمانه بحرمان بابوية روما من حقوقها وأملاكها فى صقلية وجنوب ايطاليا . كما فصل عنها جميع الكراسى الأسقفية ، وحولها إلى بطريق القسطنطينية . وكانت هذه الخطوة من جانبه عاملا يضاف إلى العوامل السابقة (١) .

أخذت الإمبراطورية البيزنطية تتباعد تدريجيا عن الغرب الجرمانى ، فى الوقت الذى أخذت فيه الحواجز الحضارية واللغوية والمادية والمذهبية ، فضلا عن التباين الاقتصادى والاجتماعى ، تتعدد بين الجانبين ، حتى بات كل قسم ينظر

= من بين مواقفه التى يبدو فيها المغالاة ، والتى كان من نتيجتها أن أصيب بخبل فى عقله وأبعد عن العرش وأقيم وصى عليه يشاركه فى أعباء الحكم . أنظر عن ذلك :

Ostrogorsky, The Byzantine State, 68,73; Baynes & Moss, Byzantium, 9; La Monte, The World of the Middle Ages, 67-8.

(١) أنظر Ostrogorsky, op. cit., 142, 146-7; Hussey, op. cit., 28 ff.

إلى الآخر على أنه عدوه اللدود (١) .

وتزداد هوة الخلاف بين شقى العالم المسيحي اتساعا . وفى أواخر القرن الثامن يحدث تطور جديد فى الغرب له مغزاه وخطورته . إذ آلت مملكة الفرنجة فى ذلك الحين إلى الكارولنجيين وعلى رأسهم شارلمان . ويعتبر حكمه الذى امتد من سنة ٧٦٨ إلى سنة ٨١٤ من الفترات الهامة الحاسمة فى التاريخ الغربى الوسيط . فمن أهم ميزاته المزج التدريجى البطىء الذى تم بين التراث الرومانى القديم وبين حضارة الجرمان المتبربرين ، لانتاج مدنيـــة جديدة لها طابعها الخاص لا هى رومانية خالصة ولا هى جرمانية خالصة ، ولكنها رومانية جرمانية فى ذات الوقت ، تحقيقا لأهداف بعيدة كان يرنو ببصره إليها . فضلا عما يرتبط بحكمه من إحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة . وكان لشخصيته أثرها فيما حققه من نجاح يتضح فى اتساع رقعةدولته من ناحية ، وفى القضاءعلىالبقيةالباقية من نفوذ بيزنطة وممثلها فى الغرب من ناحية أخرى .

كانهدفشارلمان أنيبسط سلطانه علىالغرب الأوروبى كله . وأحرز فى ذلك نجاحا كبيرا يتمثل فى مـد نفوذه غربا على فرنسا وشرقا على أواسط أوروبا . كما وصل نفوذه الأدبى إلى جنوب إيطاليا . فضلا عن حروبه المعروفة ضد العرب فى أسبانيا . وليس من السهل تتبع تاريخ حروب شارلمان بالتفصيل، لأنه أمر يطول شرحه . ولكن إذا استعرضنا جانبا منها بايجاز ، نجـد أن من أهمها الحلة التى قام بها سنة ٧٧٣ تلبية لاستغاثة البابا أدريان الأول (٧٧٢ - ٧٩٥) ضد ملك اللمبارديين الذى كان قـد استولى على بعض المدن الواقعة فى وسط ايطاليا ، والتى كانت تخضع للبابوية منذ أيام بين القصير . وقد سارع شارلمان

---

(١) Barker, op. cit., 27-8. ـ راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ١١١ ـ ١٢١ .

لإغاثة البابا أدريان . فاجتاز جبال الألب ، ونزل بسهول لمبارديا وشتت شمل القوات اللمباردية . وانتهى الأمر بعزل ملك اللمبارديين نفسه ، ونقل ملكية أجزاء واسعة من سهول لمبارديا التي كانت تخضع للملك المعزول إلى حكمه . كما أعطى البابا جزءا من تلك البلاد عندما قام بزيارته فى روما . وحدث فى تلك الأثناء أن تخلص البابا أدريان من التدخل الواهن لبيزنطة فى إيطاليا عندما أعلن طاعة روما، ولو من الناحية الشكلية النظرية ، لشارلمان بدلا من ممثل الإمبراطور البيزنطى . واقتصر حكم بيزنطة فى الغرب على الطرفين الجنوبيين من إيطاليا ، وهما أبوليا وكالابريا ، بالإضافة إلى صقلية .

وعلى أية حال ، فقد كان لنجاح شارلمان فى حروبه واتساع رقعة أملاكه أثره فى التفكير فى إنشاء الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى غرب أوروبا . وسنحت له الفرصة عندما دعاه البابا الرومانى ليو الثالث (٧٩٥ - ٨١٦) إلى روما فى أواخر سنه ٨٠٠ ليفصل بينه وبين منافسيه حول المساحات التى كانت تخضع للبابوية ديفيا ودنيويا . وسارع شارل بإجابة البابا إلى طلبه والحكم فى صالحه ضد جميع خصومه مثلما بادر من قبل بإغاثة البابا أدريان الأول ضد ملك اللبارديين . واعترافا من البابا بجميل شارلمان عليه ، فقد ألبسه التاج فى ليلة عيد الميلاد من السنة المذكورة . وهكذا تم إحياء الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة، وأصبح شارلمان بموافقة البابا ومباركته خليفة القياصرة الأقدمين (١) . وتم ذلك فى فترة حكم الإمبراطورة البيزنطية إيرين (٧٩٧ - ٨٠٢) ، فكان إيذانا بفصم الارتباط الواهن الذى ظل قائما بين روما والقسطنطينية منذ أيام

---

(١) أنظر هـ. و. ك. ديفز : شارلمان (١٩٥٩) ، ص ١٦٨ — ١٨١، وكذلك : LaMonte, op. cit., 155—8; N. Downs (ed.), Basic Documents in Medieval History (1959), 26—27; Davis, Hist. of Medieval Europe, 136—53.

الإمبراطورية القديمة . ومنذ ذلك الحين أصبحت توجد إمبراطورية غربية بجانب الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، أو الإمبراطورية البيزنطية بمعنى أدق وأوضح فى التعبير (١) .

وإذا تعمقنا فى الأمور سوف ندرك أن تتويج شارلمان إنما يرجع إلى ظروف عديدة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر . فمن الأسباب المباشرة حروبه الناجحة ، وتوسعه الكبير فى أوروبا ، وتأسيسه إمبراطورية عظيمة لم يكن يحمل حاكمها لقب الإمبراطور فيها . وكذلك تدخله فى شئون إيطاليا ، ومساندته البابا ضد منافسيه . أما عن الأسباب غير المباشرة فمردها الامتزاج التدريجى المستمر بين العنصر الرومانى القديم والعنصر التيوتونى الجديد ، ذلك الامتزاج الذى نتج عنه تلك الإمبراطورية التى كانت رومانية وجرمانية فى نفس الوقت .

وجدير بالذكر أنه نشأت حول تأسيس إمبراطورية شارلمان نظريات عديدة معقدة . منها تلك التى تقول بأن شارلمان كسب تاجه بالانتصارات الحربية التى أحرزها فى الغرب ، ومصدر هذه النظرية هو الحزب الإمبراطورى . وهناك نظرية أخرى تقول بأن البابا بوصفه خليفة القديس بطرس فى شئون الدين والدنيا ، قد مارس حقه فى عزل ممثل الإمبراطور البيزنطى فى الغرب ، وفى منح تاج الإمبراطورية الغربية إلى شارلمان . ومصدر هذه النظرية بطبيعة الحال هو الحزب البابوى . بينما يقول فريق ثالث بأن شعب روما هو الذى استعمل حقه القديم فى انتخاب شارلمان امبراطورا . ولعل أقرب هذه النظريات إلى الصحة والواقع هى النظرية الأولى القائلة بأن شارل العظيم كسب تاجه بسيفه . وهذا صحيح ، إذ تمكن بالسيف من نشر نفوذه على المقاطعات الرومانية القديمة من

---

(١) أنظر رنسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ٤٤ ؛ جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ١١٦ .

بحر الشمال إلى البحر المتوسط ، ومن حدود البرابرة فى شرق أوروبا إلى المحيط الأطلسى فى الغرب (١) . والخلاصة أن اعتلاء شارلمان عرش الإمبراطورية ، وتتويجه ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ ، هو خاتمة طبيعية لنشاطه الفائق وفتوحاته الواسعة . وكان تدخل البابا وقتذاك تدخلا روحيا فحسب ، وذلك حتى يضفى على حكم شارلمان الدنيوى صبغة شرعية دينية .

لم يتعرض باراكلاف لهذه التفاصيل التى لا يتسع لها حيز المقال ، مكتفيا بإبراز النتائج المترتبة على تتويج شارلمان . لقد أثار هذا الحدث الكثير من الجدل والخلاف بين المؤرخين والمعنيين بالفكر السياسى وفلسفته فى العصور الوسطى . فاعتبره برايس بداية الإمبراطورية الرومانية المقدسة . واختلف باراكلاف معه فى الرأى ، قائلا بأنه لم تكن هناك آنذاك سوى إمبراطورية واحدة فقط هى الإمبراطورية الرومانية التى كانت قائمة فعلا ، والمقصود بها الدولة البيزنطية . ولم تكن هناك أى فكرة تتعلق بتأسيس إمبراطورية جديدة فى الغرب ، منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة وقيام ممالك الجرمان على أنقاضها . وكان كل الذى حدث هو انتخاب إمبراطور آخر فى ذات الإمبراطورية القائمة .

وكيفما كان الأمر ، فقد ترتب على إحياء الامبراطورية فى الغرب قيام المنافسة والعداء بينها وبين الإمبراطورية الرومانية فى الشرق . ذلك أن الفكرة الإمبراطورية كانت تقوم من الناحية النظرية على وحدة الإمبراطورية ، أى على وجود إمبراطورية واحدة ـ تلك هى الإمبراطورية الرومانية فى الشرق وريثة روما القديمة . ولكن الذى جرى هو أن تأسست إمبراطورية أخرى فى الغرب،

---

(١) E. Lewis, Medieval Political Ideas (1954) II 432,435, 438, 440, 453, 460- 2, 467—8, 500 — 2, 509; LaMonte, op. cit., 155 ff.; Cantor, op. cit , 133 ff.

مما أدى إلى إثارة عوامل الحقد والبغضاء بين الامبراطوريتين بسبب تشابك مصالحهما، وبخاصة فى الجنوب الإيطالى . ويتضح هذا بجلاء فى المفاوضات التى دارت بين الطرفين أيام شارلمان وخلفائه من أجل إيجاد تسوية سلمية للمشكلة، وفى تردد الرسل والمبعوثين بين القسطنطينية وآخن . لقد كانت بيزنطة تنظر إلى المنافس الغربى فى أنفة وازدراء وكبرياء . فهو، فى نظرها، دون الإمبراطور البيزنطى مكانة . بل هو ليس إمبراطورا، ولا هو رومانيا، وإنما مجرد ملك جرمانى (١) .

ولعله من المفيد إلقاء نظرة سريعة على موقف الحكومة البيزنطية من الإمبراطورية الغربية وقتذاك . لقد تجاهل نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١) تماما ادعاء شارل العظيم فى اللقب الإمبراطورى، ولم يعترف به وأبدى عداء صريحا حيال منافسه الحاكم الكارولنجى والبابوية التى ساندته وأيدته . هذا، بينما كانت قوة شارلمان آخذة فى الازدياد والنمو حتى امتدت إلى عدد من المقاطعات البيزنطية . فأخضع استريا وبعض مدائن دلماشيا . وطرأ على سياسة بيزنطة فى عهد ميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣) كثير من التغيير . لقد كانت حكومة ميخائيل على استعداد للاعتراف بسلطة شارلمان الإمبراطورية مقابل استعادة

(١) لم تكن العلاقات بين اللاتين الغربيين والبيزنطيين الشرقيين، فى واقع الأمر، طيبة أو مرضية . وكان الشك وعدم الثقة متوفرين فى كل منهما . وتكشف عن ذلك أوجه الخلاف العديدة بينهما فى النواحى المذهبية والدينية واللغوية والحضارية والجنسية والبيئية والجغرافية . وكانت كل هذه الاختلافات التى ترجع إلى فجر المسيحية والقرون الأولى من العصور الوسطى، سببا لإثارة التخاصم الدائم بين شقى العالم المسيحى، وجعلت الغرب ينظر إلى بيزنطه بعين الحسد والغيرة والحقد . وأصبح كل فريق منهما ينظر إلى الآخر باعتباره عدوه اللدود . وقد تركت هذه المفارقات بين الفريقين آثارها، بطبيعة الحال، فى العلاقات بينهما عندما تم إحياء الامبراطورية فى الغرب فى عهد شارلمان . أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين — ص ١١٢ — ١٢١ والحواشى .

جانب من الأراضى التى استولى عليها. والواقع أنه وجدت اعتبارا من عام ٨١٢ إمبراطوريتان مستقلتان عن بعضهما تماما ، إحداهما شرقية والأخرى غربية . مع ملاحظة أن الإمبراطور الغربى كان يعرف حتى ذلك الحين باسم « إمبراطور » فحسب ، وليس « الإمبراطور الرومانى » . وقد تحاشى شارلمان نفسه بأن يلقب بـ « إمبراطور الرومان » . بينما أصر البيزنطيون على أنهم هم فقط أصحاب الحق الشرعى والقانونى فى هذا اللقب . كما أصروا على وجود فارق بين الإمبراطور الغربى وبين الإمبراطور الأوحد للرومانيين المقيم فى القسطنطينية . إذ كان الارتباط بروما شرطا أساسيا وجوهريا فيما يتعلق بفكرة العصور الوسطى عن الامبراطورية . لقد اعتبرت بيزنطة نفسها إمبراطورية رومانية. وبالمثل كانت الإمبراطورية الغربية مرتبطة بروما عن طريق البابوية ، ولو أن هذا الارتباط لم يتأكد بصفة نهائية إلا أيام أوتو الكبير وخلفائه . لكل هذا اعتبر إحياء الإمبراطورية أيام شارلمان بمثابة تحد واضح للحق الذى كانت تتمتع به الإمبراطورية البيزنطية فى الإرث الرومانى . ولكن تفكك إمبراطورية شارلمان بعد موته ، وتجدد أطماع بيزنطة، جعل بوسع حكام القسطنطينية المتأخرين تجاهل الاعتراف البيزنطى بامبراطورية الغرب الذى تم سنة ٨١٢ .

وجدير بالذكر أن رفض نقفور الأول الاعتراف بشارلمان ثم اعتراف ميخائيل الأول به ناقضا بذلك سياسة سلفه ، لا يرجع إلى الاختلاف الواضح بين هاتين الشخصيتين فحسب ، وإنما يعزى إلى الظروف التى استجدت على مسرح الأحداث نتيجة لكارثة سنة ٨١١ . إذ جعلت مشاكل البلقان من الصعب على الدولة البيزنطية مواصلة كفاحها ضد الغرب . فقد نالت الهزائم المتكررة التى حلت ببيزنطة على أيدى البلغار ، من مكانة الإمبراطور ميخائيل وهيبته . فكان على استعداد لتغيير السياسة البيزنطية حيال منافسه الغربى ، وتقديم

بعض التنازلات فى هذا الشأن (١) .

لقد تناول بارا كلاف هذه المشكلة المعقدة بالبحث والتحليل . فيقـول إن أحداث عام ٨٠٠ قد تمت داخل نطاق الإمبراطورية الرومانية القائمة فى الشرق ، وانحصر الخلاف وقتها فى شخص الإمبراطور دون الإمبراطورية . ويحلل تلك الأحداث تحليلا دقيقا ، مبينا الدور الخطير الذى قامت به البابوية، وموقف كل من بيزنطة وشارلمان حيال الآخر خلال السنوات القليلة التى أعقبت حفل التتويج . ويخلص من ذلك أن شارلمان لم يكن إمبراطورا رومانيا ، ولم يكن الإمبراطور الأوحد ، ولم يؤسس الإمبراطورية الغربيـة فى القرون الوسطى ، وأن الدولة التى شيدها قد ذهبت معه إلى القبر ، مستدلا على ذلك بسلسلة الأحداث التى كان الغرب مسرحا لها بعد موته .

لقد أخذت إمبراطورية شارلمـان فى التصدع بعد موته سنة ٨١٤ ، بسبب العودة إلى التقاليد الجرمانية القديمـة الخاصة بتقسيم الملك أنصبة بين أبناء الملك باعتباره إرثا شخصيا له يوزع على ورثته من بعــده . وخلف شارلمان ابنه لويس الصالح (٨١٤ — ٨٤٠) الذى قسم دولته عام ٨١٧ بين أبنـائه الثلاثة . وكثيرا ما كان يحابى ابنه الأصغر على حساب أخويه الكبيرين ، حتى أنه بعد موته نشبت حرب دامية بين الإخوة الثلاثة انتهت بمعاهدة فردان سنة ٨٤٣ التى انقسمت الإمبراطورية بمقتضاها إلى ثلاثة أقسام : القسم الغربى ويشمل فرنسا ، والشرقى ويشمل ألمانيا ، والقسم الثالث عبارة عن ممر طويل بينهما يشمل مقاطعات فريزيا ولوثار نجيا وبرجنديا وبروفانس ولمبارديا وبقية ايطاليا من بحر الشمال إلى البحر المتوسط . ويحمل المتولى على هذا القسم الأخير ، وهو لوثير حفيد

---

(١) Ostrogorsky, op. cit. 175-7. — وفيما يتعلق بالفكرة الإمبراطورية وآثارها ؛ انظر ديفز : شارلمان ، ص ١٨٢ — ١٩٣ ؛ وكذلك Lewis, op. cit., II, ch. VII, 430-505; Moss, op. cit , 222 ff.

شارلمان ، لقب الإمبراطور . وتنقرض مع الزمن أسرة لوثـــير ، وتذهب أملاكها إلى ممثلي الأسرتين الباقيتين . وتظل الأمور غير مستقرة فترة من الوقت إلى أن تقوم أسرة كابيه بفرنسا (٨٨٨ - ١١٣٧) وأسرة السكسون بألمانيا (٩١٩ - ١٠٥٦) . وبقيام الأخيرة تنبعث الفكرة الإمبراطورية من جديد فى وقت اشتد فيه ساعد البابوية . وينتقل ميدان الكفاح مع بيزنطة والبابوية من أبناء شارلمان إلى خلفائه السكسون .

ويتتبع باراكلاف فى بحثه تاريخ اللقب الإمبراطورى منذ وفاة شارلمان حتى تجديد الإمبراطورية أيام أوتو الكبير . فيقول إن اللقب المذكور لم يكن له أى أهمية بالنسبة للفرنج ، وإن المنصب الإمبراطورى كان مجرد منصب شخصى ، وإن فكرة وجود إمبراطورية فرنجية أو كارولنجية إنما هى خرافة نابعة من خيال المؤرخين الحديثين ، ولا مكان لها فى الحقائق التاريخية . ويرى أن الحروب المتوالية والمنازعات والمنافسات بين أعضاء البيت الكارولنجى ، والتقسيمات العديدة فى إمبراطورية شارلمان ، كان لها أثرها الواضح فى انكماش رقعـــة الأرض التى يحكمها الإمبراطور الألمانى ، وبالتالى فى تضاؤل اللقب الإمبراطورى نفسه ، حتى انتهى الأمر باندثاره سنة ٩٢٤ «لخلوه من القوة الدافعة ومن التعبير عن أى مبدأ فعال» . وأخيرا فى سيطرة البابوية على هذا اللقب ، وما ترتب على ذلك من إعادة تجديد الصلة بين الإمبراطورية وروما .

وكيفما كان الأمر ، فقد كان أول ملوك الأسرة السكسونية هو هنرى الأول الصياد (٩١٩ - ٩٣٦) . ولتاريخه أهمية خاصة ، لأنه واضع أسس السياسة الألمانية فى الميدانين الداخلى والخارجى ، التى سار عليها أبناؤه من بعده ، وأهم هؤلاء الأبناء هو أوتو الأول .

ولقد ظل هنرى طيلة حكمه ملكا وليس امبراطورا وكانت سياسته فى الميدان

الداخلى تهدف إلى تعزيز حكم أسرته والحد من استقلال أمراء الدوقيات على حساب السلطة المركزية باللين تارة وبالقوة تارة أخرى . وفى الخارج عمل هنرى على تقوية جيشه لصد هجمات المغيرين من البرابرة وغيرهم . وأما عن سياسته الحربية التى ارتبطت بسياسته فى الميدان الخارجى ، فنجد أنه أدخل على الجيش الكثير من الاصلاح والتجديد ، وأنشأ سلسلة من الحصون عرفت باسم قلاع الحدود وكان من نتيجة السياسة التى اتبعها استتباب الأمن والسلم بألمانيا ، مما هيأ الظروف لابنه أوتو الكبير للعمل على تجديد إمبراطورية شارلمان .

لقد جنى أوتو الأول (٩٣٦ - ٩٧٣) ثمار جهود أبيـــه ، وتابع سياسته بنجاح . وكان أهم حدث فى تاريخه هو تجديده للامبراطورية الرومانية المقدسة التى أسسها شارلمان . وتم ذلك ، كما تم فى عهد شارلمان ، عن طريق التدخل فى الشئون الايطالية .ذلك أن أدليد Adelaide وارثة عرش برجنديا ولمبارديا بايطاليا طلبت من أوتو مساعدتها ضد عدوها برنجار مركيز فريولى . وكانت هذه فرصة طيبة أتيحت له ، إذ نزل فيما وراء جبال الألب جنوبا ، وقضى على سلطان برنجار . ثم تزوج من أدليد ، وبذلك ضم أملاكها فى إيطاليا إلى أملاكه الألمانية ، وأصبحت له قدم فى إيطاليا الشمالية ؛ وهو أمر كان يسعى حثيثا إلى تحقيقه .

أما المناسبة الثانية فكانت عندما طلب البابا يوحنا الثانى عشر (٩٥٥ -٩٦٤) ورجال الدين من الإمبراطور الألمانى التدخل بينهم وبين برنجار الذى أخذ فى مضايقتهم . ولبى أوتو الدعوة ، كما لبى شارلمان دعوة البابوية من قبل . وتوجه مسرعا إلى روما التى دخلها ظافرا سنة ٩٦٢ . وكانت مكافأته أن توجه إليه البابا يوحنا شاكرا مهنئا عارضا عليه تاج « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » التى أسسها شارلمان . وقبل أوتو التاج شاكرا . وهكذا تجددت الامبراطورية تحت إسم « الامبراطورية الرومانية المقدسة الغربية المجددة » .

وكما ثارت النظريات حول إمبراطورية شارلمان ، كذلك قامت نظريات عديدة مماثلة حول إمبراطورية أوتو المجددة . وغير خاف أن تجديد الإمبراطورية كان نتيجة لنشاط أوتو الكبير ، وتدخله في إيطاليا لصالح البابوية . وكان منح البابا التاج له مجرد إجراء شكلي قصد به إضفاء صبغة دينية على حكمه العلماني(١) .

وكما مر باراكلاف سريعا على الأحداث التاريخية والسياسية التي أدت إلى إحياء الإمبراطورية أيام شارلمان ، كذلك فعل بالنسبة لإمبراطورية أوتو المجددة . فهو يترك كل هذا ليدلي بدلوه مرة أخـــرى في مشكلة الفكرة الإمبراطورية وآثارها . يقول إن الإمبراطورية عاشت بعد موت شارلمان وانهيار دولته كفكرة في أذهان الناس، وإن هذه الفكرة هي في الحقيقة ،الحلقة التي ربطت بين إمبراطورية شارلمان في القرن التاسع وإمبراطورية أوتو المجددة في القرن العاشر . ولقـــد عمل أوتو منذ البداية على إضفاء معنى وغاية على الإمبراطورية واللقب الامبراطوري . ولهذا قامت سياسته على أن يضمن لنفسه ولأسرته من بعده نصيب الأسد في المملكة الكارولنجية المشتتة . ومع ذلك لم تكن إمبراطورية أوتو رومانية . وكان لقبه التقليدي هو « الامبراطور العظيم » ، دون أن يرد في ألقابه ذكر لروما . كما لم تود جهوده الى توحيد أراضيه في وحدة اقليمية واحدة . إذ ظل أوتو بعد تتويجه عام ٩٦٢ ملكا على ألمانيا ولمبارديا فحسب . ولكن كان من أهم النتائج التي ترتبت على تدخله في الشئون الإيطالية ، هو أن أصبح وجها لوجه أمام كل من البابوية في روما والإمبراطورية الرومانية في الشرق .

لقد ظل اوتو الأول « الإمبراطور العظيم » . ولـكن خليفته اوتو الثاني

---

(١) أنظر LaMonte, op. cit., 161—6, 170—5.

سعى سعيا حثيثا إلى « أرومة » الإمبراطورية الغربيـــة ، وأضبح لقبــه « الإمبراطور الرومانى » . أما اوتو الثالث فقد تميزت سياسته الرومانية بحمقها . ومع كل ذلك لم تكن الإمبراطورية « رومانية » بالمعنى الضيق المفهوم من هذا الاصطلاح . وكان ذكر إسم « الإمبراطورية الرومانية » فى أى استخدام رسمى فى عهد خلفه هنرى الثانى يعنى المنصب الإمبراطورى فحسب . وفى عهد كونراد الثانى ظهر اسم « الإمبراطورية الرومانية » فى المراسيم باعتباره اصطلاحا يتعلق بالأراضى الواقعة تحت حكمه . وهو يدل على رسوخ الإمبراطورية فى شكل كتلة إقليمية ، وعلى ارتباط اللقب الإمبراطورى بالأرض نفسها . وفعلا نجد أنه منذ عام ١٠٣٤ يصبح اسم « الامبراطورية الرومانية » هو الإسم الرسمى الذى يطلق على الأراضى الخاضعة لحكم الإمبراطور ، وهى المانيا وبرجنديا وايطاليا . وفى عام ١٠٤٠ يظهر اللقب الجديد « ملك الرومان » مرتبطا بالأرض نفسها . ويمثل حكم هنرى الثالث ، بصفة خاصة ، مرحلة حاسمـــة فى هذا الشأن . لقد أصبحت الإمبراطورية تعبر عن وحدة إقليمية محددة واضحة المعالم . واستمرت هكذا حتى نهاية حكم أسرة هوهنشتاوفن سنة ١٢٦٨ . وجدير بالذكر أن الإمبراطورية أصبحت منذ عهد فردريك الأول تعرف باسم « الإمبراطوريـة المقدسة » . ولكن ذلك يرجع فى الواقع لأسباب دبلوماسية تتعلق بتعزيز موقف الإمبراطورية فى نزاعها المعروف ضد الكنيسة والبابوية . ولقد صدق باراكلاف عندما وصف الإمبراطورية بأنها كانت « رومانية » فى معناها الضيق ، و « المانية » فى حقيقتها وجوهرها .

سبق أن ذكرنا أن من أهم آثار تجديد الإمبراطورية فى عهد اوتو الكبير ، هو اهتمام السياسة الألمانية بالشئون الإيطالية ، ومحاولة الأباطرة الألمان تدعيم سلطانهم على إيطاليا مما أدى إلى اصطدام المـانيا بالدولة البيزنطية . كذلك ترتب

على تجديد الإمبراطورية اصطدام مصالح ألمانيا بمصالح الكنيسة والبابوية فى ايطاليا ، ذلك الصدام الذى يميز بداية الكفاح المرير بين البابوية والإمبراطورية فى سبيل السيادة العلمانية .

وليس هنا مجال الدخول فى دقائق وتفصيلات هذا الكفاح الذى شغل ثلاثة قرون من الزمان هى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . ويكفى أن نعرض له هنا عرضا سريعا مركزا . المعروف أنه بإحياء الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة فى مستهل القرن التاسع وتتويج شارلمان امبراطورا لها ، كانت البابوية فى روما قد ثبتت دعائمها ، ولم يبق أمام البابوات إلا مواصلة الجهود الجبارة التى كان قد بدأها مؤسسها جريجورى العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) .

كان هذا الرجل قد وضع الأساس المتين الذى بنى عليه نفوذ بابوية روما فى الأمور الدينية والعلمانية على السواء . فكان يسعى إلى استقلال الكنيسة الغربية عن زميلتها الشرقية فى بيزنطة فى الناحية الدينية . كما وضع اللبنات الأولى لاستقلال البابوية من الناحية السياسية . وقد هيأت الظروف التى أحاطت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، فرصة طيبة لتحقيق أهداف البابوية فى الناحيتين الدينية والدنيوية . وبموت جريجورى سنة ٦٠٤ كانت معالم الطريق واضحة تماما أمام خلفائه من البابوات الذين نهجوا نهجه ، أمثال البابا مارتين الأول (٦٤٩ - ٦٥٥) الذى وقف موقفا صلبا تجاه الكنيسة الشرقية واتجاهاتها السياسية والمذهبية . كما واجه البابا جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) مشكلة الحركة اللاأيقونية التى قام بها الإمبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤٠) ، وأخذ يتحداه تحديا صريحا ويشجع الرومانيين على إهمال قراراته . وكانت بين الاثنين صدامات يطول شرحها ، وقد تركت آثارها فى العلاقات بين شقى العالم المسيحى لقرون عديدة لاحقة .

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه البابوية تنفذ سياستها الاستقلالية عن كنيسة بيزنطة الارثوذكسية ، كانت تواصل الشق الثانى من سياستها وهو العمل على فرض نفوذها الدينى والدنيوى على الغرب المسيحى بأكله . وقد أتاحت لها الظروف فرصة ذهبيـــة لتحقيق ماتصبو إليه . فأصبحت مع الزمن قوة دينية ودنيوية هائلة بحيث أمكنها أن تسيطر على مقدرات الأفراد فى الغرب من أقصاه إلى أقصاه ، وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الأمر والنهى وعلى الجميـــع السمع والطاعة ، والويل كل الويل لمن يخالف أوامرها وتعاليمها أو يحاول الخروج عليها . حينئذ يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب ، وما أكثر أسلحتها التى كانت تستخدمها ضد معارضيها من حرمان ونقمة ولعنة وقطع .

هكذا وقفت البابوية على قدميها ، وأخذت تستعد لفرض سيطرتها الدينيـة والدنيوية على العالم المسيحى الغربى بأكله ، فى الوقت الذى تم فيـــه إحياء الإمبراطورية فى الغرب فى عهد شارلمان . فكان هذا إيذانا ببداية الصراع العنيف بينها وبين الإمبراطورية على الأمور العلمانيـة . ولـكن حدث أن إمبراطورية شارلمان التى أسسها بدعوة من البابـا ليو الثالث سرعان ما ضعفت ووهنت بموته سنه ٨١٤ واقتســـام أشلائها بين خلفائه حسبما ذكرنا . ولم تلبث الظروف أن ساعدت الملك اوتو الكبير فى أواسط القرن العاشر عندما طلب منه البابا يوحنا الثانى عشر ورجال الدين الوقوف إلى جانبهم ضد مناوئيهم فى إيطاليا . وتقديرا لجميله عرض البابا التاج على اوتو الذى قبله راضيا . وترتب على ذلك أن تجددت الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة . ولكن تجديدها هذه المرة ، والذى تم بفضل البابوية ، لم يكن بحال فى صـالح البابوية . إذ بدأت مصالح الأباطرة الألمان تصطدم بمصالح الكنيسة اللاتينية والبابوية بسبب اشتباك المصالح الألمانية الإيطالية وتداخلها ، ومحاولات الأباطرة الألمان تثبيت دعائم نفوذهم فى إيطاليا

على حساب البابوات، حتى تكون تلك الإمبراطورية تجديدا حقيقيا لإمبراطورية القياصرة القدماء .

ولكن البابوية التى كانت قد بلغت درجة كبيرة من القوة والنفوذ لم تلبث أن سارت وقتذاك سريعا نحو الضعف والانهيار ، نتيجة العيوب العديدة التى تفشت فيها وفى الجهاز الكنسى بأكمله من أصغر قس حتى البابا نفسه. ولعل من أهم هذه العيوب مسألة انتخاب البابوات ، وبيع الوظائف الكنسية فى سوق البابوية لمن يدفع الثمن الأكبر للمتكالبين والمتذائبين بصرف النظر عن حقيقة من يشغل هذه المناصب . وكذلك انتشار السيمونية أى الرشوة ، وزواج رجال الدين وهو أمر تحرمه الكنيسة الكاثوليكية . كما تدهورت نظم الرهبنة والديرية بسبب الفساد الذى دب فيها ، وأصبحت الدعوة إلى الإصلاح ماسة وعاجلة .

لقد لاقت هذه الحركة تأييدا كبيرا من الإمبراطور هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦) الذى قضى على التلاعب فى مسألة انتخاب البابوات ، وكان له الفضل الأول فى اعتلاء ليو التاسع ، البابا الرحالة ، (١٠٤٩-١٠٥٤) الكرسى البابوى سنة ١٠٤٩ . وكان من ثمار جهود ذلك البابا أن انتعشت البابوية فى عهده ، ورجعت إلى سالف قوتها ومجدها . وخلفه بابا لايقل عنه قوة هو جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) الذى استقلت البابوية فى عهده استقلالا تاما فى الناحيتين الدينية والسياسية . وقد عمل جريجورى السابع على تنقية البابوية من عيوبها ، وتطهير الكنيسة من الشوائب العالقة بها لتسمو على أى نفوذ آخر حتى ولو كان نفوذ الإمبراطورية نفسها .

والواقع أن وجود شخص كبير المطامع والآمال على الكرسى البابوى مثل جريجورى فى الوقت الذى كان يجلس فيه على عرش الإمبراطورية الألمانية طفل صغير هو هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦) ، كان فرصة ذهبية استغلها

جريجورى لفرض نفوذه الدنيوى إلى جانب سلطانه الدينى على ايطاليا كلها ، والعمل على إعلاء كفة البابوية على الإمبراطورية . وكان هذا بالتالى إيذانا ببداية المرحلة الأولى من الصراع المرير بين هاتين القوتين العالميتين فى العالم المسيحى الغربى حول الأمور الدنيوية . ولقد عانت المسيحية الغربية الأمرين من هذا الكفاح الذى كانت له أسوأ العواقب بالنسبة للكنيسة والبابوية ، كما أدى فى أواخر العصر الوسيط إلى انحلال الكنيسة والخروج على سلطانها وتدهور البابوية والقضاء على سلطة البابوات .

على أية حال ، فى عام ١٠٧٥ سرعان ما قام النزاع بين جريجورى وهنرى حول مسألة التقليد العلمانى Lay Investiture ، عندما أصدر البابا مرسوما بعدم تدخل الإمبراطور فى تنصيب رجال الدين فى مناصبهم الدينية وإقطاعاتهم الدنيوية . وكان من نتيجة ذلك أن قام أساقفة هنرى وأتباعه الألمان بخلع جريجورى فى مجمع ورمز Worms عام ١٠٧٦ بإيحاء من الإمبراطور نفسه . بينما رد البابا على ذلك بحرمان هنرى ورجاله الذين اشتركوا فى المجمع المذكور . وكان من أثر ذلك أن قامت الحرب بين الرجلين التى انتهت برضوخ هنرى لمطالب البابا وإذلاله فى حادثة كانوسا Canossa الشهيرة فى تاريخ الكنيسة والبابوية بخاصة وفى تاريخ أوروبا الوسيط بصفة عامة .

ويأتى بعد جريجورى السابع بسنوات معدودات بابا لايقل عنه قوة ومقدرة هو البابا اربان الثانى (١٠٨٨ – ١٠٩٩) الذى افتتح عصر التوسع الصليبى ضد العالم الإسلامى فى مؤتمر كليرمون الكنسى فى أواخر نوفمبر من عام ١٠٩٥ . وكانت الخلافات على أشدها بينه وبين ملوك الغرب . فقد أوقع قرار الحرمان فى المؤتمر المذكور ضد فيليب الأول ملك فرنسا لعلاقتـــه غير المشروعة مع خليلته برتراد دى منتفرت ، وهدد وليم الثـــانى ملك انجلترا النورمانى

بالحرمان لخروجه على تعاليم الكنيسة اللاتينية . كما واصل سياسة سلفه جريجورى فى الافتئات على سلطان الإمبراطورية . ولذلك لم تكن العلاقات طيبة بينه وبين خصمه الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع . وكانت بينهما جولات وصولات انتهت بانتصار اربان الذى أصدر قرار الحرمان الكنسى ضد هنرى . ولعل هذا يفسر لنا سبب عدم اشتراك الامبراطور الألمانى وملوك الغرب فى الحملة الصليبية الأولى التى دعا إليها هذا البابا ، تاركا هذا الدور ليقوم به كبار رجال الإقطاع وقتذاك . ويعد موقف البابا اربان فى الافتئات على حقوق الملوك فى الغرب امتدادا لسياسة سلفه جريجورى السابع، واستمرارا للسياسة التى رسمها جريجورى الكبير لخلفائه .

خرجت البابوية منتصرة من هذا الصراع لتبدأ مرحلة ثانية عندما عملت الملكية الألمانية على محو العار الذى لحقها فى كانوسا ومضاعفاته أيام أربان الثانى. وكان ذلك فى عهد الإمبراطور هنرى الخامس (١١٠٦ - ١١٢٥) الذى سعى للتحرر من ربقة العبودية للبابوية . وانتهى الأمر بعقد اتفاقية ورمز سنة ١١٢٢ بينه وبين البابا كاليكستس الثانى (١١١٩ - ١١٢٤) Calixtus II التى تم بمقتضاها حل مشكلة التقليد العلمانى الذى كان سبب المتاعب المباشرة بين العاهلين . ولكن هذا الحل لم يكن يعنى بأى حال زوال الأسباب الرئيسية الجوهرية للنزاع بينهما .فقد كان كليهما يتنازع السلطان الأعلى على العالم المسيحى . إذ سرعان ما بدأت المرحلة الثالثة من النزاع بين القوتين بتولى فردريك الأول بارباروسا عرش الإمبراطورية فى ١١٥٢ ، وقد امتد حكمه حتى سنة ١١٩٠ . وكان السبب هذه المرة هو التدخل الإمبراطورى الألمانى فى حكم إيطاليا . وكان من نتيجة ذلك أن توالت الحملات الإمبراطورية على إيطاليا ، وقد انتهت بهزيمة فردريك فى الحملة الخامسة والأخيرة (١١٧٤ - ١١٧٦) أمام حلف المدن اللباردية المنحاز إلى صف البابا للحصول على استقلالها .

وكما أذل جريجورى السابع الإمبراطور هنرى الرابع فى كانوسا من قبل ، كذلك أذل البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) الإمبراطور فردريك بارباروسا ، وإن لم يمعن فى ذلك كما فعل سلفه .

ويستمر الحال هكذا إلى أن اعتلى الكرسى البابوى شخص من أقوى شخصيات العصور الوسطى هو البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) الذى كان ينظر إلى البابا باعتباره خليفة الله على الأرض ، وأن الحكام والملوك أتباعه وعماله . وكان من الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن تصطدم القوتين ببعضها مرة أخرى . ويكاد يتفق جميع المؤرخين أن البابوية بلغت أوج عظمتها فى عهد انوسنت بعد أن أصبحت الامبراطورية تحت رحمته ، وبعد أن دانت له كافة دول الغرب بالولاء . ويمتد هذا الصدام خلال القرن الثالث عشر بين الإمبراطور فردريك الثانى (١٢١٢ - ١٢٥٠) وبين البابوية فى عهد كل من جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) وانوسنت الرابع . (١) ولقد صدق أحد المؤرخين الغربيين الحديثين ، وهو هارولد لامب Harold Lamb (٢)، عندما أطلق على هذه الفترة

---

(١) حول الصراع بين البابوية والامبراطورية ، أنظر S. Mathews, Select Mediaeval Documents (1900), 122—9, 132-41; A. E. Mckilliam, A Chronicle of the Popes (1912), 308-9; W. Stubbs, Germany in the Early Middle Ages (1908), 220-1, 223; idem, Germany in the Later Middle Ages (1908), 38—40,44; T. F. Tout, The Empire and the Papacy (1909), 367—9; LaMonte, op. cit., 257—74, 391—4; Cantor, op. cit., 186-98; Baldwin, op. cit., 85-9; Lewis, op. cit., I. 165-8, II. 509-15, 558-66; Downs, op. cit., 57—71. ـ أنظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ـ جـ ١ (١٩٥٨) ص ٣١٨ ـ ٢٧٢ والحواشى ؛ جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ـ ص ١١٥ ـ ١١٧ و١٧٥ـ١٧٦ .

(٢) H. Lamb, The Crusades (1931), 283-4.

المضطربة من تاريخ أوروبا لفظ « السنوات السوداء » لما تخللها من حوادث رهيبة دامية اهتز لها كيان العالم الأوروبي فى ذلك الحين .

لقد انتصرت البابوية فى صراعها العلمانى ضد الإمبراطورية والقوى الزمنية الأخرى فى الغرب . ولكن هذا النصر الكبير كان يحمل بين طياته بذور الضعف والخذلان . ذلك أن الكنيسة اللاتينية كان قد تفشى فيها الفساد . كما خرجت البابوية على رسالتها الروحية التى قامت من أجلها ، مما أثار الشكوك فى أذهان الناس حول الكنيسة وتعاليمها والبابوية وتصرفاتها . ويبدأ نجم البابوية فى الأفول ، وينفض الناس من حولها ويتخلون عنها نتيجة انصرافها عن رسالتها الروحية ، وانشغالها فى العمل على بسط سيادتها الزمنية على حساب الحكام والملوك والأباطرة الذين أذلتهم بأسلحتها بغير حساب .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان هذا الكفاح المرير بين البابوية والإمبراطورية مثارا لكلام المتكلمين وفلسفة المتفلسفين من مفكرى العصور الوسطى . ونشأت حوله نظريات عديدة معقدة روجها أصحاب المصالح من دعاة البابوية لتكون سندا لتدعيم سلطانها فى نظر الناس ليس فقط على أساس دينى ، وإنما على أساس علمى وقانونى كذلك (١) .

---

(١) فيما يتعلق بالمصادر والمراجع التى تبحث فى الفكر السياسى فى العصر الوسيط ، أنظر L. J. Paetow, A Guide to the Study of Medieval History (1931),517—24. ـ هذا ونجد دراسات قيمة عن الفكر الوسيط وفلسفته ، والنظريات التى قامت حول الكفاح بين البابوية والامبراطورية فى المراجع العربية والمعربة التالية : سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ١ (١٩٥٨) ، ص ٢٥٩ وما بعدها وج٢ (١٩٥٩) ص ١٨٤ وما بعدها ؛ سعيد عاشور ومحمد أنيس : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة (١٩٦٠) ، ص ٢٠٠ وما بعدها ؛ ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، =

ومن أهم هذه النظريات « نظرية الوحدة » « Theory of Unity » التى تنص على أن العالم المسيحى عبارة عن وحدة اجتماعية كبرى لها دين واحد هو الدين المسيحى على مذهب روما الكاثوليكى ، ولها لغة رسمية واحدة هى اللغة اللاتينية ، وكنيسة واحدة هى كنيسة روما ، وحكومتها العليا واحدة . ويأخذ بناصية الدين فى هذا المجتمع البابا ، بينما يقوم الإمبراطور بملك الدنيا . وكل من العاهلين يسهر مع الآخر للعمل على مصلحة العالم المسيحى . ولكن لما كان الدين فى هذه الوحدة الكبرى هو الأول والأساس ، لذا يكون الإمبراطور فى مركز يلى البابا من حيث القوة والنفوذ ، وتكون البابوية فى مرتبة أسمى من الإمبراطورية .

وهناك نظرية ثانية تعرف باسم « نظرية السيفين » « Theory of the Two Swords » ، وخلاصتها أن الله سبحانه وتعالى له ملك الدين والدنيا ، وبيده سيفان مسلولان ، أحدهما يمثل سلطانه على الأرواح ، والآخر يمثل سلطانه على الأبدان . أى أن أحد السيفين يقوم على الحكومة الدينية Sacerdotium ، بينما يقوم الآخر على الحكومة العالمية أو الزمنية Regnum . وبعد انتشار المسيحية فى روما على يد القديس بطرس أحد تلامذة المسيح ، سلمه الله كلا هذين السيفين . فأعطى بطرس سيف الأرواح للبابا ، وسيف الأبدان للامبراطور . ولما كانت الروح تفوق الجسد فى تلك الأزمان ، التى هيمنت فيها الكنيسة فى الغرب على مصائر الناس ومقدراتهم فقد ترتب على ذلك تفوق البابوية على الإمبراطورية .

= ص٥٨ وما بعدها ؛ هـ.ا.ل. فشر: أوربا فى العصور الوسطى، ج١ (١٩٥٠)، ص١٣٩ وما بعدها؛ ج. سباين : تطور الفكر السياسى ، ج ٢ (١٩٦٤) ، الفصول من ١٢ إلى ١٦ ، ص ٣٢٠ ـ ٤٥٥ ، والفصول مذيلة بقوائم بالمراجع الهامة فى الموضوع ؛ ابراهيم أحمد العدوى: المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى (١٩٦١) ، ص٩١ وما بعدها ؛ وهيب ابراهيم سمعان: الثقافة والتربية فى العصور الوسطى (١٩٦٢) ، ص ١١ وما بعدها .

ومن ابتداعات ذلك العصر النظرية التى تعرف باسم « هبة قسطنطين » Donation of Constantine . وتتلخص فى أن بعض المتحمسين للبابوية ذكروا أن الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٥ - ٣٣٧) قد ابتلى بمرض الجذام الذى لم يشف منه إلا بصلوات البابا سلفستر الأول (٣١٤ - ٣٣٥) . فكافأه قسطنطين على نعمته بإصدار قانون يبيح للبابا لبس التاج واستعمال الصولجان كالأباطرة تماما . كما منح الأساقفة وكبار رجال الدين فى روما نفس الامتيازات التى كان يتمتع بها شيوخ الإمبراطورية القديمة. وحتى لاتتأثر سلطة البابا بوجود شخص الإمبراطور فى روما ، فقد تركها قسطنطين للبابوات ، وشيد لنفسه عاصمة جديدة فى الشرق عند التقاء البسفور ببحر مرمرة، ألا وهى القسطنطينية. ثم عهد للبابوات بحكم روما وايطاليا كلها .

لقد تعرض لهذه الهبة أحد كتاب القرن الثالث عشر الميلادى وهو الراهب الانجليزى متى البارزى Matthew Paris ،فى كتابه المسمى « تاريخ انجلترا » ، عندما تحدث فى سخرية مريرة وتهكم لاذع عن الجهاز الكنسى فى الغرب وعلى رأسه البابا . إذ يقول : « لقد اقتفى البابا ـ وهو ابونا الروحى ـ خطى الامبراطور قسطنطين ، وكان الأجدر به أن يحذو حذو القديس بطرس ، فسبب الكثير من القلق والاضطرابات فى العالم » . وكان لدى متى من الجرأة والشجاعة ما يكفى لقول الحق فى تلك العصور التى عاش فيها الفرد الوسيط داخل دائرة ضيقة مغلقة لم يكن من السهل الإفلات منها ، وإن كانت تباشير عصر جديد قد بدأت تلوح فى الأفق (١) .

---

(١) M. Paris, English History from the year 1235 to 1273, II (1853), 498.

راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ـ ص ٩٨ .

ويجيء بعد ذلك مفكر آخر مثل الشاعر الفلورنسى دانتى اليجييرى الذى عاش النصف الأخـــير من القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر (١٢٦٥ - ١٣٢١) . هذا الرجل الذى أحس بأن الكنيسة اللاتينية كانت لتقوى أكثر مما كانت عليه لو أن الإمبراطور قسطنطين الكبير قلدها سلطة دنيوية أقل مما تمتعت به ، إشارة غير مباشرة إلى الهبة المذكورة (١) . وهو يلمح من طرف خفى أن البابا لو كان قد قصر رسالته على الشئون الدينيـة فحسب والتى تنحصر فى العمل على رعاية أرواح أتباعه ، وابتعد عن التطلع إلى السيادة العلمانية ـ لما حدث ما حدث من انزلاقه فى صراعات دامية ضد كافة القوى الزمنيـة فى الغرب وعلى رأسها الإمبراطورية ، ولما فقدت البابوية الكثير من هيبتها وقدسيتها ونفوذها .

وجدير بالذكر أن البابوات الأولين أمثال جريجورى الكبير قد تجاهلوا الهبة المذكورة باعتبارها خرافة لاتمت إلى الحقيقـة بصلة . إلا أنها أصبحت بعد ذلك فى مأمن من الطعن فيها حتى أواخر القرون الوسطى حين ثبت زيفها واختلاقها . فقـد قام بتفنيدها تفنيدا علميا دقيقا شخص يدعى لورنسو فالا Lorenzo Valla سنة ١٤٤٠ . وثبت تاريخيـا أن هجر روما وتـأسيس القسطنطينية فى أوائل القرن الرابع لا شأن له إطلاقا بتلك الهبة المزيفة . إنما هو يرتبط ارتباطا وثيقا بعوامل انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، والتى تنحصر فى التفكك الإدارى والفوضى المالية والتدهور الاقتصادى وانغماس الرومان فى حياة الترف والملذات ، مما حدا بالأباطرة إلى التفكير فى نقل العاصمة إلى مكان آخر يكون أكثر أمنا وسلاما ، بل يكون بمثابة روما جديدة تحل محل

---

(١) كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ص ١١٠ وح ١ .

روما القديمة الواقعة فى منتصف البروز الإيطالى ، والتى لم تعد تفى بمقتضيات العصر ومتطلباته (١) .

وثمة نظرية أخرى روج لها دعاة الحزب البابوى ومصدرها كتاب « مدينة الله » « De Civitate Dei » للقديس أوغسطين أوف هيبو ، الذى بدأه سنة ٤١٣ وفرغ منه سنة ٤٢٦ . ويعتبر هذا الكتاب كلاسيكيا بالنسبة للفكر السياسى فى القرون الوسطى . لقد ألفه عقب الكارثة التى حلت بروما على يد الاريك القوطى سنة ٤١٠ . وفيه يقول أوغسطين إنه إذا جاز أن تتحطم مدينة الإنسان المبنية على القوة المادية ، فإن مدينة الله لا تزال بخير . وإذا كان بوسع البشر قتل الجسد ، فإن الروح لا قدرة لهم على المساس بها . وقد خصص المؤلف القسم الأول من الكتاب للرد على الذين قالوا بأن المسيحية هى سبب تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، مبينا أن الوثنية هى سبب الكارثة . ويخلص من ذلك أن المدينة الأرضية تفنى كما يفنى جسم الإنسان ، أما مدينة الله فإنها تدوم مع الروح . ويلاحظ أن القديس أوغسطين قد بالغ فى كتابه فى موضوع عنصر الازدواج فى المسيحية . ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان فى بداية حياته مانويا ، نسبة إلى المذهب المانوى الفارسى القائل بوجود إلهين فى الكون

---

(١) فيما يتعلق بهذه النظريات أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص٢٤٨-٢٤٩؛ W. Ullmann, Priniciples of Government and Politics in the Middle Ages(1961) 111 n. 1, 112 n. 3; LaMonte, op. cit., 177, 254; Lewis, op. cit., I. 262, II. 435, 438, 444, 447, 453, 463, 513, 517, 532, 561, 619 n. 10. — ومن أهم المجموعات التى تضمنت مثل هذه المراسيم البابوية التى ثبت زيفها فيما بعد مجموعة الراهب الرومانى ديونيسيوس اجزيجيوس حوالى سنة ٥٠٠ ، ومجموعة ايزيدور ميركاتور ، ومجموعة جراشيان ، ومجموعة البابا جريجورى التاسع . ومن أشهر من قام بتحليل تلك الوثائق المزيفة وقدها نقدا علميا سليما العالم لورنتيوس فالا المتوفى سنة ١٤٥٧ ، والفيلسوف نيقولا أوف كيوز المتوفى سنة ١٤٦٤ . وللمزيد من المعلومات أنظر كولتون : نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٨ — ٢٥٢ .

أحدهما للخير والآخر للشر . فالحيـاة فى نظره صراع بين الجسد والروح وبين الظلام والنور فى سبيل الخلاص الذى هو الغاية النهائية لكل كائن حى .

تلك هى أهم الآراء التى تضمنها كتاب « مدينـة الله » الذى ظهر فى أوائل القرن الخامس الميلادى. وقد أدى الصراع بين البابوية والإمبراطورية فى الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط ، إلى تحديد معالم الفكر السياسى فى القرون الوسطى بصفة تكاد أن تكون نهائية . وكانت الخطوط الرئيسية لهـذا الفكر وفلسفته قد وضحت فعلا فى كتاب « مدينـة الله » . فاعتمدت عليه البابوية لتأييد مطالبها وادعاءاتها ضد الإمبراطورية . إذ اكتشفت فيـه العديد من الحجج والأسانيد التى ارتكزت عليها لإبراز تفوق مدينـة الله أى الكنيسة وعلى رأسها البابا على مدينة الإنسان أى الدولة وعلى رأسها الإمبراطور .

هكذا وضع أوغسطين أوف هيبو فى مؤلفه فلسفة سياسـية لأوروبا فى القرون الوسطى . وظلت هـذه الفلسفة قائمة حتى القرن الثالث عشر . وكان البابوات يعتمـدون عليها لتبرير تفوق سلطانهم على القوى العلمانية فى الغرب وعلى رأسها الإمبراطورية . وخلاصتها من وجهة نظر البـابوية أن الكنيسة الرومانية من عمل الله فى حين أن الدولة من عمـل الإنسان . وعلى هذا تكون سلطة البابا وهو الحاكم الدينى وممثـل الله على الأرض وخليفة القديس بطرس ورأس الكنيسة المسيحية الكاثوليكية ، فى مرتبة أعلى من تلك التى يتمتع بها منافسه الإمبراطور وهو الحاكم العلمانى ، فى عصر كانت فيه الروح فوق الجسد والإيمان فوق العقل . ويترتب على ذلك خضوع الدولة للكنيسة ، وخضوع الإمبراطور وغيره من الحكام الزمنيين للبابا [١] .

---

(١) أنظر بحث نورمان بينز فى سلسلة مطبوعات الجمعية التاريخية الانجليزية وعنوانه N. H. Baynes, The Political Ideas of St. Augustine's De Civitate Dei (1962), 3—17. — والبحث مذيل بقائمـة بالمصادر والمراجع المتعلقة بالقديس =

وإلى جانب النظريات التى أسلفنا الاشارة إليها ، توجد نظريات أخرى نذكر منها « هبة بين القصير » « Donation of Pepin » ومؤداها أن بين هذا قد وهب البابوية ، بالإضافة إلى كيانها الروحى ، جميع ايطاليا لتكون ملكا لها ـ وذلك اعترافا منه بفضلها عليه فى تأسيس البيت الكارولنجى . وما يقال عن هبة بين ، يقال أيضا عن هبة كل من شارلمان وأوتو الكبير إلى البابوية (١) .

وقد قام عدد من الشراح من أتباع الكنيسة ومريديها بتفسير إحياء الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة زمن شارلمان وتجديدها زمن اوتو تفسيرا يتفق ومصلحة البابوية ، بقولهم إن البابا باعتباره خليفة الله على الأرض وله سلطان الدين والدنيا ، هو الذى استخدم حقه فى طرد ممثل الإمبراطور البيزنطى من ايطاليا ، وهو الذى عهد إلى شارلمان بامبراطوريته ، وهو الذى منح ذلك الامبراطور العظيم فى ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ تاجه من لدنه حتى ينوب عنه فى حكم العالم من الناحية الدنيوية . ونفس هذا القول ينسحب على امبراطورية اوتو المجددة فى أواسط القرن العاشر . ولعلنا نخلص من هذا أن

= أوغسطين وكتاب « مدينة الله » . راجع أيضا يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط (١٩٥٧) ، ص ١٥ ـ ٤٩ ؛ عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى (١٩٦٢) ، ص ١٥ـ٢١و٣٧ ـ ٣٩ ؛ كولتون : عالم العصورالوسطى ، ص٢٦٥ـ٢٧١؛ LaMonte, op. cit., 78; Dill, op. cit., 64—5 ; Laistner, op. cit., 70—3; H. O. Taylor, The Classical Heritage of the Middle Ages (1957) , 217—9 ; idem, The Medieval Mind, I. 64—5, 81—2; T. E. Mommsen, Medieval and Renaissance Studies (1959) , 265 ff.

(١) LaMonte, op. cit., 155, 156. ؛ ديفز : شارلمان ، ص ٧٨ ـ ٨٢ . راجع أيضا ص ٢٨ـ٢٩و٤٤ـ٤٥ من هذا الكتاب .

نظرية الحزب البابوى إنما وضعت لتدعيم مطالب البابوية من أجل السيادة العلمانية وتفوق نفوذها على القوى الزمنية الأخرى .

وقد بلغ هذا النوع من التفكير أقصى مداه فى العبارات الصريحة التى فاه بها بعض البابوات . فنجد بابا مثل نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) يقول إنه إذا عجز الحاكم العلمانى عن المحافظة على السلام ، وجب على الكنيسة أن تتدخل فى الأمر وأن تتولى الحكم . بينما طالب جريجورى السابع بأن تكون الدولة التى أسسها المسيح لها السيطرة على تلك التى أسسها قايين . ويضيف أن من حق البابا تعيين الأمراء فى مناصبهم الدينية والدنيوية على السواء ، ومن حقه أيضا عزلهم منها . وبلغت هذه المبادىء المتطرفة ذروتها فى عهد انوسنت الثالث صاحب النظريات الحاسمة فى هذا الصدد . فالبابا فى نظره خليفة الله والقديس بطرس على الأرض . وهو تلميذ المسيح ، وبيده وحده مفاتيح السماء . وقال ذات مرة بأن البابا أقل من الله وأكبر من الإنسان (١) ؛ وهذا يعنى فى المصطلح السياسى أن انوسنت كان يعتبر نفسه الامبراطور الحقيقى الوحيد . وكان يعتبر مدينة روما التى هى مقر البابوية عاصمة العالم الحقيقية ، وأما الأباطرة والملوك وغيرهم من الحكام العلمانيين فى دولهم وممالكهم ليسوا إلا عمالا للبابوية يدينون لها بالطاعة والولاء . وكتب مرة فى إحدى رسائله بأن الله خلق الشمس والقمر ليستضىء النهار بالشمس ، وليخفف القمر من ظلام الليل ؛ وأنه عز وجل خلق فى الكنيسة العالمية سلطتين أولاهما سلطة البابوية لتشرف على رعاية أرواح أتباعها ، وثانيتهما الملكية لتحكم فى الأجساد . ولكن سلطان الأولى يفوق بكثير سلطان الثانية . فكما يستمد القمر ضوءه من الشمس،

---

(١) «medius constitutus inter Deum et hominem,» cf. Ullmann, op. cit., 51.

كذلك تستمد الملكية قوتها من البابوية . ومن الذى يجرؤ على وضع الجسد فوق الروح فى تلك العصور التى عرفت فى التاريخ باسم عصور الإيمان ، والتى هيمنت فيها الكنيسة الكاثوليكية بيد من حديد على مصائر الناس ، وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، حتى أن كل من كان يخرج على تعاليمها وقيودها كان يعرض نفسه لأشد أنواع العقاب ، وما أكثر أسلحة الكنيسة التى كانت ترهب بها معارضيها، فى ميدان العمل السياسى .

وتسيطر هذه الأفكار على البابوات . فنجد فى القرن الرابع عشر بابا مثل بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣) يقول بأن الخضوع للبابا الرومانى شرط ضرورى لخلاص جميع البشر . وقد ورد هذا الرأى فى المنشور المقدس المعروف باسم « Unam Sanctam » الذى صدر سنة ١٣٠٢ (١) .

وجدير بالذكر أن هذه النظريات التى أسلفنا إليها لم تكن عند البابا انوسنت أو غيره من البابوات والكتاب والفلاسفة والمؤرخين مجرد حديث عادى ذى شجون ، أو مجرد رأى شخصى فحسب ، إنما كانت عقيدة متأصلة فى أعماق أذهانهم وقلوبهم . وقد أصبحت هذه النظريات وغيرها نبراسا للحزب الكنسى

---

(١) حول آراء البابوات فى السيادة العالمية ، وتفوق سلطانهم على القوى الزمنية ، أنظر كولتون : نفس المرجع السابق ، ٢٧٢ - ٢٧٣ ؛ Baldwin, op. cit., 85-9 Lewis, op. cit., 144, 219, II. 359, 380, 399, 439, 450, 510, 523-6, 528, 535, 619 n. 10, 626 n. 51 ; Figgis, op. cit., 25, 206; Downs, op. cit., 163—5; Cantor, op. cit., 261—4 ; F. Heer, The Medieval World : Europe 1100—1350 (1961), 275—7 ; D. Hay, The Italian Renaissance and Its Historical Background (1961),16.

أنظر أيضا آراء البابا انوسنت الثالث فى كتاب : C. R. Cheney and W. H. Semple (eds), Selected Letters of Pope Innocent III Concerning England (1198—1216), London, 1953. هذا ، وقد تعرض والتر أولمان لآراء البابوات فى أكثر من موضع فى كتابه « أسس الحكم والسيادة فى العصور الوسطى » .

يهتدى به فى تحقيق عظمة البابوية ورفع سلطانها على الإمبراطورية وكل القوى الزمنية الأخرى فى العالم المسيحى وقتذاك ، مثلما كانت النظريات التى نادى بها الحزب الامبراطورى تدعيا لسلطان الأباطرة الدنيوى ، فى وقت كانت فيه كل من البابوية والإمبراطورية تسعى لكى تكون لها السيادة العليا على العالم المسيحى الغربى .

تلك هى أهم النظريات السياسية التى قامت حول الكفاح بين البابوية والإمبراطورية ، هذا الكفاح الذى أضر بكليهما فى وقت بدأت فيه العصور الوسطى بمثلها ومبادئها وفلسفتها وتعاليمها وقيودها وتقاليدها تتوارى تدريجيا لتفسح المجال لعصر جديد . إذ بدأت شخصية الفرد فى الظهور ، وقامت المدن والممالك الناشئة التى وقفت فى وجه السيادة الألمانية . ولم تعد الإمبراطورية تعبر عن وحدة إقليمية أو عن الحكم والسلطان ، وإنما أصبحت مجرد لقب شخصى فحسب . وبدأ الناس يتشككون فى الكنيسة وتعاليمها بعد أن دب فيها الفساد . وأخذ نجم البابويه فى الأفول . ويتمثل هذا فى إذلال فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥ — ١٣١٤) للبابا بونيفاس الثامن دون أن يجد هذا الأخير من يقف إلى جانبه أو يدافع عنه . ويجد فيليب الرابع داعية نشطا فى شخص بطرس ديبوا الذى يعتبر من كبار المؤيدين للملكية الفرنسية ،والذى كان يأمل فى أن ينتخب ملك فرنسا امبراطورا ، والذى طالب بإخضاع البابا الرومانى للنفوذ الفرنسى . وحوالى ذلك الوقت هاجم مارسيليوس أوف بادوا (١٢٧٠ — ١٣٣٤) البابوية فى شدة وعنف فى مؤلفه المسمى « المدافع عن السلم » Defensor pacis . فهو يقول إن البابوات أثاروا فى اوروبا الحروب أكثر مما عملوا على منعها . ويذكر أن العهد الجديد لايتضمن أى تأكيد فى صالح السيادة البطرسية فى العصور الوسطى . وتصل نظرياته الثورية

ذروتها فيما نادى به من أنه ليس للبابا أى ضرورة فى المسيحية ، وفى وقوفه الصريح إلى جانب الإمبراطورية (١).وحذا حذو بطرس ديبوا ومارسيليوس أوف بادوا كثير من الكتاب والمفكرين الذين عاصروا فترة الانتقال من العصر الوسيط إلى عصر النهضة .

وأخذت عجلة الأحداث تسير فى طريقها ، بينما كانت البابوية تسير هى الأخرى من سيء إلى أسوأ ، فى وقت كان فيه العالم الغربى فى تغير تدريجى مستمر . ويترك البابوات روما إلى المنفى فى أفنيون لمدة سبعين سنة أو يزيد (١٣٠٥- ١٣٧٨) . وينقسم رجال الكنيسة على أنفسهم فيما يعرف بالقطيعة الدينية الكبرى فى الغرب (١٣٧٨ - ١٤١٨) . وقد أدى هذا إلى ارتفاع الأصوات الحرة الجريئة المنادية بضرورة الإصلاح الشامل فيما يسمى بحركة المجالس الدينية (١٤٠٩ - ١٤٤٩) . ويهمنا منها بصفة خاصة مجلس كونستانس (١٤١٤ - ١٤١٨) الذى أصدر مرسومه الشهير الخاص بتفوق سلطة المجالس العامة على سلطان البابوات ، « فأحال بصفة مؤقتة حكما مطلقا دام عدة قرون إلى حكومة دستورية » . ولكن حدث رد فعل مضاد فى مجلس بازيل (١٤٣١ - ١٤٤٣) ترتب عليه أن شهدت السنوات الأخيرة من القرون الوسطى فى الغرب

---

(١) أنظر كولتون : المرجع السابق ، ص ٢٧٤ ـ ٢٨١ ، راجع أيضا : A. S. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages (1938), 9, 47-52, 303 n. 1; Figgis, op. cit., 31—4; Lewis, op. cit., I. 20, 25-8,30, 69—78, 156, 158—60, 184—90, 206, 222, 235, 255-8, 296, II. 365, 368, 392—8, 457—9, 540—5, 590—606; Ullmann, op.cit., 268 ff. ; Heer, op. cit., 280-I, 284-5; Hay, op. cit., 16-7. والمزيد من المعلومات عن مارسيليوس أوف بادوا وآرائه ، أنظر كتاب : A. Gewirth, Marsilius of Padua, the Defender of Peace, 2 vols., NewYork, 1956. ويتحدث المؤلف فى الجزء الأول من الكتاب عن مارسيليوس وفلسفته السياسية فى العصر الوسيط ، ويتناول فى الجزء الثانى كتاب مارسيليوس المسمى « المدافع عن السلم » .

أوتوقراطية نامية فى كلا المجالين الدينى والدنيوى (١) .

لقد انتهت امبراطورية العصور الوسطى فى الغرب ، كما بدأت ، باعتبارها مجرد لقب أجوف ، بعد أن تمتت اتحاد المانيا ـ برجنديا ـ ايطاليا . ويستعرض باراكلاف بايجاز الأدوار التى مرت بها الامبراطورية بعد ذلك ، موضحا كيف حاول آل هابسبورج الألمان إحياءها من جديد . ومع ذلك لم يكن هناك وجه شبه بين إمبراطورية آل هابسبورج وإمبراطورية العصور الوسطى فى الغرب التى سعت جاهدة إلى ربط مصيرها بروما وايطاليا . وفى سبيل ذلك اصطدمت بكل من الامبراطورية الرومانية فى الشرق والبابوية فى روما . ولم يكن باراكلاف مغاليا حينما قال بأن امبراطورية آل هابسبورج لاهى وريثة إمبراطورية العصور الوسطى ولا هى ظلها منذ أن انتهى أمر الاتحاد مع روما ، وبأنها تتميز بطابعها الخاص الذى هو من ثمار عصر النهضة وحركة الاصلاح الدينى المضادة ، أو هى تطوير وتحوير لإمبراطورية العصر الوسيط حتى تأخذ شكلا يتناسب ومطالب العصر ومقتضياته . ومايقال عن أسرة هابسبورج يقال كذلك عن أسرة هوهنزولرن التى تم فى عهدها توحيد المانيا ، والتى سقطت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ويختتم المؤلف بحثه بتقييم إمبراطورية العصور الوسطى فى الغرب ، وتحديد مكانها الصحيح بين الأسطورة والتاريخ ، وبين الفكرة والواقع ، وبين المثالية

---

(١) كولتون : نفس المرجع السابق ، ص ٢٧٩ـ٢٨٠ ، وكذلك ، Lewis, op. cit., II. 374; Figgis, op. cit., 51-3, 59 ff.; M. McKisack, The Fourteenth Century (1959), 145—6, 256, 272, 274, 277-9, 281, 293, 405; W. T. Waugh, A History of Europe from 1378 to 1494 (1932), 120 ff.; 171 ff., 191 ff., 219 ff.; Ullmann, op. cit., 288 ff. ; Machiavelli, op. cit., 28 ff., 39 ff. ; LaMonte, op. cit., 634 ff.; Painter, History of the Middle Ages (1966), 405 ff.

والحقيقة ، مع إبراز طابعها وخصائصها ومقوماتها وكيانها . وأثرها على المجتمع الغربى الوسيط ، وعلى تاريخ الحضارة الأوروبية ليس فى القرون الوسطى فقط وإنما فى التاريخ الحديث أيضا .

وبعد ، فهذه كلمة سريعة رأينا أن نمهد بها لبحثى هارتمان وبارا كلاف ، دون الدخول فى تفصيلات قد تبعد بنا عن الموضوع الأصلى لهذا الكتاب . فالدخول فى دقائق وتفصيلات الدولة ومفهومها ، والفكرة الامبراطورية وآثارها ، والامبراطورية الرومانية ومدى شرعيتها ، والامبراطورية المثالية ، والقانون الرومانى ومايعنيه بالنسبة للحق الإمبراطورى ، ودولة الكنيسة فى العصر الوسيط ، والفكر السياسى وفلسفته ، والنظريات السياسية وأصولها ودعاتها ، والسياسة وفلسفتها - كل هذا إنما يحتاج إلى دراسات أخرى طويلة وعميقة ليس هنا مجالها . فهى تخص رجال القانون واللاهوت وفلسفة السياسة ومؤرخى الفكر وأصحاب النظريات السياسية أكثر من غيرهم .

ولما كان عنوان بحث هارتمان هو « الدولة فى العصور الوسطى المبكرة » ، وعنوان بحث بارا كلاف هو « الإمبراطورية فى العصور الوسطى » — لذا رأينا أن يكون عنوان هذا الكتاب على الوجه الذى صدر به .

وهو أول كتاب معرب يحوى بين دفتيه أهم الآراء والأفكار المتعلقة بتاريخ كل من الدولة والإمبراطورية ، فى أوروبا فى القرون الوسطى ، لاثنين من كبار المشتغلين فى هذا الميدان . ومن حسن حظ المكتبة العربية أنها أصبحت عامرة بالعديد من الكتب العربية والمعربة فى تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها ، وتاريخ الدولة البيزنطية وحضارتها . وقد عالجت فى بعض فصولها وأبوابها شكل الدولة فى كل من الشرق والغرب ، كما أشار بعضها إلى الفكرة الإمبراطورية وما يتعلق بها من آراء ونظريات . فمن المراجع المؤلفة نذكر كتاب « أوربا العصور الوسطى » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ،

و«النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة» للدكتور سعيد عاشور والدكتور محمد أنيس ، وكتابى «المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى» و«المسلمون والجرمان» للدكتور ابراهيم أحمد العدوى ، و «الثقافة والتربية فى العصور الوسطى» للدكتور وهيب ابراهيم سمعان ، و«العصور الوسطى الأوربية» تأليف عبد القادر يوسف .وفى التاريخ البيزنطى نذكر كتاب «الدولة البيزنطية» للدكتور السيد الباز العرينى ، و «الإمبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية» ، و «الأمويون والبيزنطيون» للدكتور ابراهيم العدوى ، و«تاريخ الإمبراطورية البيزنطية» للدكتور عمر كمال توفيق ، وكتاب «الامبراطورية البيزنطية» تأليف عبد القادر يوسف .

ومن الكتب المعربة نذكر كتاب «أوربا فى العصور الوسطى» تأليف هـ. و. ك. ديفز ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ، و «تاريخ أوربا فى العصور الوسطى» تأليف هـ . ا. ل. فشر ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتور ابراهيم أحمد العدوى ، و «ميلاد العصور الوسطى - تأليف هـ. موس ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، و «عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة» تأليف ج. ج. كولتون وقد قمنا بنقله إلى العربية . ومن المراجع المعربة المتخصصة فى زاوية من زوايا التاريخ الوسيط نذكر كتاب «الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا» تأليف ج. و. كوبلاند و ب . فينوجرادوف ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، و «البندقية جمهورية أرستقراطية» تأليف شارل ديل ترجمة الدكتور أحمد عزت عبدالكريم والأستاذ توفيق اسكندر ، و «شارلمان» تأليف هـ . و. ك . ديفز ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، و «تطور الفكر السياسى» تأليف جورج سباين ترجمة الأستاذ حسن جلال العروسى . ومن مراجع التاريخ البيزنطى المعربة نذكر كتاب «الإمبراطورية البيزنطية» تأليف نورمان بينز ترجمة الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود يوسف زايد ، و«الإمبراطورية البيزنطية» تأليف شارل أومان

ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر ،و « الحضارة البيزنطية » تأليف ستيفن رنسيمان ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد ومراجعة الأستاذ زكى على ، وكتاب بعنوان « بحوث فى التاريخ الاقتصادى » وهو يتضمن خمس مقالات فى تاريخ بيزنطة الاقتصادى قام بترجمتها الأستاذ توفيق اسكندر. فضلا عن بعض المراجع والموسوعات العامة المعربة مثل « موسوعة تاريخ العالم » التى أصدرها وليم لانجر وأشرف على نقلها إلى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة . هذا إلى جانب عدد من المقالات المؤلفة والمعربة المنشورة فى المجلات والدوريات التاريخية . ففى هذه المراجع والبحوث معلومات لها وزنها وقيمتها التى لا تنكر فيما يتعلق بتاريخ الدولة والامبراطورية فى أوروبا فى القرون الوسطى .

ولقد اقتضى نقل بحثى هارتمان وباراكلاف إلى العربية تزويدهما ببعض البيانات والمعلومات والخرائط والفهارس التى لم ترد فى النص الأصلى لكل منهما. ومن ذلك الكلمة التى مهدنا بها للبحثين ، والتى لم يكن النص الأصلى ليتسع لها . وكذلك التعليقات فى الهوامش السفلية ، ومعظمها خاص بأسماء الأعلام والوقائع والأحداث والمصطلحات . وقد أضفنا كلمة « المترجم » بعد كل هامش من تلك الهوامش تمييزا لها عن هوامش المؤلفين . واستلزم ذلك تذييل الكتاب بقائمة بأسماء المراجع العربية والمعربة والأجنبية التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة التمهيدية وفى التعليقات بالهوامش .وفى آخر كل فصل من فصول البحثين قائمة بأهم المراجع الأجنبية الخاصة به التى يمكن لكل من يبغى التعمق فى البحث الرجوع إليها . وبالاضافة إلى ماتقدم ، فقد زودنا الترجمة بعدد من الخرائط الايضاحية ، كما ضمناها فهرسا تفصيليا بعناوين الفصول ومحتوياتها ، فضلا عن فهرس أبجدى عام بأسماء الأعلام والأماكن والأحداث والمصطلحات وما إليها .

والله ولى التوفيق — جوزيف نسيم يوسف

الاسكندرية فى يناير سنة ١٩٦٦

البحث الأول

الدولة فى العصور الوسطى المبكرة

بيزنطة ـ ايطاليا والغرب

هذه ترجمة البحث التالى :

L. M. Hartmann, The Early Mediaeval State : Byzantium, Italy and the West, Translated with Notes by H. Liebeschütz [Historical Association Pamphlet No. G 14, London, 1949] .

مقدمة

بقلم

هـ . ليبشيتز

كان لودو موريتز هارتمان (١٨٦٥ - ١٩٢٤) مدرس تاريخ العصور القديمة والحديثة فى جامعة فيينا ، تلميذا لتيودور ممسن Theodor Mommsen فى الحقبة الأخيرة من حياته . وكان ممسن أستاذ الدراسات الرومانية قد وجه فى ذلك الوقت اهتمامه الرئيسى الى فترة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط . ولم يقم بتنظيم البحوث الأثرية عن المانيا الرومانية فحسب ، بل أشرف كذلك على طبع المصادر المكتوبة عن غزوات « البرابرة » للامبراطورية . وفى هذه المدرسة تعلم هارتمان أن يرى فى العصر الكلاسيكى والعصر الذى يليه وحدة واحدة ، بينما كانا عادة موضوع أنظمة مختلفة . ويقوم مؤلفه الأساسى وهو « تاريخ ايطاليا » ، فى كامل أجزائه التى تتناول الفترة من عهد ثيودوريك إلى عهد الإمبراطور هنرى الثانى ، على بحث ناقد فى ثلاثة مجالات دراسية هى : التاريخ اللاتينى القديم ، والدولة البيزنطية ، والتاريخ السياسى والدستورى للعصور الوسطى . وكل تعميماتنا المثبتة فى المقال المترجم فى هذا الكتيب ، مبنيـــة على المادة الغزيرة التى تحويها الأجزاء الثلاثة الأولى من مؤلفه المذكور . وأبرز مزايا هذه المحاضرة التى كان عنوانها فى الطبعة الأصليـــة التى صدرت سنة ١٩١٣ (والتى نفدت منذ زمن بعيد) « فصل عن الدولة فى أواخر التاريخ القديم وأوائل العصر

الوسيط »(١) ، هى نظرة شاملة للفترة موضوع البحث ، ومنهج موضوعى للمقارنة بين نظم الحضارات المختلفة .

وتمثل تلك المقالة قطرة صغيرة فى قائمة كتابات هارتمان . ولكنها ليست فى الحقيقة إنتاجا فرعيا . ذلك أن هارتمان ، فى بحثه كمؤرخ ، لم يسمح لنفسه قط أن يتجاوز عن التفاصيل الصغيرة ، وعن الوقائع الفردية التى لا حصر لها والتى يتكون منها كل حدث سياسى عظيم . ولربما كانت أقوى دوافع هارتمان فى انتاجه الذى كرس حياته له ، هو رغبته فى الكشف الكامل عن ميكانيكية النظام الاجتماعى التى كانت أساس التاريخ ، والتى شكلت ، فى اعتقاده ، مصير الجنس البشرى . وقد عاش والد هارتمان عشرين عاما فى المنفى ، لمشاركته فى ثورة الأحرار ضد آل هابسبورج عام ١٨٤٨ . أما الابن الذى قام بمهنة التدريس خلال تسع وعشرين سنة فى فيينا الامبراطورية ، فقد رأى فى الحركة الاشتراكية بشرى للنصر النهائى . وفى هذا الصدد كان هارتمان يتميز بطابع خاص انفرد به بين المؤرخين المحترفين . وكان يشاركه فى الاهتمام بالأساس الاجتماعى والاقتصادى لأوجه النشاط السياسى أساتذة كبار من معاصرى جيله . وكان الطابع الاقتصادى للحضارة القديمة ، ومكانه من تطور الأشكال الرأسمالية للمجتمع ، موضع نقاش فى نهاية القرن التاسع عشر بصفة خاصة . ويمكن تتبع موقف هارتمان من هذه المناقشات الأكاديمية بسهولة فى هذا المقال .

---

(١) عنوان البحث بالألمانية "Ein Kapitel vom spätantiken und frühmittelalterlichen Staate" وقد قام بنشره و . كولامير W. kohlammer بشتونجارت سنة ١٩١٣ ، وإليه يرجع الفضل فى الإذن بإصدار تلك الترجمة .

وقد اختصرنا النص الأصلى حيثما بدت صيغ المؤلف خاضعة لمتناقضات فات وقتها ، أو تبدو الآن عديمة الأهمية إذا قيست بالمؤلفات الكبرى . ووجدت عبارات من هذا النوع ، وبخاصة فى الفقرات التمهيدية عن نظام دولة المدينة فى التاريخ القديم . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أضفنا بعض الإيضاحات الموجزة إلى آراء هارتمان ، وهى داخل أقواس مربعة تمييزا لها عن النص الأصلى . كما راجعنا صفحة المراجع فى هوامش هارتمان فى ضوء مزيد من المؤلفات المستجدة المستحدثة، مع إضافة شىء من النقد هنا وهناك ، لتوضيح موقف المؤلف من المناقشة التاريخية فى زمانه .

ه . ليبشيتز

الفصل الأول

نهاية نظام دولة المدينة والامبراطورية الرومانية

لتحديد نظام دولة ما ، لا يزال أصحاب النظريات والمؤرخون يأخذون بمراحل التطور التى نادى بها أرسطو ، وهى الملكية والأرستقراطية والديموقراطية(١).

---

(١) يستمد أرسطو نظريته السياسية من واقع التاريخ اليونانى القديم ، وبصفة خاصة من تطور النظم السياسية فى أثينا . وقد سادت تلك النظم على النحو التالى : إذ ابتدأت بالملكية حتى القرن التاسع قبل الميلاد . ثم انهار النظام الملكى ، وساد مكانه النظام الارستقراطى أو حكم الأشراف الذى يعتمد على طبقة تتميز بالنسب العريق وملكية الأرض . وتطور هذا إلى ما عرف بالاوليجاركية ، وذلك بعد الثورة التجارية والصناعية وقيام طبقة من التجار وأصحاب السفن الذين كونوا ثروات كبيرة عن طريق التجارة الخارجية ، واختلطوا بفضل ثرائهم بالطبقة الأرستقراطية . وأصبحت الطبقة الجديدة المكونة من الأرستقراطية القديمة والثرية الجديدة تكون الطبقة الحاكمة التى عرفت الآن باسم حكم الأقلية أو الأوليجاركية . وحدث بعد ذلك صراع طبقى بين هذه الطبقة السائدة والطبقات الشعبية الفقيرة ، مما أدى إلى أن يتزعم الطبقات الفقيرة أحد الأفراد الأقوياء ، وكثيرا ما كان من الأرستقراطيين أنفسهم ، وأقام نفسه حاكما . وعرف فى النظم اليونانيــة باسم طاغية « tyrannos » . وكانت التجربة الشعبية السياسية بعد ذلك قد نضجت . وقام حكم العامــة الذى يعرف اصطلاحا باسم النظام الديموقراطى ، ووصل أوجه فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وفى عصر بركليس بصفة خاصة . وقد استغل ارسطو هذا التطور التاريخى فى صياغة نظرياته السياسية . إذ قال إن نظم الحكم تنقسم إلى ثلاثة أنواع هى : النظام القائم على حكم الفرد ، والنظام القائم على حكم الأقلية ، والنظام القائم على حكم الأكثرية . وكل من هذه الأنواع الثلاثة له وجهان أحدهما صالح والآخر فاسد. فحكم الفرد الصالح هو الحكم الملكى ، والفاسد هو حكم الطاغية . وفى حالة حكم الأقلية يكون الحكم الصالح هو النظام الارستقراطى ، والفاســد هو النظام الاوليجاركى . وفى حالة حكم الأكثرية يكون النظام الصالح هو النظام الديموقراطى والفاسد هو الديماجوجى أى حكم الغوغاء أو العامة . أنظر عن ذلك المراجع التالية :

Aristotle, Politics (1961) , Book III, 92 ff., Book V, 214 ff.; J. =B. Bury , A History of Greece (1951), 833 ff.; R. H. Barrow, The

ولهذا المنهاج حدود واضحة . فلا شك فيه أن السلطة العليا ــ سواء أ كانت لفرد أم لأقلية أم لأغلبية ما ــ لا تكفى بذاتها لقيام دولة . ونعرف كذلك أن فكرة مقابلة الملكية والأرستقراطية والديموقراطية القديمة ، بمثيلاتها فى التاريخ الحديث ، والتى صادفت رواجا خلال القرن الثامن عشر ، لا تؤيدها الوقائع التاريخية . فضلا عن أن نظرية أرسطو السياسية كانت مبنية على شكل واحد من أشكال الدولة ، وهو نظام المدينة اليونانية الحرة [١] أو دولة المدينة المعروفة باسم « بوليس » « polis » [٢] . وقد كانت هذه المدينة على وجه

Romans (1955), 66—7; T. R. Glover, The Ancient World (1953) = 257 ; Barker, op. cit., 136 —141. راجع أيضا الترجمة العربية لمؤلف أرسطوطاليس : السياسة (١٩٤٧) ، الكتاب الثالث ص ١٨١ وما بعدها والكتاب الخامس ص ٢٨٧ وما بعدها ؛ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية (١٩٥٣) ، ص ٢٠٥ـ٢٠٨ ؛ سباين : تطور الفكر السياسى ، ج ١ (١٩٦٣) ، ص ١١٦ وما بعدها ؛ محمد عبد المعز نصر : الدولة والمواطن (١٩٥٢) ، ص ٣٥ـ٤١ . المترجم.

(١) يرى أرسطو فى كتاب « السياسة » أن الأسرة هى الوحدة الأساسية التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى . ويرى أن القرية تتكون من اجتماع عدد من الأسر ، ومن اجتماع عدد من القرى تتكون المدينة ، وهى النظام السياسى المثالى للدولة عنده . ويقول إن اجتماع هذه القرى فى شكل دولة يكون مثاليا إذا ضمن لها الاكتفاء الذاتى . ويرى كذلك أن المدينة المثالية لكى تحيا حياة سياسية صالحة يجب ألا يزيد عدد المواطنين فيها عن القدر الذى يسمح لكل واحد منهم أن يعرف الآخر . أنظر عن ذلك المراجع التالية :

Aristotle, op. cit., Book I, 1. ff.; cf. also W. G. de Burgh, The Legacy of the Ancient World (1955), I, 206 ff.; A. T. Toynbee, Hellenism (1959), 37,45 ff.; H. D. Kitto, The Greeks (1954), 65 ff.; M. Rostovtzeff, Rome (1960), 320-1; Baynes, Byzantine Studies, 3-5.

راجع كذلك ارسطوطاليس : المرجع السابق ، الكتاب الأول ، ص ٩١ وما بعدها ؛ يوسف كرم : المرجع السابق ، ص ٢٠١ ، ٢٠٤ المترجم .

(٢) « بوليس » كلمة يونانية تعنى دولة سياسية أو حكومة المدينة أو دولة المدينة . ولكن نظرا لأن الأغريق القدماء لم يعرفوا فى تجربتهم التاريخية وحدة سياسية أكبر من المدينة ، =

التحديد تتمتع با كتفاء ذاتى . وكان أرسطو يعتبر التزاوج بين مواطنين من مختلف المدن الحرة خروجا على العرف السائد .

وكانت هناك نظم قانونية تختص بالمدينة الحرة فى مرحلة تالية فيما وراء الحدود لم يعترف بها إلا باتفاق خاص . كذلك وجد حد أدنى « للقانون الدولى » تتعايش بموجبه إحدى المدن الحرة مع غيرها . ولم يكن ثمة حقوق تحمى أسرى الحرب الذين كانوا يعاملون كالأغنام . وتبعا لذلك اعتبر الرق ، وهو وجود رجال محرومين من حقوقهم ومجردين من صفتهم كمواطنين ، أمرا مسلما به كقانون طبيعى . وكان هذا التمييز بين المواطنين وغير المواطنين هو الأساس الذى بنيت عليه المدينة اليونانية الحرة . وكان غير الأحرار هم المنتجون للطعام . أما الأحرار فهم الذين كانوا يمارسون وحدهم النشاط السياسى ، إذ كونوا طبقة المحاربين . وكان الطابع المميز للجمهوريات القديمة هو أن مجلس الأحرار إنما يمثل السلطة العليا . واقتصرت المواطنة الكاملة على الرجال حاملى السلاح (١) . وكان ذلك نتيجة للتمييز القانونى بين طبقة المحاربين وبين الشعب الكادح .

وقد ظل هذا التقسيم الأساسى قائماً طالما كانت هناك مدينة حرة . ولم تكن تلك المدينة قد تغيرت فعلا بالتحول من الملكية إلى الأرستقراطية ، ومن

= فقد أصبح هذا الاصطلاح قاصرا على دولة المدينة المستقلة كما عرفها الأغريق . أنظر عن ذلك :
M. I. Finley, The Ancient Greeks (1963), 45-88; Kitto, op. cit., 64 ff., 120 ff.; Glover, op.cit., 113-8; Burgh, op. cit., chs. IV-VI, 96—224; Cambridge Ancient History, Vol. VII, ch. IV, 22-32.
هذا وقد وردت الاشارة إلى المدن الدول فى مواضع متفرقة من كتاب توينبي: تاريخ الحضارة الهلينية ـ القاهرة ١٩٦٣ . المترجم .

(١) Otto Hirschfeld, Die kaiserlichen Verwaltungsbeamten bis Diokletian (1905), 486.

الأرستقراطية إلى الديموقراطية . وتمثل آراء أرسطو فيما يتعلق « بالملكية » و « الأرستقراطية » و « الديموقراطية » فى الواقع مجرد ثلاث مراحل متفق عليها تاريخياً فى تطور نظام المدينة اليونانية الحرة . أما عن المرحلة الأولى فهى خاصة بالملكيات المبكرة فى عصر هوميروس (١) . وأعقبتها فترة كانت تنشأ فيها الدول بطريق الغزو . فكان ثمه جماعة من الدوريين (٢) ، أو أسر أخرى محاربة يحتمل أنها كانت لاتزال من الرحل ، وقد أقامت فى مراكز جديدة بات أهلها الفلاحون من الخاضعين الأذلاء ، بعد أن جعلتهم أتباعا لها بصورة أو بأخرى . على حين

(١) العصر الهومرى نسبة إلى هوميروس . وقد أبدى البعض فى وقت ما تشككهم فى حقيقة وجود هذا الشاعر . وحتى فى العصور القديمة لم يكن البعض يتصور أنه إنسان عادى يستطيع تنظيم كل تلك الاشعار والقصائد المنسوبة إليه . ولكنهم تخيلوه كهلا كفيف البصر، ينشد أو يلقى مقطوعاته . وهناك سبع مدن على الأقل كانت تنسبه إليها ، وتزعم أنها مسقط رأسه وعلى أية حال يكاد يكون من المتفق عليه الآن هو أن هوميروس عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وسرعان ما نال شهرة واسعة فى وقت كانت فيه الحضارة اليونانية قد بدأت فى النضج . وازدادت شهرته فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد وما تلا ذلك من عصور . وأهم ملحمتين له هما «الإلياذة» و «الأوديسية» . وتتكلم «الإلياذة» عن حرب طروادة فى مرحلتها النهائية ، بينما تصف الثانية رحلة أوديسيوس ، أحد أبطال اليونان ، وهو فى طريق عودته إلى وطنه . أنظر يوسف كرم : نفس المرجع السابق، ص٢ - ٤ ؛ محمد صقر خفاجة : هوميروس - القاهرة ١٩٥٦ ، حيث يعرض الدكتور خفاجة للشاعر وعصره عرضا دقيقا ممتعا . أنظر أيضا Bury, A Hist. of Greece, 50—3, 68—9 ; Kitto, op cit., 44-64; E. H. Blakeney (ed.) , A Smaller Classical Dict. (1949) , 267—8.

(٢) الدوريون قبائل متبربرة غزت العالم اليونانى منذ نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد حتى القرن العاشر قبل الميلاد . وكان لهذه الغزوات تأثير كبير على تغيير مجرى التاريخ اليونانى . إذ قضت على مراكز الحضارة القديمة التى ازدهرت فيها الحضارة الميكينية نسبة الى مدينة ميكينى . وكانت أهم مراكز استقرارهم فى العالم اليونانى هى اسبرطة وكريت وشبه جزيرة البليبونيز بصفة عامة . أنظر عن ذلك المراجع التالية :

N. G. L. Hammond, A History of Greece to 322 B. C. (1959), 72 ff.; W. Ridgeway, The Early Age of Greece (1931), I, ch. III, 293—336 ; Toynbee, op. cit., 28 f., 35 ; Kitto, op. cit., 15 ff., 88 ff.; Bury, op. cit., 61—2. — المترجم .

أعد الغزاة الفاتحون أنفسهم على أن يكونوا ملاكا الأرض ومحاربين . وكانت هذه هي مرحلة «الأرستقراطية» كما حدثت فعلا فى التاريخ، والتى قامت على أساس تقسيم العمل بين المحاربين والعاملين . واستمرت تلك الأرستقراطية فترة طويلة من الزمن فى عدد من الدول [مثل اسبرطة وكريت] . غير أن مدناً حرة أخرى ولو أنها قامت على نفس الأسس ، إلا أنها تطورت تطوراً سريعاً تحت تأثير عوامل اقتصادية مختلفة ومغايرة ـ فضلا عن أسباب التغيير فى التكتيكات الحربية ، التى ترتب عليها اتساع نطاق الخدمة العسكرية حتى شملت أفراد الشعب المحكومين . وما أن سمح للفلاحين بأداء الخدمة العسكرية ، حتى استتبع ذلك تحريرهم بحكم الضرورة ، إذ أصبحوا محاربين أحرارا . وبهذه الطريقة بدأت الفترة التى أطلق عليها « الديمقراطية » .

وبهذا الخصوص نستهل القول بأن روما نفسها قد مرت تماماً بنفس مراحل التطور التى مرت بها المدن اليونانية الحرة . وتحت ضغط الأحداث حولت حركة تحرير العبيد (١) الأتباع المحكومين إلى فلاحين أحرارا، وإلى طبقة البروليتاريا

(١) كانت العبودية منتشرة فى المجتمع القديم كله ، وأمر حرية العبد موكول آخر الأمر لسيده . وقد عرف العالم اليونانى القديم طريقتين للتحرر ، منها أن الدولة أو الحاكم كان يملك سلطة إصدار قوانين لتحرير أعداد كثيرة جداً من الرقيق فى المدينة . وكانت هذه القوانين تصدر عادة فى ظروف الأزمات الحادة حين تكون الحاجة ماسة لمساعدة العبد العسكرية . والطريقة الثانية هى أن السيد نفسه هو الذى يعتق العبد إما بمحض رغبته الشخصية ، أو أن يشترى العبد حريته من سيده بما أمكنه جمعه من مال . وكانت هذه الوسيلة منتشرة فى روما وفى اليونان على حد سواء . ومن المعروف أن معبد أبولو فى مدينة دلفى كانت له شهرة كبيرة باعتباره مركزا لتحرير العبيد . وجدير بالذكر أن ثورات العبيد قليلة فى التاريخ عموما . ولعل من أشهرها فى التاريخ القديم هى ثورة العبيد ضد روما فى بداية القرن الاول قبل الميلاد ، وكان من أبرز زعمائها الشخصية المشهورة باسم سبارتاكوس .

انظر توينبي : تاريخ الحضارة الهلينية (الترجمة العربية) ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، وكذلك : W. L. Westermann, The Slave Systems of Greek and Roman Antiquity, Philadelphia, 1955; W. W. Fowler, Rome (1957), 92 ff. ; Glover, op. cit., 125—7. — المترجم .

والجنود . ولازم هذه الفترة فى تاريخ طبقة المحاربين صراع أهلى وأزمات اجتماعية . وأعقب ذلك قيام طبقة متوسطة بمجرد أن حصلت روما على كفايتها من الارض ومن الرقيق العاملين لاحتياجات الفلاحة .

وتم الانتقال فى روما، كما كان الحال فى بلاد اليونان، من مرحلة «الأرستقراطية» إلى مرحلة « الديموقراطية » دون حدوث أى تغيير جوهرى فى الجهاز الحكومى أو فى الأسس التى يرتكز عليها . واستقرت كل من « الأرستقراطية » و « الديموقراطية » على نفس أسس تقسيم العمل بين المحاربين والعمال الكادحين . وكان الفارق الوحيد هو أنه بعد تحرير الفلاحين أجبر الرقيق على القيام بالعمل المنتج الذى أصبح منذ ذلك الحين هو عمل الفلاح. واستمرت الأجهزة السياسية والإدارية تحت كلا النظامين تشغل عن طريق الانتخاب وفقا للبدأ القائل بأنه يجب على كل مواطن حر أن يؤدى بصفة شخصية الخدمات المدنية فى أوقات السلم ، كما يتعين عليه تماما القيام بحمل السلاح أثناء الحرب .

ومعروف جيدا كيف تخطت روما النطاق الضيق لنظام دولة المدينة أو المدينة الحرة . إذ أصبحت الجمهورية الرومانية خلال القرنين الأخيرين من تاريخها بناء غير متجانس بأية صورة كانت . ولم يستمر وجودها كمدينة حرة . وظل الكثير من بين المدن الحرة ، التى كانت تكون التحالف الايطالى غريبة بحكم القانون ، بحيث أنه فى الفترة المبكرة من تاريخ الإمبراطورية كان لايزال ميسورا نفى المواطنين إلى إحدى مدن الأقاليم الايطالية . فضلا عن أن استقرار الأقاليم بسكانها التابعين المحكومين لم يكن يتفق مع طابع المدينة الحرة ، كما هو الحال فى شأن التوسع فى عملية تحرير العبيد التى منحت حقوقا سياسية للقيمين فى الجهات النائية لم تكن تمارس إلا فى روما ذاتها .

وقد سار فى نفس هذا الاتجاه تحول الجيش من نظام الميليشيا (١)

---

(١) ذكر الاستاذ جونز فى الجزء الاول من مؤلفه الكبير « الامبراطورية الرومانية المتأخرة» أن لفظ « ميليشيا » يعنى عموما العمل فى خدمة الامبراطور فى أى صورة كانت .=

militia المكون من المواطنين المدربين ، إلى قوة من النظاميين ذوى الخدمة الطويلة . وكانت الإمبراطورية هى الخاتمة الطبيعية لهذا التطور . وأصبح واجبها هو إبطال نظام المدينة الحرة أو دولة المدينة بصفة نهائية ، عن طريق إيجاد شكل جديد من التنظيم السياسى . وقد شغل هذا الإجراء المعقد ، نتيجه تغييرات اقتصادية واجتماعية عميقة الجذور ، الثلاثمائة سنة[1] الممتدة من عهد اوغسطس[2]

= ولكن هناك فارق أساسى بين « ميليشيا » فى معناها الضيق الذى يتعلق بالخدمة العسكرية أو الخدمة المدنية ، وبين المناصب العليا العسكرية والادارية التى كانت تسمى administrationes أو honores أو dignitates . وأهم فارق بينهما هو أن الميليشيا عبارة عن وظيفة دائمة ثابتة تمتد عادة مدى الحياة . أما الوظيفة الثانية فكانت قاصرة على المناصب العليا ولفترات قصيرة فقط ، كما أنها كانت متوقفة على مـدى رضاء الامبراطور على شاغلها . أنظر : A.H.M. Jones, The Later Roman Empire (I964), I,377—8. المترجم .

(١) يحلل روستوفتزف بداية ونهاية المرحلة التى مرت بها تلك العملية فى الفصل الثانى من كتابه M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Roman Empire ، وعنوان الفصل المذكور « أوغسطس وسياسة الإصلاح والتجديد — ص ٣٨ — ٧٥ » ، وكذلك فى الفصل الثانى عشر من نفس الكتاب ، وعنوانه « استبداد الشرق ومشكلة انهيار الحضارة القديمة — ص ٤٤٩ — ٤٨٨ » — المؤلف — راجع أيضا الفصل الذى كتبه روستوفتزف عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى الامبراطورية الرومانية خلال القرنين الأول والثانى ، فى مؤلفه Rostovtzeff, Rome, 248-65. المترجم.

(٢) حكم أوغسطس ٤٥ سنة ، من ٢٧ ق. م إلى ١٤ م. وكان لقب تمجيده هو « أوغسطس » «Augustus» أى العظيم أو المعظم ، وكان يلقب أيضا « امبراطور » «Imperator» باعتباره قائدا أعلى . غير أن الصفة الوحيدة العامة التى كانت تطلق عليه هى « الرئيس » «princeps» . وكانت السلطات المخولة له محدودة زمنيا من الوجهـة الرسمية ، ويتحتم طلب تجديدهـا . وقد شارك أوغسطس السناتو أى مجلس الشيوخ فى الاضطلاع بمهام الحكم ، ولو أن السيادة كانت لاوغسطس نفسه الذى يعد العضو الأول فى المجلس المذكور . ومن صفاته أنه كان وديعا متواضعا لا يحب الظهور بمظاهر العظمة والأبهة والسلطان . أنظر م. ب. تشارلزوورث : الامبراطورية الرومانية (١٩٦١) ، ص ١٢ و ١٩ — ٢٠ ، وكذلك J. B. Bury, A Hist. of the Roman Empire (1913), 12 ff.; M. Cary, A Hist. of Rome (1938), 495 ff. للمترجم .

إلى عهد دقلديانوس (١) . وكانت النتيجة مغايرة لنظام دولة المدينة من كافة الوجوه . وانتهى كذلك نظام الحكومة الذاتية الذى كانت تمـــارسه الطوائف المدنية . وفقدت المجالس البلدية وظائفها الإدارية ، وتحولت إلى هيئات من أشخاص تنحصر مسئوليتهم فى دفع الضرائب . وغدا المجتمع أكثر تعقيدا . واختفى التقسيم القديم بين أعضاء المجتمع ذوى النشاط السياسى وبين الشعب العامل . وهذا مايمكن أن يقال عند المفارقة بين المواطنين وغير المواطنين . إذ حل محل الرق فى معظم الحالات أشكال من التبعية فى كل من التجارة والزراعة ، [حيث حل محل جماعات الرقيق المكلفين بأعمال الزراعة جيش من صغار المستأجرين] . ونظمت كافة المهن والحرف فى شكل طوائف

---

(١) تربع دقلديانوس على عرش الامبراطورية الرومانية فى الفترة من سنة ٢٨٤ إلى سنة ٣٠٥ . وقد بادر بسن عدد من الاصلاحات لمنع الانهيار البادى فى الدولة الرومانية . وشملت إصلاحاته النواحى الإدارية والعسكرية وشئون الحكم . كما اهتم بالناحية المالية ، وعمل على إعلاء كلمة الإمبراطور حتى أصبح شبه إله . وقام بتقسيم الإمبراطورية نظريا إلى قسمين ، بعد أن أدرك بأن امبراطورا واحدا لا يمكنه تحمل أعباء الحكم ومسئولياته بمفرده فى تلك الدولة المترامية الأطراف ، وتحت ظل الظروف الجديدة التى طرأت على مسرح الأحداث بقيام البرابرة بغزواتهم وظهور الديانة المسيحية . وفى سنة ٣٠٥ تنازل دقلديانوس عن العرش ، ولم يقدر لامبراطوريته التى أعاد تنظيمها البقاء طويلا بعـــده . وحل محله فى المنصب الامبراطورى قسطنطين الكبير الذى ترك له أمر القيام بتلك المهمة الشاقة . أنظر عن ذلك رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٤-١٩ ؛ ن. بينز : الامبراطورية البيزنطية (١٩٥٠) ص٣-٥ ؛ تشارلز وورث : المرجع السابق ، ص١٩٤ — ٢٠٠ ، راجع أيضا : Ostrogorsky, op. cit., 31 ff., 37 ff.; Baynes and Moss, op. cit., 280 ff.; Barker, op. cit., 32—3; Rostovtzeff, op. cit., 279 ff.; Jones, Constantine and the Conversion of Europe, 12-4, 17-28; Baynes, Byzantine Studies, 173 ff.; H. M. D. Parker, A Hist. of the Roman World from A. D. 138 to 337 (1958), 223—39, 262—90. المترجم .

متوارثة ، كل منها يقوم بخدمة الدولة فيما تخصص فيه من نشاط وكفاية (١).
وأصبحت أوجه النشاط السياسى التى مارسها كافة المواطنين فى دولة المدينة ، شأنها شأن الأوامر العسكرية والإدارة المدنية ، تمثل مزايا لطبقة جديدة ، هى طبقة البيروقراطية الامبراطورية التى كانت أعلى درجاتها مخصصة لأعضاء الطبقة الأرستقراطية المالكة للارض [والتى لم يعد بقاؤها مرتبطا بالحياة فى المدينة].
ومن ثم قام نظام دقلديانوس وخلفائه على أساس مزدوج : أول شقيه هو حكم الطبقة الأرستقراطية المالكة للارض ، والشق الثانى هو التنظيم البيروقراطى .
وشاهدت هذه الحقبةمن الزمن تطورا كاملا فيما يتعلق بعملية إدارة دفة السياسة الحكومية . وظلت جميع خصائصها الهامة قائمة ، ونعنى بها تقسيم العمل ، وانفصال الطبقات ، ومشروع سلم تصاعدى للسلطات الإدارية ، وتعيينات وترقيات ضمن نظام مدروس بعناية للرتب والأجور تشرف عليه الحكومة المركزية بمن فيها من الكتبة العديدين فى كافة المراتب (٢) .

---

(١) لم يسمح دقلديانوس للمواطن الرومانى بالتحلل من التزاماته نحو الدولة ، وأجبره بالتزام وظيفته مهما كانت الظروف . وأمر بأن يتبع الابن وظيفة أبيه أيا كانت وظيفته . وكان يستهدف من هذا النظام الصارم للمهن اقرار الهدوء والاستقرار ، وجمع دخل ثابت للامبراطورية ، وانقاذ ما يمكن انقاذه من « السلام الرومانى » الذى كان يرمز إلى وحدة الامبراطورية وتماسكها . أنظر Painter, S., A History of the Middle Ages : 284—1500 (1966), 9. ـ المترجم .

(٢) فيما يتعلق بالنظام البيروقراطى فى روما أنظر كتاب L. Homo. Roman Political Institiutions from City to State, London, 1929; Painter, op. cit., 6 ff.

وكذلك تشارلز وورث : المرجع السابق ، وبخاصة الفصل الأول الذى يتحدث عن شخص الامبراطور ومركزه ومعاونيه (ص ١٨ـ٣٧) ، والفصل الثانى ويتناول الجيش والأسطول (ص ٣٨ ـ ٦٠) . أنظر أيضا بحث الدكتور لطفى عبد الوهاب يحيى وعنوانه « مقدمة فى نظم الحكم عند اليونان والرومان ـ دراسة فى حضارة البحر الأبيض » الاسكندرية ١٩٥٨ . راجع قائمة المراجع المذيل بها هذا الفصل . المترجم .

ولا يمكن القول بأن هذا الشكل من البيروقراطية [الذى نما خلال القرون الثلاثة الممتدة من عهد أوغسطس إلى عهد دقلديانوس] مأخوذ عن نظام دولة المدينة ، بمجرد عملية اقتباس تتفق مع ضروريات عالم متغير . وإنما يمثل هذا الشكل من البيروقراطية ،فى الغالب ، ظاهرةِ جديدةفى المجتمع اليونانى والرومانى صيغت جزئيا وفقا لنموذج الاقطاعات الكبيرة فى العالم الهللينستى (١) ، وبخاصة فى مصر التى تم الاستيلاء عليها بوصفها جزءا من الدومين الامبراطورى . ولم يكن من الميسور إدارة الإقطاعات الشاسعة من الأرض إلا بمعرفة جهاز مختص من الإداريين الأرقاء . وكان البلاط الإمبراطورى يدير شئون الإمبراطورية بنفس الطريقة . وقد انشىء مركز جديد للادارة الإمبراطورية يتكون أساسا من رجال الامبراطور الذين تم تحريرهم . ولا تزال توجد آثار لهذا الأصل حتى بعد أن تغير الطابع الاجتماعى لهيئة الموظفين . وكان الموظفون الجدد تابعين شخصيا للامبراطور الذى أصبح ، بصفته مالكا أو سيدا « dominus » يمثل

---

(١) فيما يتعلق بالأساس الهللينستى للنظم الإمبراطورية ، أنظر كتاب روستوفتزف وخاصة خاتمته M. Rostovtzeff, The Social and Economic History of the Hellenistic World. (1941), II, 1307-10. المؤلف .

وجدير بالذكر أن هناك فارق بين العالم الهللينى والعالم الهللينستى . فالأول اصطلاح يطلق على العالم اليونانى وحضارته منذ الغزو الدورى حتى الاسكندر الأكبر ، أى اعتبارا من القرن التاسع قبل الميلاد حتى سنة ٣٣٦ ق.م. أما ما بعد الاسكندر فيطلق عليه العالم الهللينستى الذى شمل بلاد اليونان والممالك الشرقية بعد فتح الاسكندر لها . أنظر عن ذلك كتاب :

A. Toynbee, Hellenism : The History of Civilization, London, 1959.

وكذلك ترجمته العربية : توينبى : تاريخ الحضارة الهلينية ـ ترجمة رمزى عبده جرجس ـ مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة ـ القاهرة ١٩٦٣ ؛ و . لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج٢ (١٩٥٩) ، ص ١٩٤ ـ ٢٢٠ . المترجم .

السلطة الوحيدة المهيمنة على الدولة . كما استحال الطابع الذى يميز الماجيستر (١) « magistrate » ، وهو من كبار موظفى الجمهورية الرومانية ، إلى ما عرف بالسلطة أو السيادة « imperium » . أما البيروقراطى فقد كان رجل «عمل وخدمات».

ولقد كان شكل الدولة وطابع عملها المعقد بمثابة التمهيد الأولى لقيام هذه البيروقراطية؛ بينما أدى تعدد أوجه نشاط الدولة إلى المركزية. كما يسر الاقتصاد النقدى قيام بيروقراطية أخصائية مأجورة ، حيث أصبح تركيز العديد من الوظائف فى يد شخص واحد هو الطابع المميز لوظيفة الماجيستر فى دولة المدينة. وهناك اتجاه مضاد قلما يكون أقل أهمية فى مجالات أخرى معينة فى عهد دقلديانوس. وقد ثبتت دعائم الإقطاعات الشاسعة فى هذا العصر بصورة مطردة بوصفها وحدات لها كفاية ذاتية تهدف إلى إقامة حاجز بين صغار المستأجرين والسلطات العامة . ومن ثم تحددت دائرة العمل الديموقراطى (٢) . ويعتبر النزاع بين هذين

---

(١) هو من كبار الموظفين فى روما ، ووظيفتـــه كانت أصلا نوعا من وظيفة القنصلية ، كما لو كان شاغلها قنصلا ثالثا أنظر Smaller Classical Dictionary, 410. وذكر ستيفن رنسيمان أن لقب « ماجيستر » ظهر كذلك فى الدولة الرومانية الشرقية فى القرن العاشر . وقد تزايد عدد هؤلاء السادة الذين أطلق عليهم لفظ magistri زيادة كبيرة . واندثر اللقب المذكور قبل عصر آل باليولوجس . أنظر رنسيمان : الحضارة البيزنطيـــة ، ص ٩٢ — ٩٤ المترجم .

(٢) مر هارتمان فى هذه الفقرة مرورا سريعا على العامل الحاسم للتخلف الاقتصادى الذى تحكم فى مصير التطور بعد نهاية القرن الثانى . أنظر Cambridge Ancient History, Vol. XII, cap. 41, 232—81. راجع كذلك كتاب Rostovtzeff, Roman Empire, 302 ff. — وليس بوسعنا فهم نظام دقلديانوس البيروقراطى دون أن نأخذ فى الاعتبار أن النظام المذكور إنما يمثل محاولة هدفها إرساء الكيان السياسى على قاعدة اقتصادية شديدة التنظيم . وليس إغفال هارتمان لذلك مجرد عملية المقصود منها التبسيط . بل يحتمل أن يكون قد نتـج عن وضعه وموقفـــه من مناقشة طابع الاقتصاد القديم . وهو يقف إلى جانب ك . بيشر K. Bücher الذى صنف الاقتصاد القديم كله باعتباره اقتصادا يمت بصلة إلى =

العنصرين فى التنظيم الاجتماعى المفتاح الذى يؤدى بنا إلى التعرف على الدولة فى العصور الوسطى المبكرة . ولقد كان أحدهما أو الآخر هو الغالب والمتسلط وفقا للزمان والمكان . وثمة سلسلة كاملة من الخلافات بين البيروقراطية الصميمة والدولة الافطاعية البحتة . وعلى العموم ، فقد تم تطبيق هذين النظامين فى كل من الشرق والغرب .

= مرحلة التطور البدائية . كذلك يقف إلى جانب اد. ماير Ed. Meyer الذى كان يعتقد أن الأحوال الاجتماعية فى العالم القديم قد بلغت درجة من التقدم الاقتصادى توازى تقدم أوروبا الحديثة قبل اختراع الآلات البخارية فى نهاية القرن الثامن عشر . ولم يسلم هارتمان بمثل هذه النهاية للمشروع الرأسمالى فى الحقبة الهللينية وفى عهد أوغسطس . وهو يرجع بعض عناصره فقط إلى نهاية التاريخ القديم ، وذلك لتوضيح وضع المجتمع البيزنطى الفريد فى نوعه فى القرون الوسطى المبكرة . ويبدو أن أفضل تحليل للمشكلة ، من وجهة نظر التاريخ العام ، إنما يوجد فى الفصل الذى كتبه ماكس ويبر Max Weber عن دور المدينة فى تطور الحضارة . أنظر Wirtschaft und Gesellschaft (1925), Vol II, cap. 8, 514—601. (هـ. ليبشيتز) .

بعض المراجع للفصل الأول

Albertini, E., L'empire romain. Paris, 1929.

Ashby, T., The Roman Campagna in Classical Times. London, 1927.

Barrow, R. H., The Romans. Aylesbury and London, 1955.

Burgh, W. G. de, The Legacy of the Ancient World. 2 vols. London and Tonbridge, 1955.

Carocpino, J., Daily Life in Ancient Rome. Aylesbury, 1956.

Cary, M., A History of the Greek World from 323 to 146 B. C. London, 1932.

Cary, M. and Haarhoff, T. J., Life and Thought in the Greek and Roman World. London, 1942.

Coulanges, Fustel de, La cité antique. Paris, 1910.

Cruickshank, A. M., Christian Rome. New York, 1911.

Dill, S.,

1 — Roman Society from Nero to Marcus Aurelius. London, 1937.

2 — Roman Society in the Last Century of the Western Empire. New York, 1960.

Duruy, V., Histoire des Romains depuis les temps les plus reculés jusqu'a l'invasion des Barbares. 7 vols. Paris, 1882—1900.

Finlay, G., History of Greece from its Conquest by the Romans to the Present Time (B. C. 146 to A. D. 1864). New ed. by H. F. Tozer. 7 vols. Oxford, 1877.

Fowler, W. W.,

1 — Social Life at Rome in the Age of Cicero. London, 1908.

2 — Rome. Revised by M. P. Charlesworth. London, 1957.

Gardner, E. A., Ancient Athens. New York, 1907.

Glotz, G., The Greek City and its Institutions. London, 1929.

والكتاب مزود بقائمة قيمة بالمصادر الأصلية والموسوعات والمراجع العامة.

Glover, T. R., The Ancient World. London, 1953.

Grote, G., A History of Greece from the Time of Solon to 403 B. C. ed. by J. M. Mitchell and M. O. B. Gaspari. London, 1930.

Hartmann, L.M., Ein Kapitel vom spätantiken und frühmittelalterlichen Staate. Stuttgart, 1913.

وهو العنوان الأصلى لبحث هارتمان الذى قمنا بنقله إلى العربية فى هـذا الكتاب ؛ وفيه عرض دقيق لأوجه الخلاف بين الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق وبين ممالكتى الفرنجة واللبارديين فى الغرب .

Hirschfeld, O., Die kaiserlichen Verwaltungsbeamten bis Diokletian. 1905.

Holmes, T. R., The Roman Republic and the Founder of the Empire. 3 vols. Oxford, 1923.

Homo, L., Roman Political Institutions from City to State. London, 1929.

وهو من المراجع العامة فيما يتعلق بالأنظمة السياسية عند الرومان .

Jardé, A., The Formation of the Greek People. London, 1926.

Jones, A. H. M.,

1 — The Greek City from Alexander to Justinian. Oxford, 1940.

2 — The Later Roman Empire. 3 vols. & maps. Oxford, 1964.

Kaemmei, O., Rom und die Campagna. Leipzig, 1902.

Kitto, H. D. F., The Greeks. London, 1954.

وقد قام بترجمته إلى العربية تحت اسم « الاغريق » عبد الرازق يسرى ، وراجعه الدكتور محمد صقر خفاجة (القاهرة ١٩٦٢) .

Leclerq, A. B., Manuel des institutions romaines. Paris, 1931.

Lot, F., La fin du monde antique et le début du moyen âge. Paris, 1927.

Marsh, F. B., A History of the Roman World from 146 to 30 B. C. London, 1934.

Michelet, J., Histoire de la république romaine. Paris, 1866.

Myers, J. L., Who were the Greeks? California, 1930.

Niebuhr, B. G., The History of Rome. 5 vols. London, 1837—44.

Paul—Louis, Ancient Rome at Work: An Economic History of Rome from the Origins to the Empire. London, 1927.

Ridgeway, W., The Early Age of Greece. 2 vols. Cambridge, 1931.

Robinson, C. E., A History of Greece. London, 1945.

Rostovtzeff, M.,

1 — The Social and Economic History of the Roman Empire. Oxford, 1926.

2 — The Social and Economic History of the Hellenistic World. 2 vols. Oxford, 1941.

3 — A History of the Ancient World. Trans. from the Russian by J. D. Duff. 2 vols. Oxford, 1936—38.

Sandys, J., Aristotle's Constitution of Athens. London, 1893.

Scullard, H. H., A History of the Roman World from 753 to 146 B. C. London, 1935.

Showerman, G., Eternal Rome : The City and its People from the Earliest Times to the Present Day. 2 vols. New Haven, 1924.

Syme, R., The Roman Revolution. Oxford, 1939.

Tomassetti, G., La Campagna romana antica, medioevale e moderna. 4 vols. Rome, 1910—26.

Tucker, T. G.,

1 — Life in Ancient Athens. London, 1907.

2 — Life in the Roman World of Nero and St. Paul. London, 1910

Whibley, L, Greek Oligarchies : Their Character and Organisation. Cambridge, 1913.

الفصل الثانى

الدولة البيزنطية

تكشف المصادر التى تحت أيدينا ، اعتبارا من وثيقة « التعريف بالرتب »[١] Notitia dignitatum التى ترجع إلى أوائل القرن الخامس ، حتى كتابات الامبراطور قسطنطين بورفيروجنيتوس [٢] فى القرن العاشر ، عن تطور الدولة

---

(١) هذه الوثيقة غير معروف تاريخها بالضبط . وهى تتحدث عن نظام الأقاليم فى الإمبراطورية البيزنطية بعد عصر دقلديانوس . ويمكن القول بأنها عبارة عن قائمة رسمية بوظائف البلاط وغيرها من الوظائف والرتب المدنية والعسكرية . كما أنها تشمل بيانا بالأقاليم المختلفة . وهى تشير إلى التغييرات التى طرأت على نظام إدارة الأقاليم الذى أدخله خلفاء دقلديانوس ، وكذلك عدد الأقاليم ، مع سرد للوقائع والأحداث فى أوائل القرن الخامس . ومن هنا يرى البعض أن تاريخ الوثيقة المذكورة يرجع إلى القرن الخامس . أنظر A. A. Vasiliev, Hist. of the Byzantine Empire (1961), 1, 63. وقد قام الأستاذ جونز بنشر هذه الوثيقة مع دراستها والتعليق عليها فى كتابه : A. H. M. Jones, The Later Roman Empire (1964), vol. III, Appendix II, 347 - 80. المترجم .

(٢) يعرف باسم قسطنطين السابع . شغل الوظيفة الامبراطورية فى بيزنطة من سنة ٩١٣ إلى سنة ٩٥٩ . وكان فى السابعة من عمره عندما توفى أبوه ليو السادس ، فتولى شئون الدولة أثناء قصوره مجلس من الأوصياء . وكانت البلاد فى فترة الوصاية التى امتدت من سنة ٩١٣ إلى سنة ٩٤٤ مسرحا للفوضى والاضطرابات ، عندما انصرف المتآمرون إلى تدبير المؤامرات للوصول إلى الحكم . وتسلم قسطنطين الحكم اعتباراً من سنة ٩٤٤ . ولكنه لم يكن صالحا للوظيفة الامبراطورية ، إذ انصرف إلى الكتابة والتأليف تاركا أمور الدولة لزوجته الامبراطورة هيلانة . ومما يذكر عنه أنه وجه اهتماما كبيراً إلى شئون العلم والتعليم ليس فى القسطنطينية فقط ، وإنما فى الأقاليم كذلك . ومن مؤلفاته التى خلفها لنا « كتاب الأقاليم » أو « المناطق العسكرية » ، وكتاب « تنظيم الإدارة فى الامبراطورية » ، وآخر عن حياة =

البيروقراطية فى بيزنطة (١) إلى أن بلغت ذروتها . فأن يكون امبراطور ما مؤلفا غزير المادة وحجة رائدة فى هذا الميدان ، إنما هو دلالة واضحة تمام الوضوح على الطابع الذى تميزت به الحضارة البيزنطية (٢) .

= جده بازيل المقدونى ، وكتاب باسم «مراسم القصور» . انظر عن ذلك :
Baynes and Moss, op. cit., 230-1; Hussey, op. cit., 169 — 70; Diehl, L'empire byzantin, 94. ــ وكذلك السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (١٩٦٠) ، ص٣٤٤ وما بعدها . المترجم .

(١) المقصود بالبيروقراطية البيزنطيــة الجهاز الحكومى الضخم الذى كان يتولى إدارة شئون الامبراطورية فى الداخل والخارج ، مع تهيئة وسائل الأمن والاستقرار لها ، وتنظيم سبل الدفاع عنها . وكان هذا الجهاز معقدا متشابكا محكما ، باهظ النفقات ، يستلزم إيراداً ضخما للدولة . وكان على رأسه الامبراطور الذى استغرقت واجباته ومهام الحكم ومسئولياته كل وقته . ويليه أعيان الامبراطورية وموظفوها مرتبين ترتيبا دقيقا حسب منزلتهم ودرجاتهم. وكان بالإمبراطورية ألقاب غــير وراثية تمنح حاملهــا أسبقية فى المجتمع ولا تحمله واجبات . وهنالك أيضا ألقاب تشريف . هذا ، بينما كانت معظم الوظائف الكبرى فى الدولة تحمل معها رتبة معينة . ولم تظل هذه الرتب والوظائف ثابتة ، ولكنها كانت تتغير على مر القرون التى عاشتها الإمبراطورية . وهناك ثلاث وثائق تاريخية معاصرة للعصر البيزنطى أمكن عن طريقها تكوين فكرة إجمالية عن النظام الادارى البيروقراطى فى بيزنطة ؛ إحداها من القرن الخامس وهى الوثيقة المعروفة باسم « التعريف بالرتب » ، والثانية ترجع إلى أوائل القرن العاشر وعنوانها « كليتيرولوجيوم Cleterologium » من تأليف فيلوثيوس ، والثالثة ترجع إلى القرن الرابع عشر وهى خاصة بالوظائف « De officiis » وتنسب خطأ إلى كودينوس Codinus . وكيفما كان الأمر فقد كان الطابع الغالب على الامبراطورية هو جعل الوظائف الرسمية مناصب شرف ، مع العمل على صبغ الإدارة بصبغة بيروقراطية . وللمزيد من التفاصيل عن النظام الإدارى وعن الوظائف والألقاب وما يتبعها ، أنظر رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص٨٨ وما بعدها؛ وكذلك Baynes & Moss, Byzantium, 280 ff.; Runciman, Byzantine Civilisation, 81. ــ المترجم .

(٢) يتناول كتاب Byzantium : An Introduction to East Roman Civilization, edited by Norman H. Baynes and H. St. L. B. Moss (1948). ، مختلف مظاهر تلك الحضارة ، وهو مــذيل بالمراجع النافعة المفيدة . المؤلف ــ أنظر كذلك قائمة المراجع المذيل بها هذا الفصل . المترجم .

وقد أدرج قسطنطين فى كتيبه الخاص بإدارة الدولة أسماء الموظفين التابعين لسلطـــة أعلى فى كل قسم من الاقسام تحت عنوان « تحت الطلب » « sub dispositione » . وتدل هاتان الكلمتان على جوهر تلك القوى فى الإمبراطورية البيزنطية ، التى تميزت بعدائها الشديد للاستقلال المحلى . وقد كشفت عن نوع من التفكير الذى ربط الدولة بنظـام سلم تصاعدى للموظفين الرسميين . وكانت القاعدة الاقتصادية للدولة البيزنطية هى الضرائب التى حلت منذ إصلاح دقلديانوس (١) محل الدومين الامبراطورى بوصفها المصدر الرئيسى للدخل العام. وكانت الدولة تحصل على الدخل من الرسوم ، وعن طريق نظام للضرائب يختلف تبعـا لنوع العمل والحـالة الاقتصادية للمواطنين فى المدن والبلدان (٢) . ولقد جندت الدولة جيشا نظاميا ، وجهزته بكل ما يلزمه من عدة وعتاد . كما شيدت حصونا واستحكامات دائمة ، وقامت بالمحافظة عليها . وشيدت كذلك سفنا حربية ، وأبقت عليها فى حالة جيدة ، وزودتها بأطقم من البحـارة . وتم بهذه الوسيلة إرساء كل الخدمات العامة ، من حيث الكم والكيف ، على قاعدة شبه دائمـة ،

---

(١) وجه دقلديانوس اهتماما خاصا إلى الناحية الاقتصادية المتدهورة فى الإمبراطورية ، فعمل على تثبيت العملة . ولـكن محاولاته فى هـــذا الصدد لم تصادف النجاح المأمول . فلم يستطع إرجاع قيمة العملة إلى ما كانت عليه أيام الإمبراطور أوغسطس . وأدى إسرافه فى محاولاته إصدار عملة خالصة العيار إلى ارتفاع الأسعار . ولمواجهة هذا الموقف أصدر دقلديانوس عام ٣٠١ قانونه المشهور الذى يحدد ثمن كل سلعة على حدة . ولم يصادف هذا القانون هو الآخر أى نجاح . وترك لخلفه قسطنطين الـكبير مهمـة وضع عملة الإمبراطورية على أساس ثابت . أنظر تشارلزوورث : الامبراطورية الرومانية ، ص ١٩٨ ، Ostrogorsky, op. cit., 34, 37—8; Runciman, Byzantine Civilisation, 22; Jones, Constantine and the Conversion of Europe, 4—5, 24—5. ـ المترجم.

(٢) يتعرض اندريـه م. اندرياديس André M. Andréadès فى كتاب Baynes and Moss, op. cit., 71—86. ، للمالية العامة وهى تتناول العملة والمصروفات والإيرادات العامة والميزانية .

وأصبحت فى غنى عن أية معاونة عارضة كما كان يحدث فى الغرب عندما يهب الرعايا لتلبية نداء السيد اللورد عند الضرورة (١) . وكثيرا ما يبدو للزائر القادم من الغرب كما لو أن الامبراطور البيزنطى قد احتكر التجارة كلها، وجمع كل الأرباح الناتجة عنها فى خزانته الخاصة . ومع أن تقرير البرت الآخى (٢) Albert of Aachen القائل بأن خزانة الامبراطور لاسبيل إلى تفريغها مها بلغت النفقات (٣)

---

(١) يتصل هذا بالنظام الاقطاعي الذى ساد أوروبا فى العصور الوسطى . وهو يرتبط بالأرض ، وحضارته حضارة زراعية ريفية ، وقوامه العلاقة بين السيد والمسود . وكان التابع يتعهد لسيده المتبوع بالقيام بواجباته الإقطاعية بعد أن يحلف بين يديه يمين الطاعة والولاء ، حيث يعد بطاعته وحمايته والدفاع عنه ، وتلبية ندائه ، ومساعدته بالقتال فى صفوفه ضد أعدائه ، والاجتماع به من وقت لآخر للتشاور معه فى كل ما يهم السيد اللورد من الشئون ، مثل إعلان الحرب أو السلم أو عقد المعاهدات ، وهكذا . فضلا عن الالتزامات والقيود وواجبات التبعية العديدة المقررة على الفلاح . أنظر ج. و. كوبلاند و ب . فينوجرادوف : الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا (١٩٤٨) ، ص ٦٤ — ٦٥ ؛ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص٤٣ ـ ٦٢ ؛ ابراهيم العدوى: المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، ص ١١١ ـ ١٤٢ ؛ جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين (١٩٦٧) ، ص ٢١٩ ح ٢ ، راجع أيضا : C. Stephenson, Med. Feudalism (1942), 9—18 ; Downs, op. cit., 48 ff.; Heer, op. cit., 17—20. — المترجم.

(٢) البرت الآخى هو مؤرخ حملة جودفرى دوق اللورين السفلى من زعماء الحرب الصليبية الأولى . وكل ما نعرفه عنه أنه من مدينة اكس لاشابل (آخن) الألمانية . ويعتبر كتابه الذى ألفه باللاتينية تحت اسم « تاريخ بيت المقدس » من أفضل الوثائق التى كتبت عن الحملة الأولى وتاريخ مملكة اللاتين فى الأراضى المقدسة من سنة ١١٠٣ إلى ابريل سنة ١١٢٠ . أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ، ص ١١ ـ ١٣ والحواشى؛ السيد الباز العرينى : مؤرخو الحرب الصليبية (١٩٦٢) ، ص ٦٦ـ٩٨ ؛ M. Michaud, Bib. des Crois. (1822), I, 50 ff.; C. Cahen, La Syrie du Nord a l'époque des Crois. (1940), 12—3 & notes; S. Runciman, Hist. of the Crusades (1954), I, 331—2, 336, 340. المترجم .

(٣) Alberti Chronicon Hierosolymitanum De bello sacro, II, 16. وقد وضع هذا التاريخ عن الحروب الصليبية فى النصف الأول من القرن الثانى عشر . ويناقش ر. س. لوبيز R. S. Lopez فى مقالته « صناعة الحرير فى الامبراطورية =

إنما كان ضربا من المبالغة ، إلا أنه كثيرا ما كانت حالة بيزنطة المالية سيئة مرتبكة . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الحقيقة ماثلة ، إذ مكنت هذه المقدرة فى التنظيم المالى الامبراطورية الشرقيـــة من البقاء الف عام فى مواجهة هجمات السلاف والعرب (١) . كما أكد هذا التنظيم وذلك المركز المالى تفوق السياسة البيزنطية على ممالك الغرب الجديدة ، مع السماح لها بالتغلب على الكوارث والمحن التى حلت بها ، وبأن تضمن لنفسها لفترات طويلة مركزا مسيطرا فى عالم البحر الأبيض المتوسط . وقد عمد المؤرخون إلى تجاهل هذا التفوق ، لأنهم ركزوا اهتمامهم على تطور الغرب . ومع ذلك فقد كانت المفارقة فى الكيان السياسى بين

= البيزنطية « "Silk Industry in the Byzantine Empire", Speculum, XX, (1945), 1—42. موضوع التجارة التى تميز بوضوح طابع السياسة الاقتصادية فى بيزنطة نظرا لأهميتها التصديرية الفائقة .

(١) عمرت بيزنطة قرابة ألف عام بعد زوال الامبراطورية الرومانية القديمة . ولهذا أسبابه التى أدت إليــه ، ومن أهمها حصانة بيزنطة نفسها ومناعة عاصمتها القسطنطينية بصفة خاصة . ثم تميز أباطرتها بالدهاء والحكمة وبعد النظر . ويتضح هذا فى موقفهم من اللاتين والعناصر الجرمانية والعرب خلال القرون المتعاقبة التى عاشتهـا الإمبراطورية . وكذلك أستفادت الدولة البيزنطية من الأخطاء التى وقعت فيهـا الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فاستخدمت عناصر مختلفة فى جيوشها ضمانا لعدم توحيد كلمة الجيش تحت إمرة قائد واحد مما يعرض سلامة الدولة للخطر مثلما حدث فى الغرب . يضاف إلى ذلك عدم انغماس حكام بيزنطة فى اللهو والترف والملذات ، وتوجيه كل همهم إلى النهوض بدولتهم . وكان الدستور البيزنطى ، ونظامها الإدارى المحكم ، وسياستها المالية المتينة القائمة على الاقتصاد النقدى — كان لكل هذا أثره الفعال فى الإبقاء على الدولة طيلة هذه المدة . يضاف إلى ما تقدم عدة عوامل أخرى من أهمها شخصية الأباطرة البيزنطيين أنفسهم ، ووجود نظـــام ثابت للوراثة والوصاية فى الكرسى الإمبراطورى ، وتركيز السلطة الدينية والدنيوية فى شخص الامبراطور . كل هذه العوامل وغيرها أدت مجتمعة إلى بقاء الدولة أكثر من عشرة قرون من الزمان . أنظر عن ذلك Runciman, Byzantine Civlisation, 14 ff. ; Diehl, L'empire byzantin, 1-5; Hussey, op. cit., 11 ff. — ولا يخلو مرجع من مراجع التاريخ البيزنطى من الإشارة فى أحد أبوابه أو فصوله إلى أسباب قوة بيزنطة وصمودهـا أكثر من عشرة قرون أمام المحن والهزات التى تعرضت لها . المترجم .

كل من الشرق والغرب هى الصفة الغالبة فى القرون الوسطى المبكرة . ويكمن لغز الدولة البيزنطية ، التى ظلت قوة عظمى على الرغم من كل خسائرها الإقليمية ، فى تنظيمها الاقتصادى والاجتماعى ، إذ استطاع أقصى توسع اقتصادى بلغته بيزنطة تغذية شعب أكثر عددا . هذا ، بينما كان تنظيمها قادراً على جمع موارد الدخل ووضعها تحت تصرفها بصورة أقوى مما كان فى مقدور دول الغرب التى اعتمدت فى ذلك على الاقتصاد الطبيعى . وتحفل حوليات بيزنطة بالأخبار التى تتناول الدسائس التى كان يدبرها رجال البلاط ، والثورات التى كان القصر مسرحاً لها . بيد أنه فيما يختص بالحياة فى بيزنطة ، فقد ظل النظام الإدارى سارياً دون أن ينقطع (١). ولم تمس عوامل الاضطراب هذه الدولة المركزية إلا بصورة سطحية . وسارت عجلة الإدارة دون توقف ، بغض النظر عن الفريق الذى يدير دفة الحكم فى وقت من الأوقات . وقد امتدت دائرة نشاطها حتى شملت كل مناحى الحياة فيها . وكان ذلك كله ميسوراً مع مراعاة الإبقاء على سياسة الاقتصاد النقدى وما يترتب عليها ، ونعنى بذلك تقسيم العمل . إذ لم يكن بوسع الإدارة الامبراطورية القيام بأى عمل إلا فى شكل وحدة نزيهة منصفة . ذلك أن العمل الفردى لم يؤد إلى أية نتيجة مثمرة .

وتميزت الكنيسة البيزنطية ، التى ظلت دائما جزءا من الدولة ، بوضعها الخاص ، على الرغم من أهميتها الاقتصادية والثقافية . وكان من المتعذر قيامها بحركة استقلالية . فقد تدخلت أجهزة الدولة فى كل شىء ، ولم يكن ثمة مكان

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن النظام الإدارى فى الدولة البيزنطية ، أنظر : Runciman, Byzantine Civlisation, 81 — 107; Baynes & Moss, Byzantium, 268 — 307; Diehl, Byzance, 67 — 86. أنظر أيضا الترجمة العربية لكتابى رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٨٨ — ١٢٢ ؛ ن. بينز : الإمبراطورية البيزنطية (١٩٥٠) ، ص ١٤٥ — ١٦٦ . المترجم .

للاستقلال الكنسي . وكانت تلك الوظائف المدنية التي تولتها الكنيسة في غير هذا المكان(١) ، تحتفظ في الدولة البيزنطية بطابع الخدمات العامة(٢) . أما الاقطاعات الشاسعة وطبقة كبار ملاك الأرض ، فقد قاما في الحقيقة بدور هام في الشرق . وكانت هذه الظاهرة تقدر في بيزنطة بميزان المحافظة على طبقة الفلاحين التي نجحت [بفضل تشريع الحكومة المركزية] في التمسك [لعدة أجيال] (٣) باستقلالها عن رقابة صاحب الأرض ، وذلك على الرغم من صراع مرير طويل من أجل البقاء . وإلى جانب الشعب الريفي وسكان المدن الآهلة الذين يعملون في التجارة ، احتفظ كبار ملاك الأرض لأنفسهم دائما ببعض الأهمية . فاذا طبقنا اصطلاح « الاقتصاد الاقطاعي » « manorial economy » على تلك الجهات التي سادت فيها الاقطاعات الكبيرة ، وجب إدراك أهمية الفوارق بين أشكالها في كل من الشرق والغرب . إذ تطور التنظيم الزراعي في كلا الشقين ، منذ البداية ، في ظروف مختلفة متباينة . ففي الشرق الهلليني استمرت المدن بصفة دائمة العمود الفقري للتنظيم الاجتماعي . هذا ، بينما ظلت المسافات بين المدن « civitates » في الغرب اللاتيني واسعة ، بحيث كان ثمة متسع لتنمية اقتصاد زراعي بحت . ولم تحقق الإقطاعات الضخمة في الشرق مثل هذه الدرجة الكبيرة من العزلة الاقتصادية والاكتفاء الذاتي ، ولم تخصص لها وظائف عامة كما كان الحال في الغرب (٤) ،

---

(١) يقصد المؤلف الغرب . المترجم .

(٢) I. H. Hussey, Church and Learning in the Byzantine Empire, 867—1185 (1937), 22—116. — ويلقي هذا الكتاب ، على أقل تقدير ، بعض الضوء على الطابع العلماني الجوهري للتعليم العالي .

(٣) يقدم ج. استروجورسكي تحليلا لشخص متخصص في هذا الكفاح في مقالته G. Ostrogorsky, "Agrarian Conditions in the Byzantine Empire", The Cambridge Economic History, Vol. I, 204-23.

(٤) أنظر عن ذلك كولتون : عالم العصور الوسطى (١٩٦٧) ، ص ٧٣ ـ ٩٦ ؛ كوبلاندوفينوجرادوف: الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا، ص١٢٦ وما بعدها . المترجم .

وقامت بالتزاماتها العامةعن طريق دفع الضرائب. وكان قيام موظفى الامبراطورية بتحصيل الضرائب ، ولو أنهم لم يتصلوا اتصالا مباشراً بالمستأجرين من صاحب الأرض ، كافيا لنفى ادعاء الموظفين العموميين الذى يحصل بموجبه ملاك الأرض فى الغرب على قسط من السلطة العامة . وتبعا لذلك تأجل قيام نظام إقطاعى أصيل فى بيزنطة ، ولا يمكن تتبع آثاره فيها إلا إلى ما قبل الحرب الصليبية الأولى .(١)

وللتأكد من ذلك ، يبدو أن هناك أوجه شبه سطحية بين الاقطاع فى الدول الجرمانية وبين النظام العسكرى فى الامبراطورية الشرقية . ففى كلا الحالين ، كانت القوة الضاربة فى الدولة تقوم من الناحية الاقتصادية على تملك الأرض . هذا ، وبإقامة قوات الحاميات فى الشرق عند حدود الأقاليم بدأ التطور الذى استمر فى عهد الامبراطور جستنيان (٢) فى أواسط القرن السادس الميلادى ،

---

(١) Carl Neumann, La Situation Mondiale de l'Empire avant les Croisades, Paris, 1905. — وكان قد صدر الأصل الالمانى للكتاب المذكور سنة ١٨٩٤ ، وهو يصف اصطدام النصر النهائى للاقطاع بالوضع العسكرى والسياسى فى الدولة البيزنطية – المؤلف .

أنظر أيضا البحث القيم الذى كتبه هـ. كنتوروفيتش H. Kantorowicz وعنوانه « الإقطاع فى الإمبراطورية البيزنطية » فى كتاب R. Coulborn (ed.), Feudalism in History (1956), 151—166. المترجم .

(٢) حكم جستنيان من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ . وتميز عهده بمحاولاته إحياء الدولة الرومانية القديمة ، وذلك باستعادة الأراضى التى كانت قد استولت عليها قبائل البرابرة فى الغرب . وقد تمكن فعلا من ضم معظم الممالك الجرمانية إلى حكمه ، حتى أن المعاصرين له اعتقدوا أن الإمبراطورية القديمة قد تم إحياؤها من جديد . ولكن الحقيقة أن امبراطورية جستنيان لم تكن إلا شبحا للدولة القديمة التى كانت قد زالت فعلا فى أخريات القرن الخامس. ولعل أهم الآثار التى خلدت جستنيان ليست امبراطوريته ، وإنما مجموعة القوانين الرومانية التى قام بجمعها وتسجيلها . فضلا عن عنايته بالبناء والتعمير ، وأمور العلم والتعليم . أنظر ش. أومان : الامبراطورية البيزنطية (١٩٥٣) ، ص ٥٢ ـ ٨٨ ؛ السيد الباز العرينى : الدولة =

[وقام الامبراطور هرقل (١) باستكماله بعنـاية فى منتصف القرن السابع] (٢) . وعلى هذا الأساس قامت الوحدة الإدارية الجديدة تحت اسم « ثياماتا » (٣) ، أى الولايات الثغرية أو المناطق الإدارية العسكرية .

=البيزنطية (١٩٥٣)،ص ٥٦ وما بعدها ؛ كذلك Diehl, L'Empire Byzantin, 21 ff.; Ostrogorsky, op. cit., 63 ff.; Barker, op. cit., 54 ff. المترجم .

(١) جلس هرقل عـلى العرش البيزنطى من سنة ٦١٠ إلى سنة ٦٤١ . وكانت الإمبراطورية وقت توليه الحكم مرتعا للفوضى والفساد فى الداخل والخارج . فى الداخل كانت بيزنطة قد أقفرت تماما ، أما فى الخارج فقد كانت الأخطار تهددها من ناحية الآفار والسلاف والفرس . ويتميز حكمـه بالكفاح المنيف بينه وبين الفرس الذى انتهى بفتح الفرس للشام ومصر ، ثم الحروب المضادة التى قام بها هرقل داخل بلاد الفرس وانتصاره عليهم . ولم يقدر لهذا النصر أن يدوم طويلا ، إذ قام العرب بفتوحاتهم فى أواسط القرن السابع ، وانتهى الأمر بالاستيلاء على الشام ومصر من الدولة البيزنطية . وفى مارس ٦٤١ توفى هرقل، وبموته انكمشت بيزنطة فى آسيا الصغرى والبلقان وولاية افريقية وصقلية . أنظر ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية (١٩٥١) ، ص ٣٦ وما بعدها ؛ السيد الباز العرينى : المرجع السابق ، ص ١٠٢ وما بعدها . راجع أيضا Ostrogorsky, op. cit., 83-100; Hussey, op. cit., 24-6; Diehl, op. cit., 49-54. المترجم .

(٢) يبدو أن البحث الحديث قد حدد تاريخ هذا الاصلاح العظيم فى الناحيتين الاجتماعية والادارية ، مما جعل عودة الأيسوريين أمرا ممكنا ، كما كان الحال فى القرن السابع . أنظر Ostrogorsky, Cambridge Economic History, 1, 196-204. — وقد أوضح هذا التحول ، للمرة الأولى والأخيرة ، أن بيزنطة كانت فى العصور الوسطى أكثر من بقاء وامتداد للعالم القديم .

(٣) يعرف نظام « الثيماتا » بنظام الولايات الثغرية أو المناطق الإدارية العسكرية أو ألوية الثغور . ويرجع هذا النظـام إلى أواخر القرن السادس وخلال القرن السابع عندما أصبحت بيزنطة مرتعا للفوضى والاضطرابات ، مما استلزم البحث عن تنظيم جديد لها . وكان جستنيان قد فكر من قبل فى منح السلطات العسكرية لحكام المقاطعات ، حتى أنه عندما أعاد فتح افريقية عين لها رجلا يجمع بين السلطة العسكرية وسلطة حاكم الولاية . وبالمثل كان الوالى الذى عينه فى ايطاليا موظفا عسكريا له سلطات مدنية . وعلى أية حال ، فان تعيين مثل هؤلاء الموظفين الذين كانوا يجمعون فى قبضتهم السلطتين المدنية والعسكرية ، كان يتم بالنسبة للمقاطعات=

ولما كان كبار القادة الذين يتمتعون بالسلطة والنفوذ على الجند الفلاحين يتقاضون أجورا مرتفعة ، كما كان يسمح لهم بمغادرة العاصمة ، فقد أصبحوا فى الحال حكاما إقليميين ، يشرف كل منهم على أحد الأقاليم . وليس هناك ماهو أفضل من ذلك فى التعبير عن الدور الحيوى الذى أداه التنظيم العسكرى فى الإدارة المدنية . وليس لهذا التطور أى دلالة عند المقارنة بين كل من النظم البيزنطية ونظم الغرب الجرمانى . ولم يكن الفلاحون المجندون ، المدونة أسماؤهم ومتعلقاتهم فى سجلات رسمية ، على صلة بالاقطاعيات الكبرى . إذ حرم كبار ملاك الأرض ، من حيث المبدأ ، من الانخراط فى سلك الجندية . أما الجندى وأسرته ، فقد كانوا يعيشون بطبيعة الحال على ماتغله مزرعتهم . وكان الجندى يتقاضى فى فترات الخدمة العسكرية مبالغ إضافية نقدا ، كما كان يأخذ معاشا من الدولة . وهكذا ، لم تشكل الكتائب الإقليمية التابعة للامبراطورية البيزنطية [وهى عبارة عن كتائب مدربة على التقشف والخشونة بمعرفة جماعة من الجند المحترفين مقابل أجر يتقاضونه على عملهم] ، جماعات من الجند المرتزقة

= المعرضة لخطر الحرب أو الغزو . وقد أثبتت حروب بيزنطة مع كل من الفرس والعرب فى القرن السابع أنه لم تعد هناك مقاطعة واحدة بمنأى عن الخطر . وعلى هـذا فقد كان من الضرورى أيضا جعل آسيا الصغرى ، باعتبارها قلب الامبراطورية ، فى حالة دفاع دائم . وأصبح مألوفا إنزال ألوية معينة من الجند فيها ، وهى التى عرفت باسم « ثيماتا » ، وذلك بصفة دائمة فى أقاليم معينة . وكان قائد اللواء يمنح سلطات مدنية على سكان الناحية التى يتولى شئونها . و بمرور الزمن تحول الإسم ، فأصبحت الأقاليم نفسها تعرف فى مجموعها باسم « ثيماتا » ، أى الألوية بمعنى المناطق العسكرية . وصارت كل منها تحمل إسم فرقتها الخاصة النازلة بها . واستمر هذا النظام معمولا به حتى أواخر عهد الدولة البيزنطية . ومبكرا فى القرن العاشر كان يوجد فى بيزنطة ثلاثون ثيماتا ، منها ١٨ ثيماتا فى آسيا الصغرى و١٢ فى القطاع الأوروبى — أنظر رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٩٧ وما بعدها ؛ ن. بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٧١ — ١٧٤ ؛ شارل أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٣١ — ١٣٢ ؛ وكذلك **Baynes, Byzantine Studies, 62-3; Ostrogorsky, op. cit., 74, 87 ff.** المترجم .

الذين ظلوا فى الواقع يتمتعون باستقلالهم فى بيزنطة [وبخاصة بوصفهم حرس إمبراطورى حول العاصمة] . ولم تشكل تلك الكتائب كذلك « شعبا تحت السلاح » ، كما أنها لاتمت بصلة إلى تجمع رجال لأداءواجبالخدمة الاقطاعية. (١) ولم تؤد الرقابة العسكرية فى الأقاليم ، والتى جاءت كنتيجة للتنظيم الإدارى الجديد ، إلى قيام نظام إقطاعى ؛ وإنما كانت تعنى أنها مجرد خطوة نحو تحقيق التوازن بين الفرعين المدنى والعسكرى [أو البحرى] لبيروقراطية واعية . هذا ، وقد ظل طابع الإدارة المركزية كما هو دون أى مساس (٢) .

(١) فيما يتعلق بنظـام الجيش والاسطول ، أنظر Steven Runciman, Byzantine Civilization (1932), 136—55.

(٢) يحتوى كتاب فرديناند لوت على ملخص لتلك الأحداث جدير بالاطلاع عليه . أنظر F. Lot, The End of the Ancient World, The Beginning of the Middle Ages (1931).

بعض المراجع للفصل الثانى

Aussaresses, F., L'armée byzantine à la fin du VI siècle, d'après le Strategicon de l'empereur Maurice. Bordeaux, 1909.

Bailly, A., Byzance. Paris, 1939.

Barker, E. (ed.), Social and Political Thought in Byzantium from Justinian to the Last Palaeologus. Oxford, 1957.

Baynes, N. H.,

1 — The Byzantine Empire. London, 1939.

2 — Byzantine Studies and Other Essays. London, 1960.

Baynes, N. H. and Moss, H. St. L. (eds.), Byzantium : An Introduction to East Roman Civilization. Oxford, 1953.

Bloy, L., Constantinople et Byzance. Paris, 1917.

Boak, A. E. R., The Master of the Offices in the Later Roman and Byzantine Empires. New York, 1919.

Bréhier, L., Le monde byzantin. 3 vols. Paris, 1947—50.

يتناول لويس بريه فى الجزء الأول تاريخ بيزنطة السياسى ، وفى الجزء الثانى النظم البيزنطية ، وفى الجزء الثالث الحضارة البيزنطية .

Bury, J. B.,

1 — A History of the Later Roman Empire (395-800 A. D.), 2 vols. New York, 1889.

2 — The Constitution of the Later Roman Empire. Cambridge, 1910.

3 — The Imperial Administration System in the Ninth Century, with a Revised Text of the Kletorologion of Philotheos. London, 1911.

4 — A History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I (A. D. 802—867). London and New York, 1912.

5 — History of the Later Roman Empire from the Death of Theodosius I. to the Death of Justinian. 2 vols. London, 1923.

Diehl, C.,

1 — Etudes sur l'administration byzantine dans l'exarchat de Ravenne (568—751). Paris, 1888.

2 — Justinien et la civilisation byzantine au VIe siècle. Paris, 1901.

3 — Etudes byzantines. Paris, 1905.

4 — Dans l'orient byzantin. Paris, 1917.

5 — Byzance : grandeur et décadence. Paris, 1919. English Trans. Byzantium : Greatness and Decline, 1957.

6 — Une république patricienne, Venise. Paris, 1916.

7 — Histoire de l'empire Byzantin. Paris, 1920.

8 — Figures byzantines. 2 vols. Paris, 1925, 1927. Translated by H. Bell as "Byzantine Portraits", New York, 1927.

9 — Les grands problèmes de l'histoire byzantine. Paris, 1943.

وتعتبر مؤلفات كل من بيورى وشارل ديل من أفضل ما كتب عن العصر البيزنطى وحضارته ، ولا تزال تحتفظ بقيمتها حتى اليوم .

Dölger, F., Beiträge zur Geschichte der byzantinischen Finanzverwaltung, besonders des 10 und 11 Jahrhunderts. Leipzig—Berlin, 1927.

Dunlap, J. E., The Office of the Grand Chamberlain in the Later Roman and Byzantine Empires. New York, 1924.

Finlay G., History of the Byzantine Empire, from DCCXVI to MLVII. New York, 1906.

Foord, E. A., The Byzantine Empire : The Rearguard of European Civilization London, 1911.

وهو كتاب غير واف بالغرض المطلوب منه .

Gelzer, H., Byzantinische Kulturgeschichte. Tübingen, 1909.

Gfrörer, A. F., Byzantinische Geschichten. 3 vols. Graz, 1872—77.

Grenier, P., L'empire byzantin, son évolution sociale et politique 2 vols. Paris, 1904.

Guerdan, R., Byzantium. 1949.

Harrison, F., Byzantine History in the Early Middle Ages. London, 1900.

Hesseling, D. C., Essai sur la civilization byzantine. French Trans. with a Preface by G. Schlumberger. Paris, 1907.

Hussey, J. M.,

1 — Church and Learning in the Byzantine Empire, 867-1185. London, 1937.

2 — The Byzantine World. London, 1957.

Hutton, W. H., The Church in the sixth Century. London, 1897.

Krumbacher, K., Geschichte der Byzantin. 1958.

Le Beau, C., Histoire du Bas—Empire. New ed. by St. Martin. 21 vols. Paris, 1824—36.

Macri, C. M., L'organisation de l'économie urbaine dans Byzance sous la dynastie de Macédonie, 867—1057. Paris, 1925.

Neumann, C., Die Weltstellung des byzantinischen Reiches vor den Kreuzzügen. Leipzig, 1894.

وتوجد له ترجمة بالفرنسية فى مجموعة «R.O.L., X, 1905.»

Oman, C., Story of the Byzantine Empire. New York, 1892.

Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey. Oxford, 1956.

والكتاب مقدم له بقائمة قيمة خاصة بمصادر ومراجع ودوريات التاريخ البيزنطى.

Pargoire, J., L'église byzantine de 527 à 847. Paris, 1905.

Rambaud, A., Etudes sur l'histoire byzantine. Paris, 1912.

Roth, K., Geschichte des byzantinischen Reiches Leipzig, 1904.

Runciman, S., Byzantine Civilisation. London, 1948.

Schlumberger, G.,

1 — L'épopée byzantine à la fin du dixième siècle. 3 vols. Paris, 1896—1905. New ed. of vol. I, 1925.

2 — Recits de Byzance et des croisades. Paris, 1917.

3 — Un empereur byzantin au Xe Siècle : Nicéphore Phocas. Paris, 1923.

Sesan, V., Kirche und Staat im römisch—byzantinischen Reiche seit Konstantin dem Grossen bis zum Falle Konstantinopels. Czernowitz, 1911.

Stewart, C., Byzantine Legacy. London, 1959.

Stöckle, A., Spätrömische und byzantinische Zünfte. Leipzig, 1911.

Tozer, H. F., The Church and the Eastern Empire. London and New York, 1904.

Vasiliev, A. A., History of the Ryzantine Empire. 2 vols. Madison, 1961.

Woodward, E. L., Christianity and Nationalism in the Later Roman Empire. London, 1916.

أنظر أيضا الجزء الرابع من « تاريخ كمبريدج للعصور الوسطى » ، ففيه قوائم ممتازة بمراجع التاريخ البيزنطى .

الفصل الثالث

الدول الجرمانية فى الغرب

للدول الجرمانية فى الغــــرب كيانها الذى يختلف اختلافا تاما عن الدولة البيزنطية . وهناك شكل واحد للدولة وهو نتاج غير ثابت لهجرات البرابرة ، ويتمثل هذا الشكل أصدق تمثيل فى دولة القوط الشرقيين أيام ثيودوريك (١) . وقد احتفظت كل من طبقة المحاربين الجرمان وطبقة المدنيين الرومان بنظامها الخاص بهـا . وبقيت البيروقراطية الرومانية على حالها دون تغيير . كما بقى القوط الشرقيون كجند مرتزقة ، ولم يؤثر وجودهم على الـكيان الاجتماعى أو

---

(١) فى أخريات القرن الخامس الميلادى سقطت الإمبراطورية الرومانيــة القديمة إثر هجمات البرابرة عليها ، وتأسيس ممالك لهم على أنقاضها . وقــد استقر القوط الشرقيون فى ايطاليا عندما نزلوا فيهـا سنة ٤٨٩ بقيادة ملـكهم المعروف ثيودوريك . وكانت ايطاليا آنذاك تحت حكم جندى آخر من المتبربرين اسمه أدواكر Odoacer . ولم يلبث أن تخلص ثيودوريك من منافسه ، وانفرد دونه بالحـكم . وحكم ثيودوريك ٣٣سنة (٤٩٣–٥٢٦) . وكان متسامحا محبوبا من الجميع . ومما يذكر عنه أنه سمح للتقاليد الرومانية القديمــة بالبقاء جنبا إلى جنب مع نظم الجرمان المتبربرين . إذ كانت الحضارة والأنظمة الرومانية فى نظره بمثابة مثل أعلى يجب الاقتداء به . واستخدم كثيرا من الرومانيين فى إدارة شئون الحـكم . ومن أهم من استوزرهم الفيلسوف بيوثيوس والمؤرخ كاسيودورس . وبعد موته تربع على عرش ايطاليا عدد من الأمراء الضعاف الذين لم يستطيعوا الاحتفاظ باستقلال مملـكتهم المتبربرة الناشئة أمام كتائب الدولة البيزنطية التى بعث بها الامبراطور جستنيان فى النصف الأول من القرن السادس بقصد استعادة ايطاليا وضمها إلى أملاك امبراطوريته . وهكذا انتهى الأمر بانهيار دولة القوط الشرقيين فى ايطاليا بعــد حوالى ٦٠ سنة من تأسيسها . أنظر لانجر : موسوعة تاريخ العالم ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ ، ؛ LaMonte, op. cit., 45—6, 53—7 ; Cantor, op. cit., 73—6; Katz, op. cit., 110, 114, 115,

نجم .

خريطة رقم (٢)

بحر الشمال
ايرلنده
انجلترة
مملكة الفرنجة
السلاف
ميلان
رافنا
روما
مملكة القوط الغربيين
مملكة الوندال
البحر الابيض المتوسط
القسطنطينية
الاسكندرية
الامبراطورية الرومانية الشرقية
دولة الفرس

الامبراطورية الرومانية الشرقية وممالك الجرمان البرابرة (حوالى سنة ٥٠٠)

السياسى القائم . وقد أدى ذلك إلى وجود نوع من الحياة يماثل طريقة الحياة عند الرومان . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أهملت الرواية المتعلقة بالبرابرة المستقرين فى الغرب بوصفهم جندا مرتزقة فى الامبراطورية . ولم يلبث أن اتخذ نظام الدولة شكلا جديدا يختلف تماما عما عرف من قبل . وفى هذه الحالة كنا نشاهد الشعب المنتصر ، كما هو الحال بالنسبة للباردبين فى إيطاليا (١) وهو ينتزع أملاك الطبقة الرومانية الحاكمة ؛ أو كما فعل الفرنجة فى غالة (٢) وهم يتمثلون ببقايا الأرستقراطية القديمة صاحبة الأرض . وفى

---

(١) اللبارديون من الأجناس الجرمانية الوافدة من المناطق الشمالية ، والتى نزلت فى عهد متأخر داخل حدود الدولة الرومانية القديمة . فى سنة ٥٦٨ قادهم ملكهم المسمى البوين Alboin عبر الألب إلى سهول ايطاليا الشمالية . وقد بدا الخلاف واضحا بينهم وبين القبائل المتبربرة الأخرى التى سكنت فى تلك الجهات مثل القوط الشرقيين والجرمان عموما . فقد كان اللبارديون يفضلون المعيشة فى المدن على الإقامة فى السهول المزرعة . وبمرور الزمن زال ملكهم ، واندمجت البقية الباقية منهم فى أهل البلاد . وسهل عملية الامتزاج هذه اعتناقهم المذهب الكاثوليكى ، فاحتضنتهم البابوية وكنيسة روما اللاتينية . ومما يذكر أن اللباردبين قد تركوا اسمهم على سهول ايطاليا الشمالية حتى اليوم . وقد دام ملكهم قرابة قرنين من الزمان (٥٦٨ ـ ٧٧٤) ، وكان أول ملوكهم هو البوين وآخرهم يدعى دزيدريوس Desiderius. أنظر C. G. Crump & E. F. Jacob, The Legacy of the Middle Ages (1951), 442; Katz, op. cit., 118; Sullivan, op. cit., 64—6; Shorter Camb. Med. Hist. (1952), 1, 201—2, المترجم .

(٢) الفرنجة جنس جرمانى كانوا يعيشون أصلا فى أواسط أوروبا . وعندما اشتد الضغط عليهم من الشرق نزحوا من أوطانهم ، وعبروا نهر الراين حيث استقروا غربا فى غالة . وأسسوا لهم مملكة ثابتة استمرت من أخريات القرن الخامس حتى أواسط القرن الثامن ، وعلى أساسها قامت دولة فرنسا التى كان لها شأن عظيم ليس فى التاريخ الوسيط فقط وإنما فى التاريخ الحديث أيضا . ومن أشهر ملوك الفرنجة كلوفيس Clovis (٤٨١ ـ ٥١١) مؤسس الأسرة الميروفنجية فى أوائل القرن السادس . ولكن تعاقب على الحكم بعد موته عدد من الحكام الضعاف ، الأمر الذى ترتب عليه اشتداد ساعد وزراء القصر فى العهد الميروفنجى ، وقيام المنافة فيما بينهم على السيادة والسلطان . وكان على رأس هؤلاء =

كلا الحالين حل محـــل الدولة الرومانية غرس جديد (١). أما البيروقراطية الرومانية فقد انهارت [أو تفـككت] (٢) . ولم يكن هناك أى تدخـل رسمى يعوق نمو الاقطاعيات أو تطورها فى المستقبل (٣). ولم تمس هذه الاقطاعيات، حتى أنها شكلت الوحدة الأساسية للنظام الاقتصادى والاجتماعى . فقد أقيمت الدولة الجديدة على أساس اقتصادى طبيعى بدائى . إذ عاد إلى الظهور التقسيم القديم بين المحاربين الأحرار وبين الشعب العـامل غير الحر . وتقدم لنا مملـكة اللباردیین مثلا طيبا لذلك . فقد كان كل لباردى رجلا حرا وصاحب أرض . فضلا عن أنه كان يعيش من إقطاعاته الخاصة ، حتى فى أثناء الخدمة التى يؤديها للدولة كجندى أو فى أى عمل آخر . ولم يـكن ثمة مكان للمرتزقة ، لأنه كان لزاما

= شارل مارتل وبين القصير الذى بادر فى أواسط القرن الثامن بنقل التاج من آخر الملوك الميروفنجيين العاطلين وهو شيلدريك الثالث إلى الأسرة الـكارولنجية . أنظر لانجر : نفس المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ — ٤٠٧ وكذلك LaMonte, op. cit., 38—9, 46—7, 65—6, 153—5; Sullivan, op. cit., 39—42; Katz, op. cit., 108. — المترجم .

(١) حول انهيار المدنية القديمة والأسباب التى أدت إليـــه ، أنظر Rostovtzeff, Rome, 309—24. — المترجم .

(٢) H. Pirenne, Mohammed and Charlemagne (1939), 136-39, 265 ff. — ويحلل بيرين فى كتابه المذكور الوسائل التى أدت إلى اختفاء طبقة الإداريين العلمانيين فى أواخر العصر الميروفنجى . (المؤلف) . أنظر بحث روبرت س. لوبيز الذى تناول فيه كتاب بيرين المذكور بالنقد والدراسة والتحليل ، وعنوان البحث «محمد وشارلمان : إعادة نظر » نشر فى مجلة Speculum ، العدد ١٧ ، سنة ١٩٤٣ . وقد قام الاستاذ توفيق اسكندر بترجمته إلى العربية ضمن مجموعة بحوث قام بتعريبها فى كتاب باسم « بحوث فى التاريخ الاقتصادى » القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٠١ — ١٤١ . المترجم .

(٣) أنظر بحث جوزيف ر. شترایر Joseph R. Strayer عن الاقطـاع فى غرب أوروبا فى كتاب Coulborn (ed.), Feudalism in Hist., 15-25. المترجم .

على كل رجل حر أداء الخدمة العسكرية . ولم تكن الحكومة فى مركز يسمح لها بأن تدفع للجند النظاميين من خزينتها . هذا ، وقد زالت ضريبة الأرض القديمة التى كانت أساس المالية الرومانية ، والتى استمرت فى مملكة القوط الشرقيين . لقد اعتبر المحارب الجرمانى الضريبة المباشرة أمرا مخالفا لوضعه السابق كرجل حر . وكان ذلك هو الواقع لحياة تخضع لظروف اقتصادية طبيعية، حيث كانت مثل هذه الضريبة أبعد ما يكون عن التفكير فيها (١) . ولذلك ظلت هذه الخدمات الرومانية العسكرية قائمة فقط حيث كانت الحاجة ماسة إلى خدمات فردية ، من قبيل العمل الاجبارى فى إقامة الاستحكامات وتشييد الطرق أو الكبارى . وإذا كانت رسوم الأسواق والجمارك قد ظلت هى الأخرى قائمة ، فذلك لأن الأعمال الاقتصادية التى تعكسها كانت تنطوى على مخالفة صريحة ، بالنسبة للكفاية الذاتية للاقتصاد الخاص بشئون الاقطاعيات . ومن ثم كان على الدولة ، أى كان على الملك أن يعيش بصفة أساسية على إقطاعاته الخاصة مثلما فعل فى العصر الهومرى (٢) . وينطبق ذلك على مملكة الفرنجة . كما يتضح بصفة خاصة فى الحقيقة المتعلقة بإعادة تأسيس مملكة اللباردين عام ٥٨٤ ، بعد أن أصبح الغزو ميسورا بسبب تنازل الدوقات عن الاقطاعيات لصالح الملك الجديد. فقد كان البلاط الملكى هو الإدارة العامة الوحيدة التى ظلت قائمة . وكان على البلاط أن يعد القاعدة الاقتصادية التى تقوم عليها سيادة الدولة ، سواء أكان ذلك فى

---

(١) F. D. Fustel de Coulanges, Histoire des institutions politiques de l'ancienne France. — ويوجد فى الجزء الأخير من الكتاب المذكور وعنوانه « تحول الملكية » Les Transformations de la monarchie (1892) ، فصل هام عن التباين بين عادات الجرمان وعقليتهم وبين نظام يقوم على أساس من الضرائب المالية .

(٢) أنظر ما سبق ص ٧٨ وح ١ من هذا الكتاب — المترجم .

شكل مزيد من السلطة العامة أم فى شكل إقطاعيات ملكية . وكان من الجائز أن تختلف حيازة الملك فى الحجم عن إقطاعيات كبار رجال الدولة . ولكن مثل ذلك لم يكن متاحا لأى فرد فى أية مناسبة أخرى . كما كانت ممارسة السلطة الملكية مشروطة بضرورة حيازة ممتلكات فى الجهة المختصة . ولم يكن بوسع الملك أو أعوانه ممارسة أو مباشرة عمل ما فى أية مقاطعة بدون هذا الأساس . ومن ثم كان الفرنجة ، ومن بعدهم الملوك الألمان المتأخرون ، يرحلون من قصر إلى آخر مصحوبين برجال حاشيتهم ، مستهلكين نتاج إقطاعياتهم ، ومقيمين العدالة (١). ولنفس هذا السبب اتخذ ملوك لمبارديا ، الذين كانوا غير راضين عن أملاك الدومين (٢) الأصلية حول بافيا سياسة هدفها الحصول على إقطاعيات جديدة عبر ايطاليا اللبباردية ، حتى يتسنى لهم ممارسة نفوذ مباشر فى أقاليمهم الخاصة .

---

(١) أوضح هذه الفكرة العالم البلجيكى هنرى بيرين فى كتابه «مدن العصور الوسطى». يقول إن اقتصاد القرن التاسع فى المجتمع الغربى كان اقتصادا طبيعيا يتصل أساسا بالأرض . هذا ، بينما تدهورت المدينة باقتصادها النقدى ، وتوقفت عن أن تصبح مراكز تجارية كما كانت من قبل ، وقل عدد سكانها ، واختفى التجار الذين كانوا ذات يوم يترددون عليها أو يقيمون فيها . كما اختفى مع المدن الطابع المدنى الذى كانت لا تزال تحتفظ به خلال العصر الميروفنجى . وحول المدن المتدهورة ظلت الأراضى الزراعية والأطيان الشاسعة تحيا حياتها الخاصة . ويستطرد بيرين قائلا إنه ليس هناك أى دليل على اهتمام الدولة فى الغرب ، التى قامت هى نفسها على أساس ريفى زراعى بحت ، بمصير تلك المدن . ولم تشيد قصور الأمراء الكارولنجيين داخل المدن ، ولكنها كانت وبدون استثناء مقامة فى الريف ، أى فى قلب أطيان الأسرة الحاكمة . إذ أقيمت فى هريستال ، وفى جوبيل ، وفى ميرزن بوادى نهر الميوز ، وفى انجلهايم على نهر الراين ، وفى اتيجنى على السين ، وهكذا . ويستدرك بيرين فيقول إنه يجب الا نتوهم أن شهرة مدينة اكس لاشابل أيام شارلمان ترجع إلى موقعها ، مبينا أن الازدهار الذى تمتعت به بصفة مؤقتة فى عهد شارلمان إنما يرجع إلى حظها باعتبارها المقر المفضل للامبراطور . وقد راحت بعد حكم ابنه لويس الصالح فى عالم النسيان ؛ ولم تصبح مدينة بالمعنى المفهوم إلا بعد أربعة قرون من ذلك التاريخ : أنظر عن ذلك : **Pirenne, Medieval Cities, 43.**

(٢) أوضح الاستاذ كوبلاند فى بحثه عن الاقطاع الذى قام بترجمته الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الأركان الثلاثة فى بناء المجتمع الإقطاعى وهى : بقايا الجماعات القروية ، وآثار =

لقد كان كل من الدولة والملك سيان فى ذلك الحين (١) . وإذا كان الإثنان فى حاجة إلى حكومة شديدة المراس ، فقد كانا أيضا فى حاجة إلى أكبر عدد ممكن من الأشخاص التابعين مباشرة للسلطة المركزية . وكان ذلك ينم عن « خدمة نبيلة » . وكان هذا النبل فى الخدمة هو الوسيلة الوحيدة الممكنة للرقابة على القوى المحلية لصالح الملكية . وكان من الممكن الاحتفاظ بعدد من أولئك الرجال فى البلاط الذى يصرف عليهم من نتاج الدومين الملكى . ومع ذلك فان مثل هؤلاء الرجال الذين كلفوا بتمثيل الملك فى القرى والضواحى ، والذين كان حضورهم الشخصى غير مطلوب بصفة دائمة ، كان يتعين مكافأتهم بعطايا من الأرض بصورة أو بأخرى . ويجوز أن تأخذ مثل هذه العطايا شكل

= نظام الدومين ، وأحوال عصر النمو الإقطاعى . والدومين ، وهو العنصر الثانى فى تكوين الاقطاع ، يعنى فى مصطلح العصر الوسيط أملاك السيد الاقطاعى من ضواح وأراض وأبعاديات وغيرها . وكان السيد الواحد يمتلك عددا كبيرا من تلك الأراضى المبعثرة . وتدل الوثائق التى عثر عليها فى أوروبا فى الفترة من سنة ٤٥٠ إلى سنة ٧٥٠ ، أن عصر الفرنجة قد كثر فيه كبار الملاك والممتلكات الواسعة المساحات . كما تكشف هذه الوثائق أن القريه كانت بيد مالك dominus أو سيد lord . ويتلخص نظام الدومين فى أن الأرض الزراعية كانت تنقسم إلى قسمين رئيسيين ، ينتفع المالك بأحدهما ، ويوزع الثانى حصصا مبعثرة بين الفلاحين مقابل ما يؤدونه للسيد من خدمات فى أرضه . وكان الأفراد الذين يعيشون فى الدومين يتبعون السيد تبعية تامة . وازدادت مع الزمن سلطة هذا السيد حتى أصبح حائلا بين أهل الدومين وبين الحكومة المركزية . وأصبح بيده الحل والعقد ، فهو الذى يفرض الضرائب ، وبيده أيضا القضاء والحكم والإدارة المحلية . وبقيت آثار هذا النظام أثناء العصر الإقطاعى . وتمثل هذا فى تقسيم الأرض بين السيد المتبوع وأتباعه . فكان هناك الدومين المحلى والدومين الملكى والدومين الامبراطورى . أنظر كوبلاند و فينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ، ص ١٠ — ١٤ . المترجم .

(١) لقد أخذت فى ذلك الوقت سلطة الحاكم المستبد المطلق السلطة فى الظهور فى الغرب ، ووجد اتجاه نحو السلطة الاوتوقراطية فى الميدان السياسى . وأصبح الملك فى الميدان السياسى يتمثل بالقول المأثور « الدولة هى أنا » «L'état c'est moi» .

خريطة رقم (٣)



منح ، كما هو الحال فى عهـــد الأسرة الميروفنجية (١) ، وأيام اللمبارديين

---

(١) امتد حكم الأسرة الميروفنجية من سنة ٤٨٦ إلى سنة ٧٥١ . ومؤسسها هو الملك كلوفيس (٤٨١ ــ ٥١١) الذى يرجع إليه الفضل فى مد حدود الفرنجة غربا حتى ساحل خليج بسكاى والمحيط الأطلنطى ، وجنوبا حتى جبال البرانس . وكان كلوفيس هذا بعيد النظر ، إذ أدرك أن خير وسيلة لضمان الاستقرار التام داخل حدود الدولة الرومانية لن يتأتى إلا بالتقرب من البابوية فى روما . ولهذا نراه يعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكى فى سنة ٤٩٦ . وحذا حذوه أتباعه ورجال الطبقة الأرستقراطية . وترتب على ذلك الامتزاج بين شقى الشعب ، ونعنى البرابرة والرومان المقيمين فى غالة . كما أصبحت الوحـدة الروحية التى تجمعها أساساً ثابت الدعائم لدولة كلوفيس . كذلك شجع قيام المصاهرة بين الرومان والفرنجة «imparia matrimonia» ، وهدفه أن يجعل من هذين الجنسين المتباينين جنسا واحدا يكون أمة واحدة ، وهذه الأمة تـكون مملـكة واحـدة يكون هو على رأسها . وفى عام ٥٠٨ وقع حـــدث هام عندما أنعم الامبراطور البيزنطى على كلوفيس بلقب « حاكم غالة الرومانية » ، مما عزز مركزه ، إذ كان اعتراف بيزنطة به بمثابة اعتراف العالم الخارجى بتأسيس دولته الجـديدة وهى الدولة الميروفنجية . وكانت هذه الدولة تنقسم إلى قسمين هما القسم الشرقى ويسمى اوسترازيا Austrasia وتغلب عليه الصبغة الجرمانية ، والقسم الغربى =

[والانجلوسكسون] (١) . كما كان ممكنا تسليم الأرض باعتبارها إقطاعا . وفى كلا الحالين اختلفت قطعــا طبيعة العلاقات التى نشأت بين الملك ورجاله

= ويسمى نويستريا Neustria ويغلب عليه الطابع الرومانى القديم . وكانت عملية التوحيد بين هذين العنصرين بطيئة مستمرة . وقد تولى إدارة كل قسم وزير خاص يحمل لقب «أمير القصر» . وكلما توغلنا فى التاريخ الميروفنجى كلما لمسنا ضعف خلفاء كلوفيس ، واشتداد ساعد أمراء القصر وقيام الخلف والمنازعات بينهما . وانتهى هذا الصراع بتوحيد الوزارة فى القسمين سنة ٦٨٧ فى شخص رجل واحـد هو بين هريستال الذى أخذ يسلب الملوك الميروفنجيين الضعاف اختصاصاتهم . وخلفه ابنه شارل مارتل (٧١٤ ــ ٧٤١) . وكان آخر وزراء الميروفنجيين هو بين القصير الذى كانت له الكلمة العليا فى البلاد ، بينما غدا ملوك الميروفنجيين مجرد ألعوبة . ولذلك نراه فى أواسط القرن الثامن ينقل التاج من آخر الملوك الميروفنجيين العاطلين وهو شيلدريك الثالث ، ويؤسس أسرة جديدة هى الأسرة الكارولنجية . أنظر وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، ص ١٧ ــ ١٨ ، وكذلك LaMonte, op. cit., 46—9, 65—6, 153—5; Sullivan, op. cit., 39-42; Dill, Roman Society, 13-4. المترجم .

(١) تعرضت الجزيرة البريطانيــة للغزو الانجلوسكسونى فى الفترة من سنة ٤٥٠ إلى سنة ٨٥٠ . ولا تمــدنا المصادر المعاصرة إلا بالنزر اليسير عن عملية الغزو وتفاصيلها . والانجلوسكسون من العناصر الجرمانية التى تقطن عند الساحل الشمالى الشرقى لنهر الراين وفى شبه جزيرة جوتلاند . وقد عبروا البحر إلى بريطانيا كقراصنة أو مستوطنين بقصد الاستقرار فيهـا . وساعدتهم الظروف على احتلال الجزيرة عندما انسحبت آخر حامية رومانية منها فى أواسط القرن الخامس ، فى وقت كان فيـه العالم الرومانى فى طور الاحتضار . ومرت عملية الغزو بدورين رئيسيين : الأول ويمتد من سنة ٤٥٠ إلى سنة ٥٥٠ ، والثانى من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٨٥٠ . ونعرف من الوثائق التاريخية أن الوافدين الجدد أسسوا فى أول الأمر سبع ممالك فى الجزيرة البريطانية هى : كنت وسسكس واسكس وسكس ونورثمبريا ومرسيا وايست انجليا . ولـكنها أصبحت آخر الأمر ثلاث ممالك فقط هى نورثمبريا ومرسيا ووسكس . ومرت هذه الممالك بعدة عوامل إلى أن توحدت فى مملـكة واحدة فى ظل حكم ملك واحد . ومما يذكر أنه كان لهذا العنصر تنظيمه السياسى والاجتماعى والاقتصادى وحيـاته وتفـكيره وحضارته الخاصة به . ومن أشهر ملوك السكسون الفريد الـكبير ملك وسكس الذى تعرضت البلاد فى عهده لإغارات الدانيين ، وابنه الملك ادوارد الذى وقف هو الآخر فى وجه الموجات الدانية المبـكرة . وانتهى حـكم السكسون سنة ١٠٦٦ بالفتح النورمانى للجزيرة البريطانية على يد وليم الفاتح . أنظر عن ذلك نظير سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور =

عن تلك التى نشأت بين السلطة المركزية ورجالها المدنيين المأجورين . وفيما يتعلق بعملية الدفع النقدى ، فقد كان يتعين موالاة الدفع فى فترات منتظمة . ولم يكن للبيروقراطى المأجور أية رقابة شخصية على موارد دخله ؛ إذ كانت الأرض وسكانها تؤول عن طريق الهبات الإقطاعية إلى سيطرة الحائز الجديد ، ولو بصفة مؤقتة على الأقل . ولذلك تدل كافة الهبات التى تمنح فى شكل إقطاعيات على الاتجاه إلى سحب تلك الإقطاعيات بصفة مستمرة من حيازة الملك وسلطته . ومن ثم فان كل إقطاع يتم نزعه يستتبع بالتالى خسارة للسلطة الملكية ، حيث أن الصرف من دخل الضرائب ، والذى كان يتجدد بصفة دورية ، لا يضير القوى الجديدة . ولما كانت الأرض التى فى حيازة الملك محدودة ، فلا شك أنها استهلكت بعد فترة معينة بسبب تلك العطايا . وعندما تحقق ذلك ، أصبح نهاية الأسرة الحاكمة والانفصال عن الدولة أمرا لا مفر منه ، ما لم تملأ الضرائب من جديد الخزانة الملكية .

وتكشف هذه الحقيقة الأساسية عن الصعاب المتتابعة التى أثرت على السياسة الخارجية ، والتى أعاقت التطور الاجتماعى الداخلى للدول الغربية فى القرون الوسطى المبكرة . وما أن تم توزيع الأراضى التى تنفق عليها الخزانة الملكية ، حتى كان على المملكة الاتجاه نحو غزو خارجى . وكان النجاح فى هذا الميدان يؤدى إلى حيازة أراض جديدة يمكن بواسطتها كسب أتباع جدد لتعزيز السلطة الملكية . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك انهيار الملكية الميروفنجية ، أو

= القديمة والوسطى (١٩٥٨) ، ص ٢٧ وما بعدها ؛ ا. ل. راوس : التاريخ الانجليزى (١٩٤٦) ، ص ١٧ وما بعدها ، وكذلك D. Whitelock, The Beginnings of English Society (1954); G. M. Trevelyan, A Shortened Hist. of England (1960), 37 ff.; E. L. Woodward, Hist. of England (1957) 10 ff. — المترجم .

ما أطلق عليه شارل مارتل (١) ، تحويل ممتلكات الكنيسة إلى السلطات العلمانية ، وكذلك الدوافع الكامنة وراء التقسيم المتكرر للإمبراطورية الكارولنجية . (٢) وبوسعنا الإشارة إلى القوى التي جاءت بأسرات جديدة في القرن العاشر ، وإلى اهتمام ملوك المانيا وفرنسا وايطاليا بأمر الدومين الملكي . وفي الحقيقة فقد أدت تلك السياسة المتعلقة بالدومين إلى معاودة غزو ممالكهم ذاتها . ويعزى إلى نفس هذه الأسباب عودة اللمبارديين إلى سياسة توسعية إقليمية تحت قيادة ليوتبراند (٣) Liutprand الطموح ، بعد فترة طويلة من السلم والظروف المستتبة

---

(١) لم يترك الوزير الميروفنجى بين هريستال عند وفاته سنة ٧١٤ أبناء شرعيين يخلفونه في الوزارة . وكان أحفاده صغيرى السن بحيث لم يكن من السهل تحملهم أعباء الحكم . وهكذا خلفه ابنه غير الشرعى شارل مارتل . وقد واجهته بعض الصعاب في سبيل تعزيز سلطته . واشتهر في التاريخ بانتصاره على العرب في موقعة بواتييه سنة ٧٣٢ عندما نجح في وقف توغلهم في أوروبا إلى ما وراء جبال البرانس . أما عن موقفه من الكنيسة فقد قام بمصادرة الكثير من أراضيها للانفاق على حروبه ضد العرب . وبهذا جلب عليه نقمة رجال الدين . وكان خلال السنوات الأربع الأخيرة من حكمه هو الحاكم الأوحد بلا منازع . وعند وفاته قسم أراضيه بين ابنيه كأى ملك ميروفنجى ، فأعطى القسم الشرقى إلى ابنه بين القصير ، والقسم الغربى إلى ابنه كارلمان . ولكن التنافس بين الأخوين هدد أمن الدولة . وفي سنة ٧٤٧ تنازل كارلمان عن صلاحياته لأخيه مؤثرا الحياة داخل الدير . وبذلك أصبح الجو خاليا لأخيه بين القصير. أنظر عن ذلك LaMonte, op. cit., 154; Crump & Jacob, op. cit., 467; Tayler, Med. Mind, I, 197—8, 209, 332, II, 302; Sullivan, op. cit., 58-9. — المترجم .

(٢) من أهمها تقسيم فردان Verdun سنة ٨٤٣ وتقسيم ميرزن Meersen سنة ٨٧٠ ، أنظر Shorter Camb. Med. Hist., I, 342 ff.; LaMonte, op. cit., 162 ff. — المترجم .

(٣) ليوتبراند هو أحد الملوك اللمبارديين ، حكم من سنة ٧١٢ إلى سنة ٧٤٣ . وقد استفاد من الحركة اللاأيقونية التي قام بها الامبراطور البيزنطى المعاصر له ليو الثالث الأيسورى ، والتي أدت إلى إنقسام صريح بين القسطنطينية والغرب . ذلك أن مدينة رافنا التابعة لبيزنطة ، والتي كانت تعانى من المتاعب لسنوات عديدة بسبب مشكلة الضرائب ، استغلت فرصة النزاع اللاأيقونى وأعلنت استقلالها عن الامبراطورية الشرقية ، وفتحت أبوابها للملك ليوتبراند في =

المستقرة . فضلا عن حملات غزو عديدة فى ايطاليا بقيادة ملوك الشمال (١) .

وكان أشد ما تفتقر إليه الادارة بكامل عناصرها وأجهزتها هو حاجتها إلى الاستمرار وعدم التوقف . وقد وصف العالم الاقتصادى أدولف فاجنر (٢) Adolf Wagner تصرفات الدولة البدائية بأنها مستمدة من مبدأ القمع والضغط، وهو ما ينطبق بصفة قاطعة على القرون الوسطى المبكرة . فلم يكن بوسع الدولة فى هذه الحقبة من الزمن المحافظة بصفة دائمة على القانون والنظام ، لأنه لم يكن ثمة أجهزة متوفرة تستطيع العمل دون توقف فى كافة أنحاء البلاد . وكان عمل الدولة قاصرا على التدخل الفردى فى بعض الحالات الخاصة التى تتعلق بقمع الاضطرابات والعمل على إعادة النظام إلى ما كان عليه من قبل . ويلقى التشريع المعاصر لتلك الحقبة الضوء على ذلك بصورة واضحة . ويتضمن هذا التشريع مجموعة كبيرة من مختلف المخالفات والعقوبات الخاصة بها ، بينما كانت القوانين السارية المفعول قليلة نسبيا . وكانت بعض كتب القانون مجرد قوائم بالغرامات

= القرن الثامن . كذلك نجح ليوتبراند فى إخضاع بعض الدوقات المستقلين ، وبخاصة دوق سبوليتو ودوق بنيفنتو . ولكن انتصاراته هذه أثارت مخاوف البابا ، حتى لقد اتجهت روما بأبصارها صوب الفرنجة لمعاونتها ضد اللمبارديين . وتمكن الكارولنجيون فعلا من القضاء على مملكة لمبارديا . أنظر عن ذلك LaMonte, op. cit., 128, 153; Shorter Camb. Med. Hist., I, 159, 221-2. — وجدير بالذكر أن ليوتبراند هذا غير ليوتبراند أسقف كريمونا المشهور الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى — المترجم .

(١) تقوم هذه الفقرة كلها بصفة أساسية على تحليل هارتمان للمجتمع اللمباردى . أنظر Geschichte Italiens im Mittelalter, II,2, cap. I, 1 ff.

(٢) كان أدولف فاجنر استاذا للاقتصاد السياسى . ونظرا لأنه تخصص فى شرح وتفسير عقائد الدولة الاشتراكية ، فقد تمتع بنفوذ كبير فى جامعة برلين فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين — المؤلف — وله عدة مؤلفات من أهمها : A. Wagner, Die unteritalischen Normannen und das Papstthum, von Victor III bis Hadrian VI (1086—1156), Breslau, 1887. — المترجم .

التى توقع على المخالفات التى يقترفها الموظفون الملكيون عن قصد أو عن غير قصد (١) . وتبعا لذلك لم يكن فى الدولة الجرمانية فى القرون الوسطى المبكرة قانون منظم لتحقيق العدالة ، كما لم يكن لها حكومة أو إدارة كما هو مفهوم فى دولة بيروقراطية [مثل الدولة البيزنطية] أو كما هو الحال فى العالم الحديث . وقد انبثقت أوجه النشاط القضائى الذى قامت به محاكم المائة من القضاء الشعبى فى العهد القبلى . وقامت السلطات المحلية بتشكيل تلك المحاكم . هذا ، بينما ظل نفوذ السلطة المركزية محدودا . ولأسباب سبق تفسيرها ، أصبح الكونت [الذى تولى الرئاسة بوصفه مندوبا عن الملك] بمرور الزمن أقل كفاءة ومقدرة باعتباره وكيلا للسلطة الملكية . وتمت هذه المرحلة بسرعة أكبر بالنسبة لذوى الامتيازات . واقتصر تدخل الدولة على بعض الحالات الخاصة تطبيقا لأحكام القضاء فى المحكمة الملكية ، أو عن طريق ممثلى السيد المالك missi dominici الذين كانت أوجه نشاطهم التافهة العارضة ، على أية حال ، صورة طبق الأصل لهذا النوع من التدخل (٢) .

---

(١) Geschichte Italiens, III, cap. I, 1 ff.

(٢) تحدثنا الكاتبة دوروثى هوايتلوك فى مؤلفها « بدايات المجتمع الانجليزى — عصر الانجلوسكسون » عن نظام القضاء لدى هــذا العنصر الجرمانى ، وهو شبيه لما أورده هارتمان . فقد كانت الدعاوى القضائية ترفع أمام هيئة عامة أطلقت عليها القوانين المبكرة اسم محكمة الشعب ، وكانت تجتمع مرة كل أربعة أسابيع برئاسة مندوب من قبل الملك ، وأحكامها تستأنف أمام الملك مباشرة باعتباره السلطة العليا فى البلاد . وفى القرن العاشر أعيد تقسيم الأرض إلى قطع متساوية سميت كل وحدة منها باسم « مائة » ، ولها محكمة تجتمع مرة واحدة فى الشهر . وعرفت تلك المحكمة باسم « محكمة المائة » . كما وجدت محكمة أخرى أعلى من محكمة المائة ، عرفت باسم « محكمة المقاطعة » ، وهى تنعقد مرتين فى العام . وبوسع الفرد استئناف الأحكام التى تصدرها محكمة المائة أمام محكمة المقاطعة . ويحتمل أن محاكم المائة قد حلت محل المجالس الشعبية القديمة ، وورثت عنها وظائفها واختصاصاتها . وأما المحاكم الملكية فقد اختصت بالنظر فى كافة المسائل والشئون الخطيرة المتعلقة بالأمن العام والسياسة =

كان ذلك هو عين النقص فى النظام الذى وضعته الدولة ، والذى مكن الكنيسة من القيام بنشاط واسع النطاق تم ممارسته فى أوقات مختلفة وبدرجات متفاوتة . فقد كان معروفا أن الكنيسة لم تكن تقل عن الدولة فى ارتباطها بالاقتصاد الطبيعى القائم ، وفى خوفها الدائم من خطر ضياع ما تملكه من الأراضى التابعة لها لصالح صاحب الإقطاعية أو لصالح جيران جشعين أقوياء. وهكذا كان وضع الكنيسة يشبه وضع الدولة نفسها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد استفادت الكاتدرائيات والمدارس الكنسية والأديرة من كافة التطورات التى عززت السلطات المحلية على حساب الدولة . بينما ظهر رأى ينادى بقيام سلطة عالمية واحدة ، تتضمن ليس مواطنى بلد واحد فحسب وإنما كافة شعوب الغرب ، الأمر الذى أوجد تفوقا بارزا على الملك الذى غدت سلطته مقيدة داخل حدود إقليمية ضيقة . أما الكنيسة فقد ازداد مركزها قوة ومتانة ، إذ كانت وظائفها الروحية التى لا يستطيع أى فرد آخر ممارستها ، تعتبر بصفة عامة أمرا لا غنى عنه من أجل الحصول على الخلاص . بل كانت تلك الوظائف أكثر ضرورة من وظائف الدولة . ثم أن هذه الخدمات الدينية والثقافية كانت تقوم تقويما ماديا وفقا لشروط خاصة . وكان الأثرياء من العلمانيين يتهافتون على الدفع للكنيسة بسخاء فى شكل هدايا [للقديسين حماة الكاتدرائيات والأديرة] .

ولا شك أن كثيرا من الأباطرة والملوك قد نجحوا فى الحد من سلطة الكنيسة واستقلالها . فضلا عن استخدامهم الكنيسة كقاعدة لحكومتهم

= العليا للدولة . واستهدف هذا التنظيم الجديد تنسيق القانون وحسن تطبيقه فى البلاد حتى يستتب الأمن وتسود العدالة . أنظر Whitelock, Beginnings of English Society, 137—9, — المترجم .

الذاتية . وهكذا طاب لهم عجز الجهاز البيروقراطى عن القيام بمهمته . ومع ذلك لم تتمكن أى قوة من القوى العلمانية فى الغرب من الاشراف على الكنيسة بوصفها عضوا فى الدولة ، إلى نفس المدى الذى نجح حكام الشرق فى تحقيقه (١) .

وتتضح أوجه التباين والخلاف بين الغرب والدولة البيزنطية فى كافة النواحى والمجالات الأخرى . فلم تستطع أية دولة جرمانية فى هذه الحقبة الإبقاء على سلسلة من الاستحكامات المخططة تخطيطا دقيقا . إذ لم تتوفر وسائل التمويل وإعداد الحاميات . (٢) وهكذا كانت الحال فى ايطاليا بعد الغزوات المجرية . فقد كان على السلطات المحلية تشييد استحكامات جديدة ، وإصلاح أسوار المدن الرومانية والدفاع عنها . وقد ترتب على ذلك تقوية السلطات المحلية على حساب النفوذ الملكى . ويعتبر قصور الدولة عن بناء أسطول بحرى أو صيانته أمرا أكثر وضوحا . فلا تستطيع أية حكومة تعتمد على قاعدة تقوم على الاقتصاد الطبيعى أن تغفل ذلك ، لأنها فى حاجة إلى المال للصرف على السفن ودفع أجور لأطقم البحارة الدائمين . وكان أمر الدفاع عن السواحل الذى حاول شارلمان

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن العلاقة بين الكنيسة والدولة فى كل من الشرق والغرب ، أنظر Cantor, op. cit., 93—7, 112—8; Barker, op. cit., 6 ff., 36—42, 75—6, 90, 92; Baynes & Moss, op. cit., 3 ff., 112—3, 129—32, 274—8; Ostrogorsky, op. cit., 28 ff., 193; Laistner, Thought and Letters in Western Europe, 110—11, 315—21; Shorter Camb. Med. Hist., I, 115—6, 124—7. أنظر أيضا قائمة المراجع المذيل بها هذا الفصل ، وكذلك المراجع المذيل بها الفصل الثالث من بحث بارا كلاف — المترجم .

(٢) يحتمل أن تكون هذه العبارة مبالغا فيها . وفيما يتعلق باستحكامات وحاميات الملك الفريد ، أنظر F. M. Stenton, Anglo—Saxon England (1947), 261—3. وأما عن حاميات واستحكامات هنرى الصياد فى المانيا ، أنظر C. Erdmann, Deutsches Archiv (1943), 59—101. (هـ. ليبشيتز) .

تنفيذه فى نهاية حكمه مقضيا عليه بالفشل . ولم يكن من قبيل المصادفة تعذر الدفاع عن ممالك الغرب الأوروبى ضد الغزو الوافد إليها من البحر ، سواء أكان هذا الغزو قادما من جهة الفيكنج (١) فى الشمال أو من ناحية العرب فى الجنوب (٢) .

---

(١) يعرف الفيكنج بالشماليين ، وهم يتألفون من الدانيين والنرويجيين . وكانوا يقطنون فى اسكنديناوه وحوض بحر البلطيق ، ويدينون بالوثنية المتعددة الآلهة مثل اليونان القدماء . وقد ولوا وجههم شطر غرب أوروبا . فنزل الدانيون فى انجلترا وفرنسا وفريزيا . بينما هاجم النرويجيون شمال اسكتلندا ونورثمبريا وايرلندا . وقد أشاع الفيكنج الفوضى والدمار فى أوروبا . وكانت هجماتهم أشبه ما تكون بالقرصنة ، حيث يقومون بحركات سريعة مفاجئة بقصد السلب والنهب ، ثم الهرب بعد ذلك بمراكبهم محملين بالأسلاب . ولكن إغارات السلب والنهب تحولت فيما بعد إلى حملات منظمة للغزو والاستقرار فى البلاد التى فتحوها . وقد دخل الفيكنج آخر الأمر فى الديانة المسيحية ، وتقبلوا الثقافة المرتبطة باللغة اللاتينية بدلا من حضارتهم المرتبطة بالوثنية . أنظر ابراهيم العدوى : المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، ص ١٠٤ وما بعدها ؛ وكذلك Shorter Camb. Med. Hist., I, 312, 345, 351, 354—5, 360—8, 380—1, 384—5; LaMonte, op. cit., 157, 166—9, 185, 196—7, 343; Sullivan, op. cit., 141, 143—5, 153. — المترجم .

(٢) يدل المثل الذى قدمه الفيكنج على أنه ، تحت ظل ظروف خاصة ، يستطيع مجتمع من الفلاحين المشاغبين فى مرحلة تطور اقتصادى بدائى حاسم ، أن يرسل إلى الخارج بشكل منظم أساطيل كبيرة إلى بلاد بعيدة نائية ، وربما تنعدم مثل هذه المقدرة فى ظل ظروف أكثر استقرارا . ويتضح العجز فى الاستعدادات الحربية فى عهد شارلمان ، وهو ما أشار إليه هارتمان . (هـ. ليبشيتز) .

بعض المراجع للفصل الثالث

Abdy, J. T., Feudalism : Its Rise, Progress, and Consequences. London, 1890.

Aberg, N.,

1 — Ostpreussen in der Völkerwanderungszeit. Stockholm, 1919.

2 — Die Franken und die Westgoten in der Völkerwanderungszeit. Uppsala, 1922.

3 — Die Goten und Langobarden in Italien. Uppsala, 1923.

Adams, G. B., Civilization during the Middle Ages. New York, 1914.

Arldt, T., Germanische Völkerwellen und ihre Bedeutung in der Bevölkerungsgeschichte von Europa. Leipzig, 1917.

Aschbach, J., Geschichte der Westgoten. Frankfurt, 1827.

Binding, C., Das burgundisch — romanische Königreich von 433 bis 532. Leipzig, 1868.

Bloch, M., Feudal Society. trans. from the French by L. A. Manyon. London, 1961.

Boissonade, P., Life and Work in Medieval Europe. Trans. by Eileen Power. New York, 1927.

Bradley, H., The Story of the Goths to the End of the Gothic Dominion in Spain. New York, 1888.

Bühler, J., Die Germanen in der Völkerwanderung : nach zeitgenössichen Quellen. Leipzig, 1922.

Bury, J. B., The Invasion of Europe by the Barbarians, ed. by F. J. C. Hearnshaw. London, 1928.

Calmette, J.,

1 — La société féodale. Paris, 1927.

2 — Le monde féodal. Paris, 1937.

Claparède, H. de, Les Burgondes jusqu'en 443. Geneva, 1909.

Coulanges, N. D. F. de, Histoire des institutions politiques de l'ancienne France, ed. by C. Jullian. 6 vols. Paris, 1905—14.

Coulton, G. G., Medieval Village, Manor, and Monastery. New York, 1960.

Cunningham, W., Western Civilization in its Economic Aspects : Medieval and Modern. Cambridge, 1900.

Dahn, F.,

1 — Urgeschichte der germanischen und romanischen Völker. 3 vols. Berlin, 1880—89.

2 — Die äussere Geschichte der Westgothen. Würzburg, 1870.

3 — Die Verfassung der Westgothen. Leipzig, 1885.

Dill, S., Roman Society in Gaul in the Merovingian Age. London, 1926.

Dopsch, A., Wirtschaftliche und soziale Grundlagen der europäischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Cäsar bis auf Karl den Grossen. 2 vols. Vienna, 1920—23.

Duby, G., L'Economie rurale et la vie des campagnes dans l'Occident médiéval. 2 vols. 1962.

Eichmann, E., Kirche und Staat. vols. I—II (750—1350). Paderborn, 1912—14.

Eicken, H. von, Der Kampf der Westgothen und Römer unter Alaric. Leipzig, 1876.

Erdmann, C., Deutches Archiv. 1943.

Eyre, E. (ed.), European Civilisation : Its Origin and Development. Vol. III : The Middle Age. London, 1935.

Fongeron, H. P., Les bénéfices et la vassalité an IXe siècle. Rennes, 1868.

Freeman, E. A.,

1 — Western Europe to the Fifth Century : An Aftermath. London, 1904.

2 — Western Europe in the Eighth Century and Onward: An Aftermath. London, 1904.

Giudice, P. del, Sulla questione dell'unità o dualità del diritto in Italia sotto la dominazione ostrogota. Milan, 1913.

Gummere, F. B., Founders of England. New ed. with Notes by F. P. Magoun. New York, 1930.

Gutsche, O. and Schultze, W., Deutsche Geschichte von der Urzeit bis zu den Karolingern. 2 vols. Stuttgart, 1894—96.

Haddon, A. C., The Wanderings of Peoples. Cambridge, 1911.

Halphen, L., Les barbares, des grandes invasions aux conquêtes turques du XIe siècle. Paris, 1930.

Hartmann, L. M.,

1 — Geschichte Italiens im Mittelalter. 4 vols. Leipzig, 1897-1915.

2 — Das italienische Königreich. Gotha, 1923.

Hodgkin, T.,

1 — Italy and Her Invaders. 8 vols. in 9. Oxford, 1880-99.

(2 nd ed., of vols. I—VI, Oxford, 1892—1916).

وعلى الرغم من عنوان الكتاب المحدد . فهو يعتبر بمثابة تاريخ عام لأوروبا من القرن الرابع إلى القرن التاسع .

2 — Theodoric the Goth. London, 1923.

Hofbauer, S., Die Ausbildung der grossen Grundherrschaften im Reiche der Merowinger. Vienna, 1927.

Hutton, E., Attila and his Huns. New York, 1915.

Jahn, A , Geschichte der Burgundionen und Burgundiens bis zum Ende der I Dynastie. 2 vols. Halle, 1874.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe. New York, 1960.

Kaufmann, G., Deutsche Geschichte bis auf Karl den Grossen. 2 vols. Leipzig, 1880—81.

Kingsley, G., The Roman and the Teuton. London, 1875.

Knight, M. M., Economic History of Europe to the End of the Middle Ages. Boston, 1926.

Kurth, G.,

1 — Etudes franques. 2 vols. Paris, 1919.

2 — Les origines de la civilisation moderne. 2 vols. Brussels, 1923.

ويمتد هذا الكتاب حتى شارلمان .

Laurent, F., Les barbares et le catholicisme. Brussels, 1864.

Lavisse et Rambaud, The Feudal Régime. Trans. by E. W. Dow. New York, 1902.

Leclercq, H., L'Espagne chrétienne (to 711). Paris, 1906.

Loncao, E., Fondazione del regno di Odoacre e suoi rapporti con l'Oriente. Scensano, 1908.

Lot, F., L'impôt foncier et la capitation personelle sous le bas empire et à l'époque franque. Paris, 1928.

Martroye, F.,

1 — L'Occident à l'époque byzantine : Goths et Vandales. Paris, 1904.

2 — Genséric : la conquête vandale en Afrique et la destruction de l'empire de l'occident. Paris, 1907.

Medley, D. J., The Church and the Empire, 1003—1304. New York, 1910.

Miller, W., Mediaeval Rome. New York, 1902.

Munro, D. C. and Sellery, G. C., Medieval Civilization. New York, 1907.

Oman, C.,

1 — A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 vols. London, 1924.

2 — The Art of War in the Middle Ages (A. D. 378 — 1515). New York, 1960.

Ortega y Rubio, J., Los visigodos en Espana. Madrid, 1903.

Pérez Pujol, E., Historia de las instituciones sociales de la Espana goda. 4 vols. Valencia, 1896.

Petrie, W. M. F., Migrations. London, 1906.

ويمتاز هذا الكتاب بأنه يتضمن مجموعة قيمة من الخرائط .

Pfeilschifter, G., Die Germanen im römischen Reich : Theodorich der Grosse. Mainz, 1911.

Pirano, S., Stato e chiesa, 888—1015. Turin, 1908.

Pirenne, H.,

1 — Mohammed and Charlemagne. 1939.

2 — Medieval Cities. Trans. from the French by F. D. Halsey. Princeton, 1948.

3 — Economic and Social History of Medieval Europe. Trans. from the French by I. E. Clegg. London, 1961.

Ponchielli, A., Commento all'editto di Teodorico. Milan, 1923.

Prou, M., La Gaule mérovingienne. Paris, 1897.

Richter, G., Annalen des fränkischen Reiches im Zeitalter der Merovinger. Halle, 1873.

Romano, G., Le dominazioni barbariche in Italia, 395-1024. Milan, 1909.

Roth, P.,

1 — Geschichte des Benefizialwesens von den ältesten Zeiten bis ins zehnte Jahrhundert. Erlangen, 1850.

2 — Feudalität und Unterthanenverband. Weimar, 1863.

Salvioli, G., Sullo Stato e la popolazione d'Italia primo e dopo le invasioni barbariche. Palermo, 1900.

Schmaus, J., Geschichte und Herkunft der alten Franken. Bamberg, 1912.

Schmidt, L.,

1 — Geschichte der Wandalen. Leipzig, 1901.

2 — Geschichte der deutschen Stämme bis zum Ausgang der Völkerwanderung. Vols I—II. Berlin, 1904-11.

3 — Allgemeine Geschichte der germanischen Völker bis zur Mitte des sechsten Jahrhunderts. Munich, 1909.

4 — Die germanische Reiche der Völkerwanderung. Leipzig, 1913.

Stenton, F. M., Anglo—Saxon England. 1947.

Stephenson, C., Mediaeval Feudalism. New York, 1942.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Tardif, J., Etudes sur les institutions Politiques et administratives de la France : époque mérovingienne, Paris, 1881.

Thierry, A., Récits de l'histoire romaine au Ve siècle. Paris, 1860.

Thompson, J. W., Economic and Social History of the Middle Ages (300—1300). New York, 1928.

Villari, P., The Barbarian Invasions of Italy. Trans. by Linda Villari. 2 vols. London, 1902.

Waitz, G., Über die Anfänge der Vassalität. Göttingen, 1856.

Wiart, R., Essai sur la precaria. Paris, 1894.

Wietersheim, E. v., Geschichte der Völkerwanderung. 2 nd. ed., by F. Dahn. 2 vols. Leipzig, 1880—81.

Wilser,. L., Die Germanen. vol. I. Leipzig, 1913.

الفصل الرابع

سياسة أباطرة الغرب حيال ايطاليا

ليس بوسعنا أن نفهم فهما تاما الكيان العسكرى للولايات الجرمانية ، والمشكلة الكبرى الخاصة بالعلاقة بين ايطاليا والامبراطورية الغربية ، إلا عن طريق هذا التحليل للنتائج التى طبعها الاقتصاد الطبيعى على سياسة هذه الحقبة من الزمن .

وربما قيل إن كل حملة فردية على روما من قبل أى ملك المانى ، لم تكن تعنى أقل من غزو جديد لايطاليا . فالواقع أنه لا يوجد أثر لإدارة دائمة فعالة فى ايطاليا من جانب الحكومة الامبراطورية . فبعد أن قام شارل العظيم بغزو ايطاليا ، أدخل فيها كثيرا من الفرنجة بوصفهم أتباعا وموظفين . وحذا خلفاؤه حذوه ونهجوا سبيله . وكان نسل أولئك الفرنجة ، وأتباع الملوك الفرنجة والبرجنديين المتأخرين ، هم أسلاف كبار الأسر الذين أصبحوا فيما بعد حكام ايطاليا الحقيقيين. ولكنهم فقدوا بهذا التصرف صلتهم بوطنهم الأصلى . ووجدوا أنفسهم مضطرين للقدوم إلى أوطانهم لإثبات أن مصالحهم الخاصة أصبحت ترتبط بممتلكاتهم الجديدة . ومن ثم كفوا عن أن يظلوا أداة للملكية التى كانت قد أوقفت عليهم الهبات ، وأصبحوا يشكلون قلب المعارضة المحلية .

ولهذا السبب لم يكن يوجد روتين إدارى مستمر . فلم يكن بوسع الأباطرة ممارسة رقابة ثابتة أثناء تغيبهم فى الشمال ، حتى إذا حدث فى حالات استثنائية أن نزاعا قانونيا عرض للبت فيه أمام المحكمة الإمبراطورية فى المانيا ،

أو حدث أنْ أوفد الامبراطور بين وقت وآخر رسلا من قبله مزودين بسلطة تنظيم الأمور فى ايطاليـا . ومن ثم اضطر الأباطرة ، الذين كانوا فى حاجة إلى سلطة تنفيذية منظمة ، إلى تكوين فريق من رجال كانوا يمثلون شكلا أو آخر من أشكال النفوذ المحلى أو الاجتماعى ، ويمكن إغراؤهم بالمجاملات لتكييف أنفسهم وفق السياسة الامبراطورية . وكان مثل هؤلاء الأنصار يحندون أحيانا من طبقة كبار رجال الكنيسة ، وأحيانا أخرى من أصاغر النبلاء العلمانيين . ولم يكن الإمبراطور فى موقف يسمح له بالحكم بصفة فعالة ، إلا عندما يكون هو شخصيا فى ايطاليا وتحت إمرته جيش من المقاتلين .

وعلى أية حال ، فقد كان من المتعذر ، وفقا للنظام العسكرى الإقطاعى ، (١) على أى جيش فرنجى أو ايطالى البقاء فى ميدان القتال إلا لفترة زمنية قصيرة ، وهى الفترة العادية وقدرها حملة موسمية واحدة . وترتب على ذلك أن الرقابة

(١) كان الجيش الإقطاعى يتألف من الفرسان وهم من المقاتلين الذين ينحدرون من أصل عريق . وكان يشمل أحيانا فرقا من رماة السهام والمشاة . وكانت شجاعة الفارس نوعا من المغامرة الهوجاء ، وولاؤه هو ولاء التابع للسيد المتبوع . كما كانت مصالحه الخاصة لها اعتبارها ، لا سيما إذا تعلق الأمر بالغنائم والأسلاب وفديات الأسرى . وتميزت الحروب الإقطاعية بأن كل فارس كان يتصرف حسبما يحلو له . وتعتمد النتيجة النهائية على سلسلة من المبارزات التى يحددها عامل الشجاعة الفردية . كما تميز القتال فى ذلك العصر بشن الغارات على أراضى العـدو بقصد السلب والنهب ، أو قيام المناوشات بين جماعات قليلة العدد من الفرسان ، أو المنازلات والمباريات الفردية ، أو المعارك المتعلقة بحصار المعاقل والحصون . لذلك كانت الحروب بمعناها الواسع المألوف نادرة الوقوع فى أوروبا الإقطاعية . وإذا ضربنا صفحا عن الفارس الإقطاعى ، فقد كان قوام الجيش الإقطاعى وعموده الفقرى هم الأتباع الفلاحون الذين يعملون فى خدمة السيد اللورد . إذ كان هؤلاء الأتباع يؤدون الخدمة العسكرية إذا طلب منهم سيدهم ذلك . فيساعدونه بالقتال فى صفوفه كلما نشبت حرب بينه وبين غيره من الأعداء ، ثم يعودون إلى حقولهم عندما تنتهى الحملة أو الاغارة . وبهذه الطريقة كانت تتكون الجيوش الإقطاعية فى أوروبا فى العصور الوسطى ، أنظر : Stephenson, Med. Feudalism, 27—31, 67—8. المترجم .

الإمبراطورية لم تتأكد إلا بصورة متوترة ، فى شكل نوبات من تدخل نشط تسبقها وتعقبها فترات من التكاسل والتراخى . وطبق نفس هذا التحديد الزمنى على حملات الأباطرة ضد الأعداء الخارجيين . إذ بات ممكنا كسب المعارك دون الإفادة منها ، ضد عدو بوسعه السيطرة على جيش قائم متأهب للقتال (١) .

(١) استكمل هارتمان الفكرة التى تقوم عليها هذه الفقرة فى المجلد الرابع (١٩١٥) من مؤلفه عن تاريخ ايطاليا . إذ تناول فى الفصل الثانى (ص٣٩ – ٦٧) أسس الحكم فى عهد أوتو وخلفائه . كما تكشف عباراته عن أهمية ايطاليا تحت حكم أسرة أوتو . أنظر عن ذلك G. Barraclough, The Origins of Modern Germany (1946), 57—64, 69—71. (هـ. ليشيتز) .

وقد تعرض باراكلاف فى بحثه « امبراطورية العصور الوسطى » لما تقدم فى شىء من التفصيل والإيضاح . أنظر الفصل الثالث من بحث باراكلاف المترجم فى هذا الكتاب ـ المترجم .

بعض المراجع للفصل الرابع

Barraclough, G., The Origins of Modern Germany. 1946.

Bäseler, G., Die Kaiserkrönungen in Rom und die Römer von Kerl dem Grossen bis Friederich II (800—1250). Freiburg, 1919.

Browning, O., Guelfs and Ghibellines: A Short History of Mediaeval Italy from 1250—1409. London, 1893.

Cotterill, H. B., Mediaeval Italy during a Thousand Years (305—1313). London, 1915.

Hartmann, L. M., Geschichte Italiens im Mittelalter. 4 vols. Leipzig, 1897—1915.

Henderson, E. F., A History of Germany in the Middle Ages. London, 1894.

Kroener, A., Wahl und Krönung der deutschen Kaiser und Könige in Italien (Lombardei) Freiburg, 1901.

Lanzani, F., I comuni, da Carlomagno al Henrico VII. Milan, 1880.

Richter, G. and Kohl, H., Annalen der deutschen Geschichte im Mittelalter von der Gründung des fränkischen Reichs bis zum Untergang der Hohenstaufen. 4 vols. Halle, 1873—98.

Stubbs, W.,

1 — Germany in the Early Middle Ages (476—1250). London and New York, 1908.

2 — Germany in the Later Middle Ages. Ed. by A Hassall. London and New York, 1908.

Tout, T. F., The Empire and the Papacy, 918—1273. London, 1909.

Villari, P., Mediaeval Italy from Charlemagne to Henry VII. Trans. by C. Hulton. London, 1910.

يعتبر مؤلف فيلارى من أحسن ما كتب بالانجليزية عن تاريخ ايطاليا فى العصر الوسيط .

Zeller, J., Histoire d'Allemagne. 7 vols. Paris, 1872—92.

يتناول تاريخ المانيا منذ البداية حتى مارتن لوثر . ويهمنا الجزء الثالث ، وهو عن الامبراطورية الألمانية والكنيسة فى العصور الوسطى .

الفصل الخامس

إيطاليا بين البابوية والدولة البيزنطية

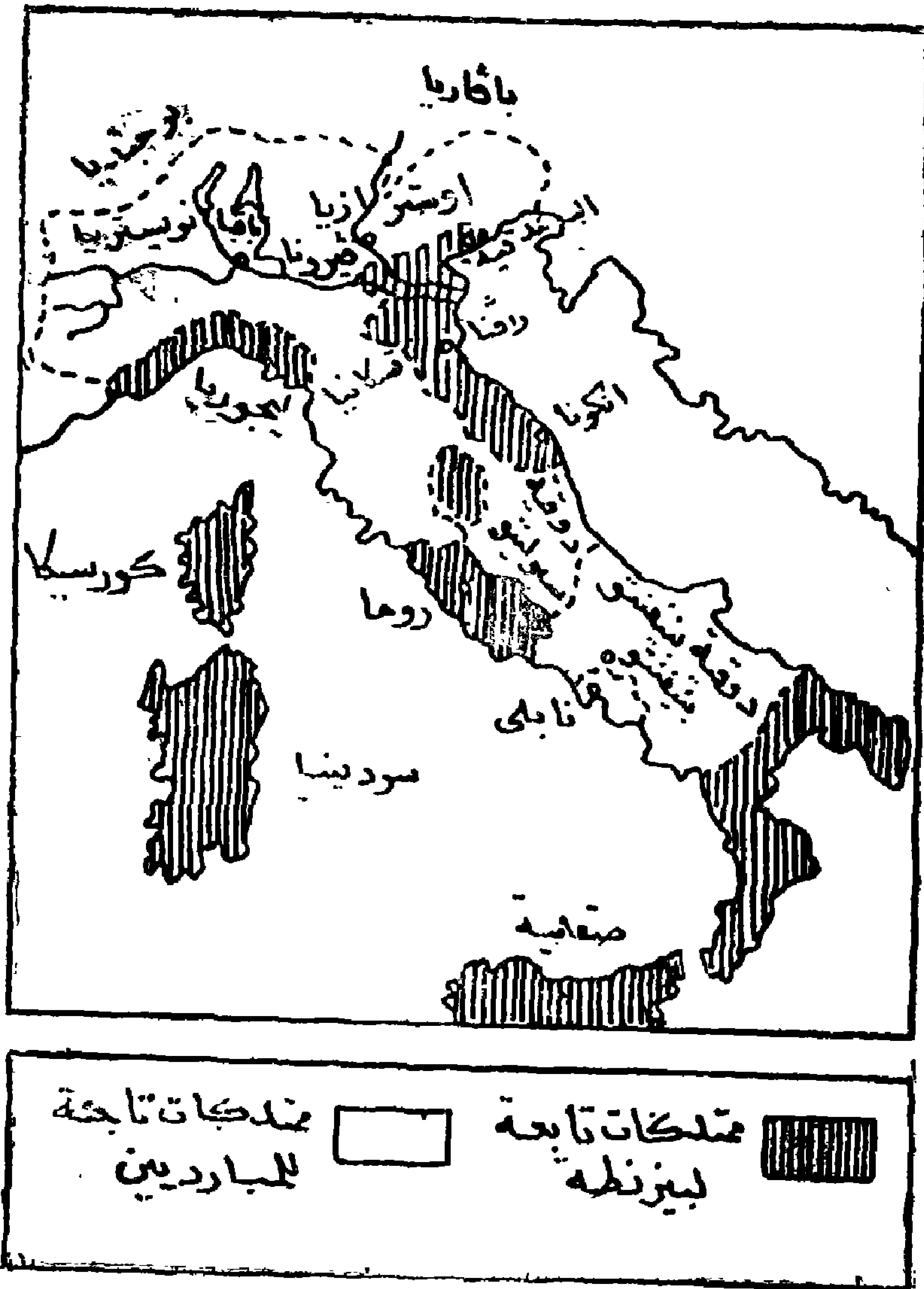
حد فاصل بين الشرق والغرب

تمدنا الأجزاء الإيطاليـة التى كانت أقل تأثرا بالنفوذ الجرمانى بصورة واضحة فيما نحن بصدده. فقد وجدت هناك سمات مجتمع بيروقراطى التنظيم مندمج مع معالم نظام يخضع للاقتصاد الطبيعى . وبوسعنا تلخيص التاريخ الإدارى للأقاليم الإيطالية التابعة لبيزنطـة ابتداء من القرن السادس حتى القرن الثامن باعتباره تجنيد للقاطعات الكبيرة وحصر للوحدات العسكرية فى دائرة محدودة . وقد دلت البحوث الأخيرة على أن ذلك كان نتيجة للتراجع الاقتصادى، واختفاء رأس المال ، ثم قيام حياة اقتصادية نشطة فى هذه الأقاليم الإيطالية . ولم يسفر إعادة فتح جستنيان لإيطاليا (١) عن شىء سوى قيام اتصال واهن

---

(١) كان جستنيان فى سياسته الخارجية يستهدف إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة بفتح ايطاليـا وافريقية وأسبانيا وكل الولايات التى كانت تدخل فى نطاق تلك الامبراطورية . وقد شجعه نجاح حملته ضد مملكة الوندال فى أفريقية الشمالية سنة ٥٣٣ على الاتجاه صوب مملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا التى كانت فى حالة ضعف وتفكك ، ويحكمها ملك غير محبوب من رعاياه يسمى ثيودوهات (٥٣٤ — ٥٣٦) . وتم ذلك فى سنة ٥٣٥. وهكذا كانت الظروف مهيأة لأن يحرز جيش جستنيان بقيادة بليزاريوس نصرا كبيرا فى ايطاليا . فبعد أن استولى القائد البيزنطى على صقلية عبر البحر إلى ايطاليا ، وسقطت نابلى وروما فى قبضته سنة ٥٣٦ . وفى تلك الأثناء ثار القوط على زعيمهم وذبحوه واختاروا ملكا آخر يسمى وتجز Witigis (٥٣٦ — ٥٤٠) . فتوجـه على رأس جيش قوطى كبير فى محاولة فاشلة لاسترداد روما . وكان بليزاريوس قد تلقى مددا جديدا من بيزنطة، فاتجه بجيشه

خريطة رقم (٤)



ايطاليا فى أواخر القرن السادس

ضعيف بين تلك البلاد النائيـة وقلب الإمبراطورية البيزنطية . كذلك لم تلفح

= نحو رافنا عاصمة القوط التى استسلمت له سنة ٥٤٠ ، ووقع وتجز أسيرا فى قبضته . واعتقد القائد البيزنطى أنه أتم مهمته فى ايطاليا ، وقفل عائدا إلى القسطنطينية بعد أن ترك لرجاله مهمة القضاء على آخر بقايا المقاومة القوطية هناك . وكانت بعض المدن لا تزال فى قبضة القوط مثل بافيا وفيرونا . وسرعان ما تطورت الأمور لصالح القوط الذين وجدوا لهم ملكا فى شخص =

الحكومة الإمبراطورية على الإطلاق فى إعادة كل من البيروقراطية العسكرية والبيروقراطية المدنيةفىالأقاليم التابعةلها فىإيطاليا إلىنفس المستوىالذى كانتا عليه فى الشرق . وقد أسفرت الثورة الايطالية ضد بيزنطة فى عهد ليو الأيسورى (١) (٧١٧-٧٤٠) عن التمازج بين ممثلى الإدارة البيزنطية المحليين وطبقةملاك الأرض، بحيث انحصر نطاق البيروقراطية البيزنطية الأصلية فى أضيق الحدود ، شأنها فى ذلك شأن شبكة واسعة تنتشر خيوطها المتفرعة فوق أقطار شاسعة . وكانت

= يسمى توتيلا Totila (٥٤١ — ٥٥٢) الذى أحرز عدة انتصارات على قوات جستنيان . وأخذت مدن ايطاليا الوسطى والجنوبيــة تسقط فى قبضة القوط . كذلك وقعت نابلى سنة ٥٤٣ ، وانتهى الأمر بوقوع روما نفسها سنة ٥٥٠ بعـــد أن عجز الجيش البيزنطى عن إنقاذها . ولــكن جستنيان جمع جيشا كبيرا على رأسه قائده المشهور نارسيس Narses الذى تمــكن من استعادة روما ثانية من القوط وإعادة ايطاليا إلى حــكم الامبراطورية الشرقية . أنظر عن ذلك أومان : نفس المرجـــع ، ص ٦٤ — ٧٦ ؛ وكذلك Ostrogrosky, op. cit., 65; LaMonte, op. cit., 54—7. — المترجم .

(١) شغل ليو الأيسورى الوظيفة الإمبراطورية فى وقت كانت فيه البلاد مسرحا للفوضى فى الداخل والخارج . وقد بدأ حكمه بصد الهجوم العربى على القسطنطينية سنة ٧١٧—٧١٨ . ولــكن عهده اشتهر بصفة خاصة بحملته على الأيقونات سنة ٧٢٥ عنــدما أمر بإزالة الصور والتماثيل من الــكنائس والأديرة فى العاصمة البيزنطية . وانقسمت الدولة ما بين مؤيد للحركة ومعارض لها . وعلى العموم فقد كان الجيش والمثقفون فى صف ليو ، بينما ثار ضده العامـــة ورجال الدين . واستخدم ليو القوة فى تنفيذ سياسته ليس فى القسطنطينية فقط وإنما فى كافة أرجاء الدولة . وقاومت الولايات الأوروبية ، وبخاصة ايطاليا ، إجراءات الامبراطور . وكان من أهم الآثار التى ترتبت على تلك الحركة فى ايطاليا أن ضعفت سلطة بيزنطةفيها ، وأصبح ممثل الإمبراطور البيزنطى فى روما مجرد شبح لا قيمة له . واستغلت البابوية فى روما تلك الظروف لتدعيم نفوذها واستقلالها على حساب القسطنطينية . فقاومت حركة تحطيم الصور مقاومة عنيفة اتخذت لها أكثر من مظهر يبدو فيما طرأ على العلاقات بين شقى العالم المسيحى وقتذاك . وكيفما كان الأمر فقد توفى ليو سنة ٧٤٠ بعد حكم دام قرابة ربع قرن ، تاركا العرش ومشكلة الحركة اللاأيقونية لابنه قسطنطين الرابع . أنظر ابراهيم العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية (١٩٥١)،ص٦٦وما بعدها ؛ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية، ص١٥٨وما بعدها ؛ وكذلك Ostrogorsky, op. cit., 142-4, 146-7; Sullivan, op. cit., 99-102; Runciman, Byzantiue Civilisation, 44. —المترجم .

بعض الوحدات العسكرية فقط تحت رئاسة القائد الأعلى فى المراكز الرئيسية ، بمثابة جند عاملين بيزنطيين . بينما جمعت معظم كتائب حاميات الإمبراطورية من القوات غير النظامية [المجندة من بين المستأجرين التابعين] تحت رئاسة الترابنة (١) tribuni الذين غدوا أعضاء فى طبقة ملاك الأرض الإيطاليين . وقد واظبت مختلف المقاطعات على دفع مبالغ محـــددة لمحصلى الضرائب الإمبراطوريين الذين كانوا يطالبون بها مرة واحدة فى السنة . ومن المحقق أن أقاليم وسط ايطاليا لم تسدد أية مبالغ من ضريبـة الأرض سواء للطبقة البيروقراطية أو للخزينة البيزنطية . ويبدو أنه قد تم توزيع إقطاعيات الدومين الإمبراطورى بقصد مساعدة كبار الموظفين الذين احتفظوا بطابعهم البيزنطى .

وكانت البابوية هى وريثة الإدارة البيزنطية فى وسط ايطاليا (٢) ، فقد ضمت

(١) الترابنة هم مندوبو العامة فى روما القديمة ، ومجال عملهم مجلس الشعب Comitia tributa . وكانت وظيفة التربيون مخصصة أصلا للدفاع عن حقوق الشعب . وبمرور الزمن تزايدت قوتها حتى فاقت سلطة الوظائف الأخرى . وهكذا أصبحت وظيفة للشعب الرومانى بأسره لمواجهة مجلس السناتو ، على الرغم من أن الترابنة لم يكن لهم صلة بشئون الحكم والإدارة ، ولــكن كان لهم حق الاعتراض على القوانين والقرارات التى يصدرها أى موظف عام . ولهم كذلك السلطة على جميع المواطنين الرومان . وكانوا دائما بحــكم القانون ، من أفراد الطبقة العامة . وقد كانوا فى البداية اثنين ، ثم أصبحوا خمسة ، وفى سنة ٤٥٧ ق.م زاد عددهم إلى عشرة ، وظلوا هكذا حتى نهاية تاريخ الامبراطورية الرومانية . وأشخاصهم لا يجوز التعدى عليها . أنظر : Cary, Hist. of Rome, 77, 80, 84, 116 - 7, 119, 121, 246, 291, 340, 364, 368, 390, 397; Smaller Classical Dict., 522. المترجم .

(٢) اهتمت البابوية بتــكوين ملك دنيوى لها وسط ايطاليا نتيجة للظروف والأحداث التى ألمت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، وبخاصة غزوات الجرمان التى قضت على الإمبراطورية الرومانية والمسيحية التى قضت على الوثنية وعبادة الإمبراطور . وكان ملــكها يشمل بصفة عامة المنطقة الواقعة بين البحرين الأبيض والأدرياتيكى . ومن أهم المشاكل التى واجهت الدويلات البابوية وأدت فى نهاية الأمر إلى ضعفها وانهيار حكومتها وتغلغل الفساد فى جهازها الــكنسى ، هو انغماس البابوات فى صراع عنيف مع القوى الزمنية الأخرى حول المسائل =

إليها بقايا البيروقراطية البيزنطية وهى فى مرحلة التدهور والانهيار . وكانت لا تزال هنـــاك وظائف يتم التعيين فيها سنويا عن طريق « أوامر تكليف » praecepta actionis ، وكانت التزاماتها المالية حيال الخزانة تسوى بمبلغ معلوم ، ويطلق على هـذه الطريقة لفظ « حق الانتخاب »(١) suffragium . فضلا عن وجود إدارة بابوية تتولى شئون إقطاعيات الكنيسة إرث القديس بطرس . كما كانت توجد وظائف بالمحكمة البابوية فى روما مختصة بشئون الإدارة الكنسية . ويمكن تلخيص التاريخ الداخلى للدويلات البابوية ، بعد أن أدت « هبة بين »(٢) Pepin's donation إلى تعزيز استقلالها السياسى عن بيزنطة ،

= العلمانية ، ومحاولتهم السيطرة على إيطاليا بأية وسيلة ــ كل هذا أضعف من هيبة البابوات ونفوذهم فى أواخر العصر الوسيط ، وأوجد فى شبه الجزيرة الإيطاليـــة حالة من الفوضى والاضطراب ، حتى باتت القوى الخارجية ، وبخاصة فرنسا وأسبانيا والنمسا ، تطمع فيها ، الأمر الذى أعاق تكوين الوحـدة الإيطالية حتى أخريات القرن التاسع عشر . أنظر : كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص ٧٥ وما بعدها ، وكذلك LaMonte, op. cit., 391-4; Baldwin, op cit., 46-58, 76-81. - المترجم .

(١) استخدمت هـذه الطريقة فى المقاطعات البيزنطية خلال القرن الخامس عندما كان حاكم المقاطعة يشترى منصبه بمبلغ معين من المال يذهب بعضه للامبراطور والبعض الآخر للوالى البريتورى . وما أن يتسلم الحاكم مهام منصبه الجديد حتى يسعى إلى تعويض ما دفعه بل وأكثر منه، مما يغتصبه من الضرائب المحلية. أنظر .Runciman, Byzantine Civilisation, 86 ؛ وترجمته العربية « الحضارة البيزنطية » ، ص ٩٥ ــ المترجم .

(٢) تنسب هذه الهبة إلى بين القصير الذى كان آخر وزراء الميروفنجيين وأول ملوك الأسرة الكارولنجية . وكانت كلمة بين هذا هى الكلمة العليا فى الحكومة الميروفنجية ، فى حين كان ملوك الدولة لا حول لهم ولا طول . لذا قرر بين فى أواسط القرن الثامن الاستيلاء على التاج الميروفنجى بالوسائل السياسية والدبلوماسية وليس عن طريق القوة . فأرسل بعثة من قبله إلى البابا زكريا (٧٤١ ــ ٧٥٢) فى روما يستفتيه إن كان من الأصوب أن يظل التاج الفرنجى على رأس من لا قوة له ، أو على رأس من بيده الحل والعقد وإن كان لا يحمل لقب الملك . وكان البابا زكريا سياسيا حكيما ، إذ أدرك أنه لا فائدة ترتجى من التمسك بملوك ضعاف ، خاصة وقد علم أن بين كان عازما فعلا على الاستيلاء على التاج . ووجد أن من الأصوب مماثلته =

بأنه كفاح فى سبيل السلطة بين البيروقراطية البابوية وملاك الأرض الذين احتفظوا لأنفسهم بمراكز هامة فى الإدارة الإقليمية . (١) وتمثل إمارة البريك(٢) Alberic فى القرن العاشر انتصار طبقة ملاك الأرض . وبقدر ما كانت البابوية سلطة إقليمية فى قلب إيطاليا ، شأنها فى ذلك شأن جيرانها ، كذلك كان انزلاقها إلى الاقطاعية ، ولكن باعتبارها سلطة عالمية لم يكن نطاق نفوذها وموارد دخلها قاصرين على الدويلات البابوية والأراضى المملوكة فحسب . إذ احتفظت البابوية البيروقراطية لنفسها بإمكانيات للعمل فى مجال لا سبيل للفكاك منه ، وذلك عن طريق تطبيق النظام الإقطاعى . وكان هذا المجال يبشر بآمال طيبة المستقبل .

وقد أدى إعادة تأسيس الإدارة البيزنطية فى جنوب ايطاليا فى نهاية القرن التاسع ، بعد الكارثة التى حلت بلويس الثانى (٣) ، وبعد معاودة الغزو

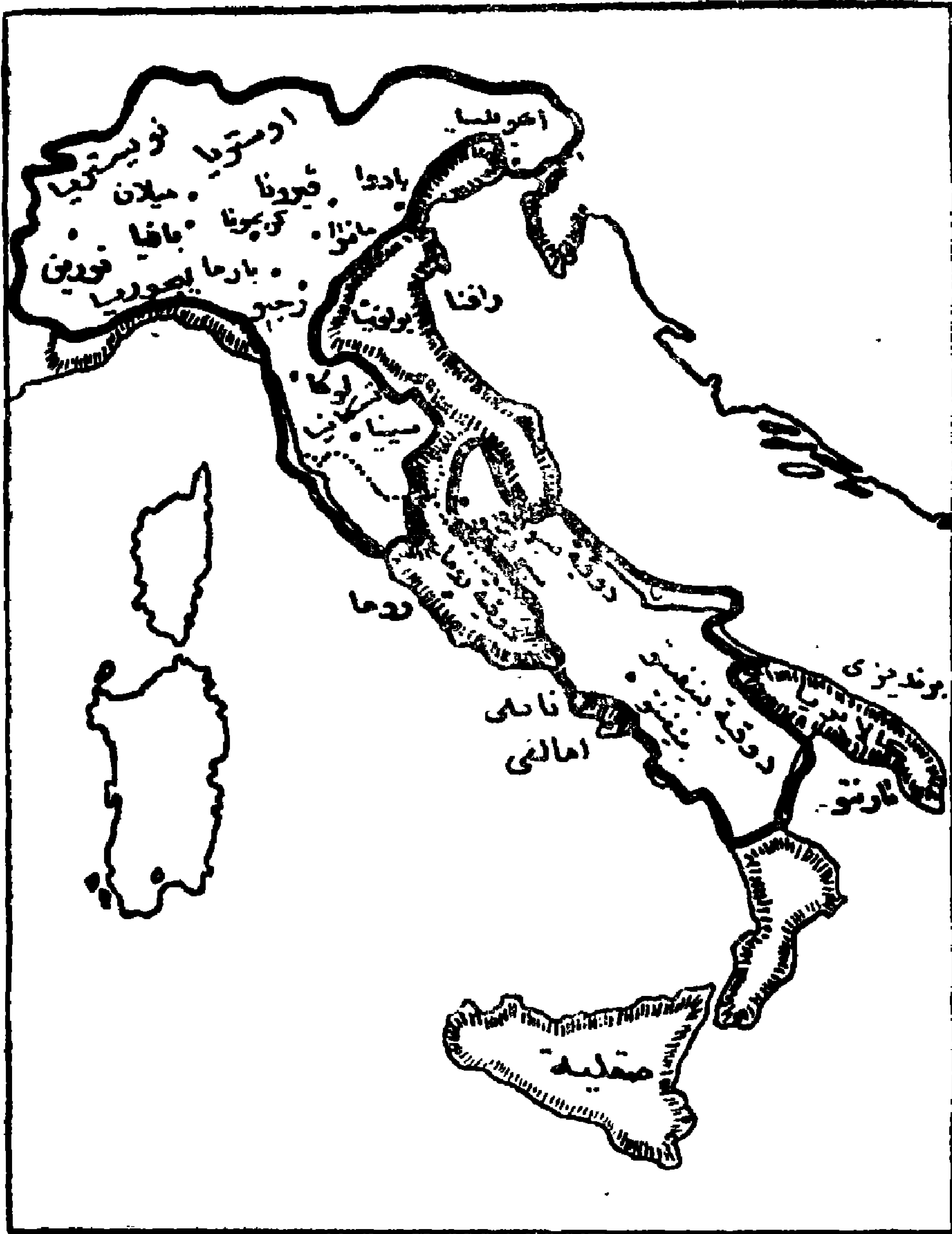
= وكسبه إلى جانبه . وكان أن أجابه إلى طلبه . فبادر بين على الفور بنقل التاج من آخر ملوك الميروفنجيين العاطلين وهو شيلدريك الثالث سنة ٧٥١ ، ذلك التاريخ الذى يعتبر بداية الدولة الكارولنجية . وفى سنة ٧٥٤ قدم البابا ستيفن الذى خلف زكريا إلى غالة حيث توج بين ملكا على الفرنجة . وهكذا تم تأسيس البيت الكارولنجى بمساعدة الكنيسة الرومانية ومباركتها . وفى نفس تلك السنة نزل بين فى إيطاليا وألحق الهزيمة باللمبارديين ، ومنح أرخونية رافنا إلى بابوية روما . وفى هذا الوقت أصدر بين الهبة المعروفة باسمه ، ومؤداها أنه قد وهب البابوية ، بالإضافة إلى كيانها الروحى ، جميع إيطاليا لتكون ملكا لها . أنظر إبراهيم العدوى : المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى ، ص ٧٤ — ٩٧ ؛ وكذلك LaMonte, op. cit., 155. — المترجم .

(١) فيما يتعلق بالبيروقراطية والأرستقراطية مالكة الأرض فى الدويلات البابوية ، أنظر Geschichte Italiens, III, 2, cap. 1 - 12.

(٢) فيما يتعلق بالبريك سناتور روما ، أنظر LaMonte, op. cit., 174 - 5 . المترجم .

(٣) بعد موت شارلمان خلفه على العرش الكارولنجى إبنه لويس الأول المعروف باسم لويس الصالح (٨١٤—٨٤٠) الذى قسم دولته بين أبنائه الثلاثة سنة ٨١٧ . وبعد موته نشبت الحرب بين أبنائه وقد انتهت بمعاهدة فردان سنة ٨٤٣ التى انقسمت الإمبراطورية بمقتضاها =

خريطة رقم (٥)



▬▬▬	حدود مملكة لمبارديا حوالى سنة ٦٠٠
‖‖‖‖‖	حدود اكسرخية ايطاليا حوالى سنة ٦٠٠
......	حدود الدويلات البابوية حوالى سنة ٧٠٩

ايطاليا خلال القرنين السابع والثامن

بقيادة الامبراطور المشهور نقفور فوكاس (١) ، أدى إلى قيام نموذج مغاير بقصد إيجاد التوازن بين طبقة ملاك الأرض والطبقة البيروقراطية . وهنا أوجد

= إلى ثلاثة أقسام : القسم الغربي ويشمل فرنسا ، والشرق ويشمل ألمانيا ، والثالث عبارة عن ممر طويل بين القسمين الآخرين ويشمل مقاطعات فريزيا ولوثارنجيا وبرجنديا وبروفانس ولمبارديا وبقية إيطاليا من بحر الشمال إلى البحر المتوسط . وقد حمل الحاكم على هذا القسم الأخير وهو لوثير (٨٤٠ ـ ٨٥٥) لقب الإمبراطور . وانقسمت بموته مملكته بين أبنائه الثلاثة لويس الثاني (٨٥٥ ـ ٨٧٥) وتركت له إيطاليا ، ولوثير (٨٥٥ - ٨٦٩) وتركت له أراضي الشمال حتى الألب أي اللورين ، بينما كانت بروفانس من نصيب شارل (٨٥٥ـ٨٦٣) . وقد آل اللقب الإمبراطوري إلى لويس الثاني . وكانت هذه هي فترة تدهور الإمبراطورية الكارولنجية وذهاب أملاكها إلى ممثلي الأسرتين الباقيتين . وتظل الأحوال غير مستقرة بعض الوقت إلى أن تقوم أسرة كابيه بفرنسا (٨٨٨ ـ ١١٣٧) وأسرة السكسون في ألمانيا (٩١٩ ـ ١٠٥٦) . وبقيام الأسرة السكسونية تنبعث الفكرة الإمبراطورية من جديد في وقت كان قد اشتد فيه ساعد البابوية . ويكون هذا في الواقع بداية عصر جديد ، يتميز بالكفاح المرير بين البابوية والإمبراطورية على المسائل العلمانية . أنظر ١٠١ . فازيلييف : العرب والروم ، ص ٢٣١ والحواشي ، وكذلك LaMonte, op. cit., 162 - 6; Sullivan, op. cit., 141 — 2; Shorter Camb. Med. Hist., I, 342 ff. ـ المترجم .

(١) حكم نقفور فوكاس من سنة ٩٦٣ إلى سنة ٩٦٩ . وقد بادر فور توليه الحكم بالزواج من أرملة سلفه المسماه ثيوفانو حتى يضفي على حكمه صبغة شرعية . وهكذا أصبح إمبراطورا ووصيا على طفلي سلفه القاصرين بازيل وقسطنطين . وعارضت الكنيسة أمر زواجه ، فانتقم منها ومن رجالها . ولعل أهم ما يميز حكمه هو حروبه الخارجية ضد العرب . أما عن موقفه من الغرب ، فقد رفض الاعتراف بفتوحات امبراطور الغرب أوتو الثاني في جنوب إيطاليا سنة ٩٦٨ . وجدير بالذكر أن تلك الفترة التي تميزت بالتوسع الخارجي للامبراطورية البيزنطية ، قد شاهدت كذلك تجديد الإمبراطورية الغربية . وكان أن ثارت من جديد عوامل المنافسة بين هاتين الإمبراطوريتين ، وهي منافسة لها وجهان : أحدهما نظري والآخر سياسي . وإذا تحدثنا من الناحية النظرية ، يمكن القول بأن الفكرة الإمبراطورية كانت تقوم على وحدة الإمبراطورية ، أي على وجود إمبراطورية واحدة . ومع ذلك فقد وجدت إمبراطوريتان ، كل منهما تدعى أنها وريثة روما القديمة . ومن الناحية السياسية يمكن القول بأنه كان لكلا القوتين مصالح متشابكة في جنوب ايطاليا . ففي سنة ٩٦٨ أرسل أوتو الكبير ، الذي توج امبراطورا في روما قبل اعتلاء نقفور فوكاس العرش بسنة واحدة ، =

البيزنطيون وحدتين إداريتين يطلق على كل منهما لفظ « ثياتا » [١] Themata أى ألوية الثغور . كما أدخلوا نظام البيروقراطية العسكرية بكامل أجهزتها بما فى ذلك المزارع البيتية للجند الذين تحملوا عبء الخدمة العسكرية . ومع ذلك لم يكن من الميسور الحيلولة دون استثناء قيام طبقة ملاك الأرض بمهام السلطة الإدارية فى المناطق الخاضعة للنفوذ اللباردى [٢] .

ولم تكن الإقطاعيات الكبرى هى وحدها التى تركت دون مساس بوصفها وحدات إدارية فى حوزة الملاك اللبارديين ، بل كانت معفاة أيضا من الضرائب المباشرة حسبما تؤكد المصادر التى تحت أيدينا . وكان الموظفون المحليون ، على

= والذى أخضع معظم ايطاليا لحكمه ، سفارة إلى القسطنطينية للوصول إلى اتفاق ودى حول موضوع تلك الأجزاء الإيطالية التى لم تكن قد خضعت له بعد . وقد عرض مبعوث أوتو ، وهو الأسقف ليوتبراند اوف كريمونا ، على الحكومة البيزنطية مشروعا يقوم على أساس زواج المصاهرة بين ابن أوتو الأول وبين إحدى الأميرات البيزنطيات يكون صداقها أملاك بيزنطة فى جنوب ايطاليا . واعتبر هذا العرض فى بيزنطة مثارا للسخرية ، وتم رفضه باحتقار . وأحس الحاكم البيزنطى أن مكانة امبراطوريته ومصالحها قد أهينت بسبب تلك الأحداث التى كان الغرب مسرحا لها . ومما أثار ضغينته حصول أوتو على التاج الإمبراطورى ، وسيادته على روما والكنيسة الرومانية ، وهيمنته على ايطاليا ، وتحالفه مع أميرى كابوا وبنيفنتو ، وهما من الأفصال التابعين للامبرطورية البيزنطية . وبلغ به الأمر أن هاجم مدينة بارى البيزنطية . كل هذا أثار حقد الامبراطور البيزنطى الذى أحس أكثر من أى وقت مضى بقوته ، خاصة بعد النجاح الباهر الذى حققته عملياته الحربية فى الشرق . وعلى أية حال ، فان كل ما خرج به مبعوث أوتو ، الذى عومل كسجين فى القسطنطينية ، هو أن سيده ليس امبراطورا ولا هو رومانيا ، وإنما مجرد ملك المانى فحسب ، وأنه لا مجال للتباحث فى مسألة زواج المصاهرة بين ابن حاكم من البرابرة وبين أميرة بيزنطية . أنظر السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٣٧٦ وما بعدها . راجع أيضا L. Bloy, Constantinople et Byzance (1917), 11—76; Ostrogorsky, op. cit., 253—9. — المترجم .

(١) فيما يتعلق بالثياتا ، أنظر ص ٩٩ و ح ٣ من هذا الكتاب — المترجم .

(٢) وهى الأراضى التى كانت تكون بصفة أساسية دوقية بنيفنتو ، ذلك اللباردى الكبير ، وتكتنفها من كل جانب مناطق جنوبى ايطاليا .

الرغم من ألقابهم البيزنطية ، يجندون من بين صفوف طبقة النبلاء اللبارديين . ولم يكن كبار القادة الإقليميين « Strategoi » يتقاضون مرتباتهم من خزينة الضرائب الإمبراطورية ، وإنما تركت لهم مهمة تحصيل دخلهم الخاص من الوحدات الإدارية [ألوية الثغور] . وكان ذلك تحولا كبيرا عن مبدأ المركزية . وهذا يعنى أنه كان يتعين عليهم أن يعيشوا بصفة أساسية على الدخل الذى يتقاضونه من أملاك الدومين المحلى .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كانت الحكومة البيروقراطية أمراً واقعا فى الأراضى التابعة لبيزنطة فى جنوب إيطاليا . ويتضح عملها فيما كان يجرى من الروتين اليومى للإدارة المدنية تحت رقابة موظفين مرسلين من قبل القسطنطينية . وقد اختصت السياسة العسكرية بإقامة الاستحكامات والعمل على صيانتها والمحافظة عليها ، كما اختصت بنشاط الأسطول البحرى . كذلك وجدت الألقاب البيزنطية طريقها إلى الإمارات اللباردية السابقة ، ولكن لم تكن توجد فيها إدارة بيزنطية .

لقد كان الإحساس بالتباين والاختلاف بين هذين النموذجين للدولة ، ونعنى الدولة الشرقية أو البيزنطية ، والدولة الغربية أو الجرمانية ، شديد الأثر على الفكر والعمل عندما التقى ممثلو الجانبين . وعبر عن ذلك الأسقف ليوتبراند أوف كريمونا (١) فى تقاريره العليلة عن سفارته إلى

---

(١) عاش ليوتبراند أسقف كريمونا فى القرن العاشر . وهو من الشخصيات البارزة فى إيطاليا . كان أبوه يعمل فى السلك الدبلوماسى ، وقد زار العاصمة البيزنطية كمبعوث من قبل الملك هيوج . ولم يمض وقت طويل على وفاة الأب (حوالى سنة ٩٢٧) ، حتى أرسل ليوتبراند ، وهو لا يزال صبيا صغيراً إلى بلاط بافيا لتلقى العلم . وكان ليوتبراند لا يزال فى البلاط بعد سقوط هيوج واعتلاء برنجار الثانى العرش . وفى سنة ٩٤٩ أرسله برنجار فى =

القسطنطينية .(١) وكان ذلك أيضا هو سبب الرهبة المشوبة بالاعجاب من جانب العالم الغربى حيال الجمهورية res publica فى الشرق . (٢) وهو ما أوحى أيضا بالشعور بالتفوق الذى تميزت به الدبلوماسية الامبراطورية فى بيزنطة ، فيما يتعلق بمعاملاتها مع الغرب المفلس الذى ساد الاعتقاد أنه من السهل رشوته بالمال ؛ بمعنى أنه كان واقعا تحت قوة إغراء المال فى القسطنطينية . ولقد واجه البيزنطيون نشاط الغرب الذى لا يكل ، كما واجهوا هزائمهم المتكررة ، بشعور من الإباء جدير بهم . وبدا لهم

= مهمة رسمية إلى الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع . ولكنه تعرض بعد عودته لاضطهاد برنجار وزوجته ويلا Willa ، فلجأ إلى أوتو الكبير الذى ضمه إلى حاشيته ، وفى سنة ٩٦١ أصبح أسقفا على كريمونا . وقام بدور بارز فى الاتصالات التى تمت بين أوتو والرومانيين . كما قام سنة ٩٦٣ بترجمة الخطبة التى ألقاها الإمبراطور الألمانى فى روما بعد تتويجه . وفى السنة التالية عكف على تدوين تاريخ رحلة أوتو إلى إيطاليا . وفى سنة ٩٦٨ ذهب ثانية إلى القسطنطينية مبعوثا من قبل أوتو للاتفاق مع الإمبراطور نقفور فوكاس على موضوع زواج المصاهرة بين ابنة الإمبراطور المسماة ثيوفانو وبين أوتو الصغير . وبعد حياة حافلة توفى ليوتبراند سنة ٩٧١ أو ٩٧٢ . لقد عاش هذا الرجل حياة مليئة بالأحداث الهامة التى عاصرها وكان شاهد عيان لها . كان مثقفا ثقافة طيبة ، يجيد اللاتينية واليونانية إجادة تامة . وكان يستخدم فى كتابته أسلوبا روائيا رائعا جعله محببا للقراءة . كما كان على صلة بكبار رجال عصره ، وموضع ثقة الكثيرين منهم . وأبدى مقدرة فائقة فى الشئون السياسية . وقام بتسجيل ذلك كله فى عدة كتب وأبحاث منها مؤلفه المعنون « تاريخ أوتو الأول » ، وتقريره المشهور عن سفارته إلى بيزنطة سنة ٩٦٨ . هذا ، ولا تخلو كتاباته من القدح والدعابات الفكاهية . ونجد مثلا واضحا لأهاجيه عندما تعرض لبرنجار فى كتابه المسمى « Antapodoses » الذى يتناول تاريخ ايطاليا والإمبراطورية الغربية فى الفترة من سنة ٨٨٧ إلى سنة ٩٥٠ . وأما عن دعاباته وتعليقاته اللاذعة فنجد مثلا لها فى تعرضه لأباطرة بيزنطة وبخاصة ليو بن بازيل . أنظر عن ذلك LaMonte, op. cit., 245—6; W. P. ker, The Dark Ages (1955), 180—5. — المترجم .

(١) Relatio de Legatione Constantinopolitana, cap. 53—55. وقد قام المؤرخ ف . ا . رايت F. A. Wright بترجمة مؤلفات ليوتبراند أوف كريمونا — أنظر ص ٢٦٦ — ٢٦٩ .

(٢) المقصود بذلك الإمبراطورية البيزنطية — المترجم .

« امبراطور الرومان الجديد » كما لو كان صورة كاريكاتورية الملك البيزنطى الذى عرف باسم باسيليوس (١) Basileus ، أى ملك الملوك ، وليس كشريك الند للند فى المفاوضات السياسية الدائرة بين الطرفين . وحتى عندما كانت الاتفاقات تنتهى إلى نتيجة ما ، كانت عادة تنتهى بقيام سوء التفاهم بينهما . هذا ، وينطوى الخطاب الشهير (٢) الذى وجهه الامبراطور لويس الثانى إلى بازيل الأول ، (٣) والذى دافع فيه عن أصالة الإمبراطورية ، على ما يثير الاهتمام .

---

(١) « باسيليوس » هو الاسم الإغريقى القديم لملك الملوك . وقد استخدم هذا اللقب لأول مرة كلقب يحمله الإمبراطور البيزنطى فى عام ٦٢٩ بعد أن ألحق هرقل هزيمة ساحقة بالفرس فى حروبه المضادة ضدهم . فأصبح الإمبراطور عادة يلقب منذ ذلك التاريخ باسم « باسيليوس » . ومما يذكر أن بيزنطة رفضت أكثر من مرة منح الأباطرة الألمان هذا اللقب . وقد أطلق اسحق أنجيلوس على الإمبراطور فردريك بارباروسا لقب « ملك ألمانيا » « rex Alamanniae » . وإن دل هذا على شىء فانما يدل على إصرار أباطرة بيزنطة على أنه ليست هناك سوى إمبراطورية واحدة ، يحرسها الله ويرعاها ، تلك هى الإمبراطورية الرومانية التى يمثلها الإمبراطور البيزنطى . أنظر رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٦٤ ؛ وكذلك Baynes & Moss, op. cit , 273. — المترجم .

(٢) الخطاب المذكور منشور فى مجموعة Monumenta Germaniae Historica Scriptores, III, 521—7.

(٣) حكم بازيل الأول من سنة ٨٦٧ إلى سنة ٨٨٦ . ولم تكن البلاد هادئة تماما عندما اعتلى العرش ، ومع ذلك فقد عرف كيف يهيىء لها سبل الاستقرار . وقد اتجه أول ما اتجه نحو الدولة العربية التى كانت تعانى من الضعف والتفكك وقتذاك . فأحرز عدة انتصارات من كيليكية إلى أرمينية . وترتب على ذلك أن أصبحت جميع المنافذ التى اعتاد العرب الزحف منها إلى آسيا الصغرى فى قبضة البيزنطيين . كذلك صاحب التوفيق بازيل فى غربى البحر المتوسط حيث كان المغاربة قد استولوا على كريت وصقلية وتارنتوم ، وضيقوا على تجارة بيزنطة فى تلك الجهات . وأصبحت سيادة العرب على البحر المتوسط فى أواخر القرن التاسع سيادة فعلية ، وكانت سفنهم تهاجم أملاك البابوية فى وسط ايطاليا . ولم يكن بوسع البابوية أو الدولة الكارولنجية دفع العرب بسبب المنازعات القائمة فى البيت الكارولنجى وأخطار الشماليين . لذلك لم يتردد كل من البابا الرومانى وامبراطور الدولة الكارولنجية فى طلب المساعدة من بازيل ضد العرب . وكان طبيعيا أن يرحب الإمبراطور البيزنطى بتلك الفرصة التى أتيحت له لاستعادة =

وكان الاسطول البيزنطى قد ظهر أمام مدينة بارى لمساعدة لويس الذى لم يكن يملك أسطولا يحاصر به تلك المدينة الساحلية المحصنة التى كانت بيد العرب . وحتى الى هذا الوقت تم تسريح الجيش الفرنجى - اللبارد ى المحاصر المدينة ، فيما عدا قوات المراقبة . وكانت الحملة قد طال بها المدى ، بحيث تم ترحيل الجند إلى ديارهم ، طبقا للعرف الجارى . وقد أدت العادة المتبعة الخاصة بتخزين المؤونة ، إلى إعاقة حملة طال مداها . وأما بازيل وقائده ، اللذان اعتادا قيادة القوات النظامية ، فقد اتهما لويس بالخيانة ، وقالا بأنه السبب فى عدم انتظار الجيش الفرنجى لحلفائه البيزنطيين . وحاول هذا الأخير ، المرة تلو الأخرى ، أن يعلل عبثا أسباب انسحاب القوات حسبما كان يراها من وجهة نظره .

وبعد جيل من ذلك التاريخ كانت نظرة الإمبراطور ليو العاقل (١) إلى

= النفوذ البيزنطى فى ايطاليا وفى غربى البحر المتوسط . وهكذا تدخل فى شئون ايطاليا سنة ٨٧٦ ، وأجلى العرب عن تارنتوم بعد ذلك بأربع سنوات . وأنشأ إقليمين بيزنطيين فى أملاك الدولة الكارولنجية التى بادرت إلى مساعدته والانضواء تحت لوائه . وبانتهاء الدولة الكارولنجية وقيام عدة دول مستقلة فى الغرب ، وهى فرنسا وألمانيا وبرجنديا وايطاليا ، خلا الجو لبيزنطة لتحقيق أطماعها القديمة فى ايطاليا بل وفى أوروبا كلها . هذا عن سياسة بازيل الخارجية ، أما فيما يتعلق بسياسته الداخلية فقد وفق فيها إلى حد بعيد ، حتى أنه طلب من لويس الثانى امبراطور الغرب أن تكون هناك إمبراطورية واحدة كما كان الحال فيما مضى ، وتلك الإمبراطورية هى الدولة البيزنطية دون سواها . وقد توفى بازيل فى ظروف أليمة سنة ٨٨٦ دون أن يحقق آماله الواسعة العريضة . أنظر عن ذلك : Diehl, L'empire byzantin, 98; Barker, op. cit., 20, 89 ff.; Ostrogorsky, op. cit., 207 ff. — المترجم .

(١) حكم ليو السادس المعروف بليو العاقل من سنة ٨٨٦ إلى سنة ٩١٢ . وقد نشأ فقيها يقرض الشعر . ولعل أهم ما يميز حكمه مسألة التنظيم الإدارى ومشكلة وراثة العرش . إذ تطورت فى عهده مسألة إيجاد وريث للعرش إلى تعزيز الحق الشرعى لأبناء الأباطرة . وهكذا تم ربط أبناء البيت المقدونى بالدولة البيزنطية ربطاً متينا ، بعد أن جعل ليو لمبدأ الوراثة مكانته فى التشريع البيزنطى . وقد امتد نشاط ليو إلى التأليف فى شئون الدولة =

طابع النظام العسكرى لدى أولئك البرابرة الغربيين تتميز بكونها أكثر عمقا.(١) فقد كشفت تقارير قواده أن قوات الغرب لم تكن مسلحة على نسق واحد، ولم تكن متجمعة فى تشكيلات حربية منظمة. كذلك لم تكن هناك خطط منسقة للقتال، ولم تكن القوات تحتل مواقع محصنة بالاستحكامات. وكان يتم قيادة تلك القوات دون أى نظام، ودون بعد نظر. كما كان الجند يتفرقون عندما يطول بقاؤهم تحت السلاح. وأدرك الامبراطور تفوق الأسلوب البيزنطى فيما يتعلق بالتدريب العسكرى والنظم والتكتيكات الحربية، وفى إعداد استراتيجية جديدة بالتخطيط لها مقدما. وكان للدال، من وجهة نظر الإمبراطور، مزايا إضافية تتمثل فى مدى تأثيره على معنويات العدو، وفى حيازة أسطول قائم.

= وأنظمتها. ومن أهم مؤلفاته كتاب «المحتسب البيزنطى» وكتاب «البروتوكول الامبراطورى» وثالث فى فن الحرب، وآخر عن التنبؤات، ومؤلف عن مستقبل بيزنطة. ونشاطه واضح فى ميدان التشريع، إذ أشرف على جمع مجموعة من القوانين الإمبراطورية منذ جستنيان، وهى تقع فى ستين مجلدا. أنظر عن ذلك Barker, op. cit., 9,99—100; Hussey, op. cit., 93—4, 121, 132, 148; Baynes & Moss, op. cit., 112, 208. المترجم.

(١) فيما يتعلق بتكتيكات ليو الحربية، أنظر Migne, Patrologia Graeca, vol. 107, col. 965 D.

بعض المراجع للفصل الخامس

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1960.

Barry, W., The Papal Monarchy from St. Gregory the Great to Boniface VIII (590—1303). London, 1902.

Blasel, K., Die Wanderzüge der Langobarden. Breslau, 1909.

Bury, J. B., The Naval Policy of the Roman Empire in Relation to the Western Provinces from the Seventh to the Ninth Centuries. Palermo, 1910.

Cantu, C., Histoire des Italiens. French trans. by A. Lacombe. 12 vols. Paris, 1859—62.

Capasso, B., Le fonti della storia delle provincie napolitane dal 568 al 1500. Re—edited by E. O. Mastrjani. Naples, 1902.

Cappelletti, L., Storia d'Italia. Vol I (476—1559). Milan, 1917.

Cipolla, C., Pubblicazioni sulla storia medioevale italiana. Venice, 1914.

Cohn, W., Die Geschichte der normannisch-sicilischen Flotte. 3 vols. Breslau, 1910—26.

Dopffel, H., Kaisertum und Papstweschel unter den Karolingern. Freiburg, 1889.

Duchesne, L., Les premiers temps de l'état pontifical. Paris, 1912.

Egidi, P., La storia medioevale. Rome, 1922.

ويتضمن هذا الكتاب بيانا بالمؤلفات التى ظهرت فيما بين عامى ١٨٦١ و١٩٢١ ، والتى تتناول الفترة من منتصف القرن الخامس حتى نهاية القرن الخامس عشر .

Freeman, E. A., Historical Essays. 4 Series in 4 vols. London, 1871 ff.

Gabotto, F., Storia dell'Italia occidentale nel medio evo, 395—1313. 1912 ff.

Gay, J.,

1 — L'Italie méridionale et l'empire byzantin, 867—1071. Paris, 1904.

2 — Les papes du XIe siècle et la chretienté. Paris, 1926.

Gregorovius, F., History of the City of Rome in the Middle Ages. Trans. from the German by Annie Hamilton. 8 vols. in 13. London, 1894—1902.

Guldencrone, D. de, L'Italie byzantine. Etude sur le haut moyen-âge, 400-1050. Paris, 1914.

Halphen, L., Etude sur l'administration de Rome au moyen âge (757—1282). Paris, 1907.

Hartmann, L. M.,

1 — Untersuchungen zur Geschichte der byzantinischen Verwaltung in Italien (540—750). Leipzig, 1889.

2 — Geschichte Italiens im Mittelalter. 4 vols. Leipzig, 1897—1915. Cf. Vol. I : Das italienische Königreich, Gotha, 1923.

وهو يعتبر حتى الآن أفضل مرجع موثوق به عن ايطاليا فى العصر الوسيط.

Haskins, C. H., The Normans in European History. New York, 1959.

Heimbucher, M., Die Papstwahlen unter den Karolingern. Augsburg, 1889.

Hodgkin, T., Italy and her Invaders. 8 vols. in 9. Oxford, 1880—99 (2 nd ed., of vols. I—VI, Oxford, 1892-1916).

Jamison, E. M. and others, Italy, Mediaeval and Modern : A History. Oxford, 1917.

Manfroni, C.,

1 — Storia della marina italiana dalle invasioni barbariche al trattato di Ninfeo (1261). Leghorn, 1899.

2 — Storia della marina italiana (1261—1453). 2 vols. Leghorn, 1902.

Mathew, A. H., The Beginnings of the Temporal Sovereignty of the Popes. London, 1908.

Maycock, A., The Papacy. London, 1928.

Mckilliam, A., A Chronicle of the Popes from St. Peter to Pius X. London, 1912.

Moss, H. St. L. B., The Birth of the Middle Ages, 395—814. London, 1937.

وقد قام بترجمته إلى العربية الاستاذ عبد العزيز توفيق جاويد تحت اسم « ميلاد العصور الوسطى » .

Pace, B., I barbari e i Bizantini in Sicilia : studi sulla storia dell'isola dal sec. V al IX. Palermo, 1911.

Schwartz, C., Die Feldzüge Robert Guiscard's gegen das byzantinische Reich. Fulda, 1854.

Sismondi, J. C. L. S. de, History of the Italian Republics in the Middle Ages. English Trans. by W. Boulting. London (ca. 1905).

وهو عبارة عن تاريخ عام لايطاليا فى العصور الوسطى .

Tafel, G. L. F., Komnenen und Normannen. Part II. Stuttgart, 1870.

Troya, C, Storia d'Italia del medio evo. 17 vols. Naples, 1839-59.

ويشغل الفترة من سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب حتى نهاية مملكة اللمبارديين . والكتاب له أهميته وقيمته من الناحية التاريخية .

خاتمة

التطور الاقتصادى والتباين الادارى

لقد ميز هذا البحث بين شكلين للدولة عاشا معا خلال الألف سنة الأولى من المسيحية ، فى حضارات تتألف من عناصر إغريقية ورومانية ومسيحية وجرمانية . وكان أحد الشكلين ، وهو الطراز الشرقى ، يتميز باستمراره على العمل فى نطاق أجهزته الإدارية . بينما ظل النشاط السياسى فى الغرب رهنا بالظروف وفى حالة من التوتر . وكان النشاط الحكومى فى الشرق أشد وأقوى مما هو فى الغرب ، كما كان يتميز بالمركزية . هذا ، بينما أصبح الحائزون على الإقطاعيات الكبرى فى الغرب ملاكا مستقلين يتمتعون بوظائف عامة . أما فى الشرق فقد كانت الإقطاعيات الكبرى ، طالما ظلت باقية ، خاضعة للدولة . ومن ثم يعزى الاختلاف بين هذين الشكلين للدولة إلى التباين الاقتصادى ، ما بين اقتصاد اقطاعى ذى كفاية ذاتية وبين اقتصاد نقدى . ويمكن استخدام المال كوسيلة للتعامل عندما يكون هناك تخصص فى الإنتاج . وهذا افتراض مقدم تقتضيه الضرورة ، فضلا عن أهميته بالنسبة لكل نظام ضرائبى يهدف إلى الدفع الفورى .

وليس باستطاعة أى هيئة من المأجورين المتخصصين ومن المستخدمين المدنيين الموضوعين تحت رقابة دقيقة ، أداء عمل ما إلا على هذا الأساس . بينما كان يتعين على المجتمع فى ظل ظروف أكثر بدائية أن يعتمد إما على العمل الإجبارى عن طريق سكان يقومون بأداء الخدمات المحلية ، أو على العمل المستقل الذى تؤديه الوظائف العامة بفضل كبار موظفى الدولة . وإن توفر الاقتصاد النقدى يؤدى إلى تمكين الدولة من جمع الدخول التى تسمح بإقامة جهاز دائم والعمل على صيانته ، وبخاصة ما يتعلق بتدرج الموظفين العموميين ، وتشييد استحكامات مزودة بحاميات مستديمة ، وإعداد أسطول بحرى يصحبه طاقم

مدرب من البحارة . ويمكن مقارنة هذه الأنظمة بالاستثمارات التى تؤدى إلى زيادة الانتاج عن طريق رأس المال الخاص ، وهو مالا يتسنى تحقيقه إطلاقا دون توفر الاقتصاد النقدى .

هذا فى الشرق ، أما فى الغرب فلم يتغير شكل الدولة إلا تغيرا تدريجيا . وتم هذا التغيير ، فى المرتبة الأولى ، فى تلك الجهات التى تطور فيها الاقتصاد النقدى . ولقد كانت البندقية ، نظرا لمركزها الجغرافى الخاص [ولحاجتها إلى الموارد الزراعية] ، مضطرة إلى الأخذ بنظام الاقتصاد النقدى . ومن ثم جمعت أسطولا فى وقت لم تستطع فيه الامبراطورية الغربية الاحتفاظ بسفينة واحدة فى الخدمة . وقد ظل كل من الأسطول البحرى والدولة تحت رقابة الدوج (١) Doge ، طالما كان صاحب هذا المركز الكبير يؤدى دورا بارزا فى التجارة . وبعد ذلك آلت السلطة الفعلية إلى أيدى كبار تجار . وحدث مثل هذا التطور ، على سبيل المثال ، فى ألمانى .

---

(١) الدوج هو حاكم البندقية . والبندقية هى إحدى المدن البحرية الإيطالية التى كان لها نشاط تجارى كبير مع بيزنطة ومع كل من الشرقين الأوسط والأقصى فى الفترة الوسيطة من التاريخ . ويرجع ذلك إلى موقعها الجغرافى الممتاز . فهى تقع على رأس البحر الأدرياتى الذى كان يعتبر أعظم طريق بحرية لتجارة العصور الوسطى . ثم هى فى موقع متوسط بين الشرق والغرب ، فضلا عن كونها ميناء من موانى البحر المتوسط . كل هذا أكسبها ميزات حسدتها عليها كثير من الدول وتنافسها . وقد لعبت البندقية دورا هاما فى فترة الحرب الصليبية التى وجدت فيها فرصتها العظيمة للربح والإثراء ، حتى أصبح حاكمها الدوج بعد الحملة الرابعة على القسطنطينية هو الحاكم المطلق على أربعة بحار هى البحر الأدرياتى والبحر الإيجى وبحر مرمرة والبحر الأسود . فضلا عن أن سفنه كانت ترتع فى البحر المتوسط . أنظر عن ذلك كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص ١٦٦ و ١٦٨ و ١٨٩ ، وكذلك E. Power, Medieval People (1954), 36, 39—41, 62, 187—8; Heer, op. cit., 56, 57. ويقول المؤرخ شارل ديل إن الدوج كان يرمز إلى أبهة البندقية ، وكان يحاط بمظاهر العظمة فى الحفلات باعتباره الحاكم الأعلى للجمهورية . وهو يأتى فى المكانة والمرتبة بعد البابا والأباطرة والملوك . ومن حقه كذلك استقبال السفراء ورئاسة جميع المجالس فى البندقية ، وهى المجلس الكبير ومجلس الشيوخ ومجلس العشرة ، وتوقيع المراسيم بإسمه وضرب النقود =

خريطة رقم (٦)



النورمان فى جنوب ايطاليا وصقلية

أما فى شمال إيطاليا ، فقد تطورت المدن تحت تأثير التجارة فى سهل نهر البو . ومعروف جيدا أنه ظهرت فى فلورنسة وكافة المدن الإيطالية أنظمة سياسية جديدة ، فى الوقت الذى أخذت فيه الطبقة المتوسطة . المنظمة فى شكل نقابات تجارية ومهنية (١) ، فى سلب السلطة والرقابة من حثالة الريفيين المالكين للأرض . وبنفس هذه الطريقة يمكن كذلك ملاحظة عودة الاقتصاد النقدى إلى الظهور على المسرح الأوروبى وراء قيام سلطة ملكية فى دولة النورمان بجنوب إيطاليا ، (٢) التى قامت بوصفها امتداداً للنظام الإدارى البيزنطى والعربى . وكان المفروض أن يستكمل هذا النظام فيما بعد على يد آل هوهنشتاوفن . وسارت فى نفس الاتجاه محاولات كل من فردريك بارباروسا وفردريك الثانى فى سبيل تحويل حكومة شمال إيطاليا ووسطها نحو السلطة البيروقراطية المركزية . وترجع جذور هذه التطورات فى باقى أجزاء أوروبا إلى تذويب حكم صاحب الأرض عن طريق استخدام الاقتصادى النقدى .

= برسمه . ومع ذلك فقد كان الدوج فى الحقيقة يملك ولا يحكم . إذ كان مستشاروه يراقبون عمله . وكان من الممكن عزله بقرار يصدره مجلس الشيوخ . ويلخص ديل ما سبق بقوله « ولن نجد حكومة دستورية قيدت رئيسها بأكثر مما فعلت البندقية بدوجها » . أنظر ش . ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (١٩٤٨) ، ص ٨٥ — ٨٦ . المترجم .

(١) فيما يتعلق بنقابات المهن والتجاره بصفة عامة ، أنظر كولتون : نفس المرجع ، ص ١٥١ وما بعدها ؛ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ج ٢ ، ص ١٠٧-١١١ ؛ وهيب ابراهيم سمعان : نفس المرجع ، ص ٤٧-٥٣ ؛ وكذلك H. Pirenne, Medieval Cities (1948), 85, 133—4; W. Firebaugh, The Inns of the Middle Ages, Chicago, 1924; C. Gross, The Gild Merchant, 2 vols., Oxford, 1890 ; G. Renard, Guilds in the Middle Ages, tr. by G. H. D. Cole, London, 1919; G. Unwin, The Gilds and Companies of London, 1988. — المترجم .

(٢) عن دولة النورمان بجنوب ايطاليا ونظمها ، أنظر شارل هومر هاسكنز : C. H. Haskins, The Normans in European History (1959), 192 ff.; idem, Norman Institutions, New York, 1960. — المترجم .

بعض المراجع للخاتمة

Ady, C. M., A History of Milan under the Sforza. London, 1907.

Arias, G., Il sistema della costituzione economica e sociale italiana nell'età dei comuni. Turin, 1905.

Battistella, A., La repubblica di Venezia. Bologna, 1897.

Bent, J. T., Genoa : How the Republic Rose and Fell. London, 1881.

Bricbser, N., The Story of Pisa. London, 1909.

Brown, H. F.,

1 — Venice : A Historical Sketch of the Republic. London, 1895.

2 — The Venetian Republic New York, 1902.

3 — Studies in the History of Venice. 2 vols. New York, 1907.

Canale, M. G., Nuova storia della repubblica di Genova. Vols. I—IV (to 1528). Florence, 1858—64.

Capponi, G., Storia della repubblica di Firenze. 3 vols. Florence, 1875—88.

Carden, R. W., The City of Genoa. London, 1908.

Caro, G.,

1 — Studien zur Geschichte von Genua, 1190—1257. Strasburg, 1891.

2 — Genua und die Mächte am Mittelmeer, 1257—1311. 2 vols. Halle, 1895—99.

Chalandon, F., Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, 1009—1194. 2 vols. Paris, 1907.

Clarke, M. V., The Medieval City State. An Essay on Tyranny and Federation in the Later Middle Ages. London, 1926.

Cohn, W., Das Zeitalter der Normannen in Sizilien. Bonn, 1920.

Crawford, F. M.,

1 — The Rulers of the South, Sicily, Calabria, Malta. 2 vols. New York, 1901.

2 — Salve Venetia: Gleanings from Venetian History. 2 vols. New York, 1906.

Curtis, E., Roger of Sicily and the Normans in Lower Italy, 1016—1154. New York, 1912.

Cusani, F., Storia di Milano. 8 vols. Milan, 1862—84.

Daru, Le Comte, Histoire de la république de Venice. 10 vols. Bruxelles, 1840.

Davidsohn, R., Geschichte von Florenz. 4 vols Berlin, 1896—1927.

وهو من أهم المراجع عن تاريخ فلورنسا فى العصر الوسيط ، إن لم يكن أهمها على الاطلاق . وله ترجمة بالايطالية .

Delarc, O., Les Normands en Italie, depuis les premières invasions jusqu'à l'avènement de S. Grégoire. Paris, 1883.

Diehl, C., Une république patricienne : Venise. Paris, 1915.

Donower, F., Storia di Genova. Genova, 1890.

Fanucci, G. B., Storia dei tre celebri popoli marittimi dell'Italia, Veneziani, Genovesi e Pisani. 4 vols. Leghorn, 1853—55.

Formentini, M., Il ducato di Milano. Milan, 1877.

Giannone, P., Storia civile del regno di Napoli. 5 vols. Milan, 1844—47.

Giulini, G., Memorie spettanti alla storia di Milano. 7 vols. Milan, 1854—57.

والكتاب لا يزال يعتبر حتى الآن من أهم المراجع عن تاريخ ميلان .

Hazlitt, W. C., The Venetian Republic : Its Rise, its Growth, and its Fall, 409—1797. 2 vols. London, 1915.

Heinemann, L. v., Geschichte der Normannen in Unteritalien und Sicilien bis zum Aussterben des normannischen Königshauses. Vol. I, to 1085. Leipzig, 1894.

Heyck, E., Genua und seine Marine im Zeitalter der Kreuzzüge. Innsbruck, 1886.

Hodgson, F. C., Venice in the 13th and 14th Centuries (1204—1400). London, 1910.

Kretschmayer, H., Geschichte von Venedig. Vols. I—II (to 1516). Gotha, 1905—20.

MoClellan, G. B., The Oligarchy of Venice : An Essay. Boston 1904.

Meo, A. di, Annali critico-diplomatici del regno di Napoli. 13 vols. Naples, 1758–1819.

Molmenti, P. G., Venice : Its Individual Growth from the Earliest Beginnings to the Fall of the Republic. Trans. from Italian by H. F. Brown. 6 vols. London and Chicago, 1906—08.

Musatti, E., La storia politica di Venezia secondo le ultimi ricerche. Padua, 1897.

Napier, H. E., Florentine History. 6 vols. London, 1846—47.

Noyes, E., The Story of Milan. London, 1908.

Okey, T., Venice and its Story. New York, 1910.

Oliphant, M., Makers of Venice : Doges, Conquerors, Painters, and Men of Letters. London, 1889.

Perrens, F. T.,

1 — Histoire de Florence jusqu'à la domination des Médicis. 6 vols. Paris, 1877—84.

وهو أفضل ما كتب باللغة الفرنسية عن فلورنسة فى العصر الوسيط .

2 — Histoire de Florence depuis la domination des Médicis jusqu'à la chute de la république, 1434—1531. 2 vols. Paris, 1881.

وله ترجمة باللغة الإنجليزية .

Richardson, A.. The Doges of Venice. London, [1914].

Staley, E., The Guilds of Florence. London, 1906.

Thayer, W. R., A Short History of Venice. London and New York, 1905.

Trollope, T. A., History of the Commonwealth of Florence. 4 vols. London, 1865.

Varese, C., Storia della repubblica di Genova. 7 vols. Genoa, 1853—57.

Verri, P., Storia di Milano. Florence, 1851 ff.

Wiel, A., The Navy of Venice. London, 1901.

البحث الثانى

الإمبراطورية فى العصور الوسطى

فكرة وحقيقة

هذه ترجمة البحث التالى :

G. Barraclough, The Mediaeval Empire : Idea and Reality. [Historical Association Pamphlet No. 17, London, 1959].

مقـــدمة

بقـــلم

ج. باراكلاف

يحتوى هذا المقال المختصر ، الذى يحـاول المستحيل ، على النص الأصلى لمحاضرة أدخلت عليها تعديلات طفيفة . وقد أعدت المحاضرة وتم تلاوتها فى الاجتماع السنوى للجمعية التاريخية بلندن فى السادس من يناير سنة ١٩٥٠ . ولم أعمل على طمس معالم الأصل . وسواء أكان هـذا الأصل صحيحاً أم مشوباً بالخطأ ، فيبدو أنه ليس هناك جديد يمكن إضافته إليه ، أو أن شيئاً قد انتقص بتحويل المحاضرة إلى مقال .

وسيتضح لجميع القراء أن محاولة نقل مثل هذا الموضوع الهام الـكبير إلى مجرد مقال ، يستلزم إحلال الأمور اليقينية الثابتة محل النقاط موضع الخلاف ، مع التجاوز عن كافة المسائل التى لا ضرورة لها فى سياق الحديث . وهناك بدون شك إختلاف فى الآراء فيما يمكن اعتبـاره هاما وضروريا أو العـكس . وإذا كـنت قد تغاضيت عن عدد من النظريات الهامة ، فليس هناك داع للقول بأن ذلك لا يرجع إلى عدم معرفتى بها . وأعتقد أنه ستواجه القارىء المتعمق فى هذا الموضوع بعض الصعاب لإدراك الأمور الخاصة بمختلف وجهات النظر التى أعربت عنها . وسوف يدرك ، على سبيل المثال ، أننى فيما يتعلق بكافة الملاحظات الشديدة الاقتضاب الخاصة بشارل العظيم ، قـــد أسهمت بجهدى مع المدرسة الرومانسية . إذ قمت بشرح وتفسير الحجج والاستنتاجات الهامة ، ما ضاق

نطاقها وما اتسع ، والتي عبر عنها بصورة دامغة ولهلم سيكل[١] Wilhelm Sickel .
ولا يسعنى فى الوقت الحاضر أن أخطو إلى أبعد من ذلك . ولو كنت قد زودت البحث بهوامش خاصة بالمراجع ، لتضاعف حجمه ، وقد يكون مع ذلك ضئيل القيمة . وفى الواقع ربما تكون مثل هذه الحواشى مضللة خادعة ، إذا لم أتناول بالدراسة الواعية أسباب تأييد رأى معين وصرف النظر عن رأى آخر . وأعتقد أنه قد يطول بى الزمن قبل أن أكتب بتفصيل وإسهاب فى هذه المشكلة المثيرة للايحاء . ولا شك أنها أعظم مشكلة من نوعها فى مجال التاريخ الوسيط قاطبة . وعلى القارىء الذى يجد ، لسبب ما ، أنه قد خدع بسبب افتقار المقـال إلى الهوامش والمراجع والمناقشات ، عليه أن يترقب ظهور الكتاب الكامل فى هـذا الموضوع . وأرجو أن يتضمن الكتاب الحجج والأدلة والبراهين التى تعزز وجهات النظر والتأكيدات المعروضة فى هذا البحث [٢] .

ج. باراكلاف

---

(١) يعتبر البحثان التاليان من أهم ما كتب ولهلم سيكل : W. Sickel, «Die Verträge der Päpste mit den Karolingern,» Deutsche Zeitschrift für Geschichtswissenschaft, XI (1894), 301—91, XII (1895), 1—43; idem, «Kirchenstaat und Karolinger,» Historische Zeitschrift, XLVIII (1900), 389 — 409. — المترجم .

(٢) لم يظهر هذا الكتاب بعد — المترجم .

الفصل الأول

برايس وكتابه « الإمبراطورية الرومانية المقدسة »

يحتل موضوع هذا البحث ، بإجماع الآراء ، مكانة بارزة فى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . وقد تردد القول بأن مصير تاريخ الإمبراطورية يرتبط بمصير تاريخ المسيحية الغربية . ومنذ زمن بعيد ، وصف اللورد برايس (١) الإمبراطورية بأنها « مملكة عالمية » « universal monarchy » ، تحتوى على « حكومة إنسانية مثالية فى ذروة كمالها » ، مع المحافظة على « شعور الإخاء بين بنى البشر ، بوصفهم كتلة واحدة شاملة العالم كله ، الذى ترفعت وحدته الكبرى عن كل تمييز مهما صغر » . وكتب برايس مرة يقول إنه « منذ أيام قسطنطين (٢)

---

(١) جيمس برايس من كبار المؤرخين الغربيين الحديثين المعنيين بالتاريخ الوسيط . ومن أشهر مؤلفاته كتابه المسمى « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » J. Bryce, The Holy Roman Empire, Oxford, 1864. وقد ظهرت له طبعة جديدة مزيدة ومنقحة (طبع لندن ونيويورك ، سنة ١٩٠٤) . ولبرايس كذلك مقال تحت اسم « ايسلندا البدائية » Primitive Iceland ، وهو منشور فى كتاب من جزءين بعنوان « دراسات فى التاريخ والتشريع » Studies in History and Jurisprudence ، طبع اكسفورد سنة ١٩٠١ . وله أيضا بحثين الأول باسم « الإمبراطورية الرومانية القديمة والإمبراطورية البريطانية فى الهند » والثانى باسم « انتشار كل من القانون الرومانى والقانون الإنجليزى فى العالم » ، طبع اكسفورد سنة ١٩١٤ . ومن محاضراته القيمة المحاضرة التى ألقاها فى سومرفيل كوليدج Somerville College باكسفورد فى نوفبر سنة ١٩٤٥ ، وعنوانها « الحضارة الهللينستية وروما الشرق » The Hellenistic Civilization and East Rome ؛ وقامت بنشرها مطبعة جامعة اكسفورد سنة ١٩٤٦ ـ المترجم .

(٢) قسطنطين الكبير هو مؤسس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية . حكم من سنة ٣٠٦ إلى سنة ٣٣٧ . ويتميز عهده باعترافه بالمسيحية كدين رسمى للدولة ، وبكنيستها باعتبارها كنيسة الدولة وعلى رأسها الإمبراطور . ولم تعترض المسيحية على هذا =

حتى أخريات القرون الوسطى ، كانت الإمبراطورية بالاتحاد مع البابوية يمثلان رأس العالم المسيحى ، والمركز المعترف به فى هذا العالم » .

وإذا كانت هذه الكلمات قريبة من الحقيقة والواقع فى موضوع ما ، فقد يبدو غريبا أن مؤرخا إنجليزيا واحدا لم يحاول منذ أيام برايس كتابة تاريخ الإمبراطورية بصفة شاملة . ولا يزال القارىء الإنجليزى الذى يريد تكوين فكرة ما عن الدور الذى قامت به الإمبراطورية فى التاريخ الوسيط ، مضطرا إلى الرجوع إلى كتاب « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » لبرايس (١) ، وهو كتاب له طابعه الكلاسيكى فى فن التدوين التاريخى. والحقيقة الواقعة أن برايس كان قد تقدم به سنة ١٨٦٢ للحصول على جائزة من اكسفورد لأحسن بحث فى هذا

= الوضع الجديد لما كانت تدين به لقسطنطين من أفضال . وتدل تشريعاته وقوانينه على احترامه للنفس البشرية ، وعلى رغبته فى الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية ، وتنشيط الحالة الاقتصادية فيها . كذلك لجأ إلى عدة إصلاحات فى الناحية المالية بقصد تثبيت العملة المتدهورة ، وفى الميدان العسكرى ، مستهدفا من وراء ذلك توفير أسباب القوة والمنعة للبلاد ، وحمايتها من الأخطار التى كانت تتهددها فى الداخل والخارج . وواصل خلال سنى حكمه تشجيعه للدين الجديد إلى أن وافته منيته فى ٢٢ مايو سنة ٣٣٧ . وكان قسطنطين يتمتع بشخصية قوية ، وأثبت فى كل عمل أقدم عليه أنه رجل عظيم القدر ، شديد الإخلاص ، واسع الحيلة والدهاء ، رومانى خالص فى قدرته على مواجهة المشاكل والمعضلات وحسم الأمور ، وتوقيت ساعة التحفز والهجوم إذا دعت الضرورة إلى ذلك . أنظر . Jones, Constantine and the Conversion of Europe, ch. VI, 79 ff.; Parker, A Hist. of the Roman World, 238-369; Rostovtzeff, Rome, 289 f.; Ostrogorsky, op cit., 31-45; Baynes & Moss, op. cit., 169, 274, 280; Hussey, op. cit., 11 ff. المترجم .

(١) يبدو أن هذه الكلمات تعكس أهمية كتاب H. A. L. Fisher, Mediaeval Empire. 2 vols., 1898. - ولكن هذا ليس ما أعنيه ، كما أنه ليس فى الواقع لب الموضوع . لقد عالج كتاب فشر مسائل أخرى هى « معرفة كيف كان يعمل جهاز الحكم الإمبراطورى » فى كل من ألمانيا وإيطاليا . وأنكر صراحة أى اتجاه فى سبيل تتبع « تاريخ الفكرة الإمبراطورية » أو « الوقوع فى الخطأ الذى وضع أساسه السيد برايس » .

الموضوع . وقد صدرت النسخة الأخيرة المنقحة ، التي ترجع إلى حوالى نصف قرن مضى ، سنة ١٩٠٤ ، وكان اهتمام المؤلف قد تحول فى ذلك الحين ، بل ومنذ زمن أبعد من ذلك ، إلى مجالات أخرى، وإلى فترات وعهود أحدث من التاريخ المذكور . وليس الهدف نقد كتاب برايس . ومع ذلك فما يثير الدهشة ، فى مثل تلك الظروف، أن نجد الكتاب المذكور يقف جنبا إلى جنب مع ماتوصل إليه العلم الحديث . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن القارىء لا يهتم بالتفاصيل قدر اهتمامه بالفكرة العريضة عن ماهية الإمبراطورية والنظام الذى حلت محله. ويعتبر المنهاج السليم الذى اتبعه برايس فى معالجة الموضوع وتفسيره ، أكثر أهمية مما تقدم . وهنا يكفى أن نذكر بأنه مهما كانت قيمة الحقائق التى أوردها برايس ، لم يعد تفسيره لها يحظى بالقبول العام . ويمكن القول عن برايس ، كما قيل منذ زمن غير بعيد عن ستبز (١) Stubbs ، إنه توجد « روحان تعيشان فى صدره » ، إحداهما روح العالم الذى يلاحظ بدقة الدليل الذى أمامه ، والأخرى روح المثالى الذى يبحث فى القرون الوسطى عن دليل ينير له الطريق إلى جيل أنهكه العداء وأرهقته الخصومات القومية المتزايدة . فإذا كانت لدى ستبز « فكرة غامضة عن أصول الدستور الإنجليزى » ، فإن فكرة برايس عن الإمبراطورية لا تقل عنها غموضا . ويقول ليفبفر Lefebvre فى نقده لمؤلف ستبز إنه « لا يوجد ارتباط بين استنتاجاته الجزئية المبنية على النصوص الأصلية وبين فكرته العامة » . ويمكن تطبيق هذا الرأى دون تعديل على صاحب

---

(١) يعتبر وليم ستبز من كبار المؤرخين الغربيين الحديثين المتخصصين فى تاريخ العصور الوسطى الغربية ، وبخاصة تاريخ ألمانيا . له مؤلفات عديدة بالانجليزية منها كتابه « تاريخ القانون الكنسى فى انجلترا » ، و « تاريخ انجلترا الدستورى » ، و « محاضرات فى التاريخ الأوروبى » ، و « ألمانيا فى العصور الوسطى المبكرة » ، و « ألمانيا فى العصور الوسطى المتأخرة » ، و « الأدب والتعليم فى بلاط هنرى الثانى » — المترجم .

كتاب « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » . ويتميز نفس العنوان الذى أطلقه برايس على كتابه بطابعه الخاص . ومن الواضح أنه اختاره لأنه يلقى الضوء على آرائه التى تنحصر فيما كان يجب أن تكون عليه الإمبراطورية فى العصور الوسطى . ولكن اختياره لهذا العنوان يتعارض مع الحقائق الثابتة . إذ كتب يقول : « إنه يتعين تأريخ بداية الإمبراطورية الرومانية المقدسة اعتبارا من سنة ٨٠٠ » . والحقيقة أن أول مرة ظهر فيها اسم « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » لا يرجع إلى سنة ٨٠٠ كما يفترض البعض ، وإنما يرجع إلى سنة ١٢٥٤ عندما كانت الإمبراطورية فى الواقع قد انتهت لأسباب عديدة متعددة . وقبل ذلك التاريخ كان لدينا اسم « الإمبراطورية المقدسة » ، كما كان لدينا اسم « الإمبراطورية الرومانية » . ولكن التسمية الأولى يرجع تاريخها إلى سنة ١١٥٧ فقط ؛ بينما يرجع اسم « الإمبراطورية الرومانية » إلى عهد كونراد الثانى (١) فحسب ، أى إلى سنة ١٠٣٤ على وجه التحديد . وحتى أوتو الثالث (٢) ، الذى كانت « رومانيته » العليلة المحمومة لا تعدو أن تكون أمرا

---

(١) حكم كونراد الثانى فى الفترة من سنة ١٠٢٤ إلى سنة ١٠٣٩ . وهو مؤسس الأسرة الفرنكونية أو السالية التى يعتبرها وليم لانجر فجر العصر الإمبراطورى العظيم . وقد واصل سياسة سلفه هنرى الثانى . كما تشدد فى علاقاته مع الكنيسة الألمانية . وكان كلما خلت دوقية من الدوقيات لا يعين عليها أحدا ، وإنما يخلعها على ابنه هنرى الذى أصبحت فى يده جميع الدوقيات عندما صار امبراطورا ، فيما عدا دوقيتى اللورين وسكسونيا . كذلك أضعف كونراد الدوقات بتشجيعه مبدأ الوراثة فى الإقطاعات ، وضمن تأييد صغار النبلاء له ؛ وبهذا الإجراء أكد تطبيق النظام الاقطاعى بصفة نهائية فى ألمانيا . ومما يذكر أن حفلة تتويجه امبراطورا سنة ١٠٢٧ كانت تعتبر من أفخم حفلات التتويج التى شهدتها روما فى العصور الوسطى . أنظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٦٥-٥٦٦ ؛ وكذلك LaMonte, op. cit., 178-9. — المترجم .

(٢) حكم أوتو الثالث من سنة ٩٨٣ إلى سنة ١٠٠٢ ، وهو من أباطرة الأسرة السكسونية التى أسسها هنرى الصياد . وكان أوتو هذا فى الثالثة من عمره عندما خلف أباه =

ثانويا فى نظر المدرسة القديمة للمؤرخين ، لم يفكر قط فى إطلاق اسم «الإمبراطورية الرومانية» على أملاكه .

أما والحقائق كذلك ، أليس حتما أن يضللنا كتاب برايس والكيان الهائل الذى يصوره ، بحيث يبعث أثرا خاطئا غير دقيق ؟ وليس هناك من شك فى أن برايس كان على علم بالحقائق . والواقع أنه جمعها بدقة ، ثم قام بتدوينها فى ملحق لكتابه . ولكنه آثر صرف النظر عنها فى الكتاب نفسه . ورأى أن يرسم بدلا منها صورة باهتة غير واضحة ، إذا ما تناولها الفرد بالدراسة والتحليل بعناية ، يجد اقتباسات على نطاق واسع مستقاة من كتاب أواخر القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، الذين كانت فرص معرفتهم بماهية الإمبراطورية ، وما كانت عليه فيما بين عامى ٨٠٠ و ١٢٥٠ ، من الضآلة بحيث تقل عن الفرص المتاحة لنا . وليس هناك داع للتحدث عن افتقارهم إلى المقدرة على النقد ، فضلا عن الاهتمام بالحقيقة التاريخية .

وفيما يلى السؤال الذى يخطر لنا ، وهو بحق السؤال الوحيد الذى سأتناوله هنا . هذا السؤال هو : ماذا كانت الإمبراطورية الغربية فى القرون الوسطى ، إن لم تكن هى « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » ؟ ويجب علينا أن ندرك على

=أوتو الثانى . وحكمت باسمه فى فترة قصوره أمه ثيوفانو باعتبارها وصية عليه فى الفترة من سنة ٩٨٣ إلى سنة ٩٩١ ، ثم جدته المسماه أدلهيد ومعها فليجيس رئيس أساقفة مايتز فيما بين عامى ٩٩١و٩٩٦ . وقد تلقى تعليمه وفقا لما جرت به التقاليد البيزنطية ، وذلك بتأثير من أمه . وقام أوتو بحملتين فى ايطاليا ، الأولى سنة ٩٩٦ والثانية سنة ٩٩٨ ، بهدف القضاء على المناوئين له هنـــاك . وفى حملته الثانية عين أوتو مؤدبه المسمى جربرت أورياك بابا باسم سلفستر الثـانى . وحرص البابا المذكور على استمرار قيام الاتحاد والتعاون بين البابوية والامبراطورية . ومات أوتو سنة ١٠٠٢ دون أن يترك وريثا يخلفه فى الحكم . أنظر لامجر : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٤٤٤ — ٤٤٥ ؛ وكذلك LaMonte, op. cit., 176—8. — المترجم .

القول أنه لا يمكن فعلا اعتبار اصطلاح « الإمبراطورية الغربية » الذى استخدمته توا ، أو اصطلاح « إمبراطورية العصور الوسطى » الذى كان باستطاعتى استخدامه ، أدق من ذلك الذى استخدمه برايس . إذ لا يمكن التحدث حقا عن « إمبراطورية العصور الوسطى » لأنه كان يوجد عدد من الإمبراطوريات خلال تلك الحقبة الوسيطة من الزمن . فنى بداية الأمر كانت هناك الامبراطورية الرومانية ، وكثيرا ما نطلق عليها الإمبراطورية البيزنطية . (١) ولكن هذا الاصطلاح يعتبر كذلك غير تاريخى ومضلل ، ويستحسن تجنبه . ويمكن أن نطلق عليها بنوع ما اسم « إمبراطورية العصور الوسطى » . منعا للخلط بينها وبين الإمبراطورية الرومانية . ذلك أن الإمبراطورية الرومانية ، ولو أنها ظلت قائمة حتى سنة ١٤٥٣ ، إلا أنه يمكن إرجاعها ـ بعد كل ماتقدم ـ فى تاريخ متصل حتى عهد أوغسطس . ومن ثم لا يمكن وضعها ـ إذا توخينا الدقة ـ تحت عنوان « العصور الوسطى » .

ومع ذلك ، فقد عرفت القرون الوسطى عددا من الإمبراطوريات الأخرى التى يطلق عليها الاصطلاح المذكور ، ليس كوصف على علاته فحسب ، وإنما جريا وراء استعمال ديبلوماسى معاصر . ففى الشرق كانت توجد إمبراطورية كل

(١) عرفت الدولة البيزنطية باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية تمييزا لها عن الإمبراطورية الرومانية القديمة التى انهارت فى أواخر القرن الخامس الميلادى على أيدى القبائل الجرمانية المتبربرة . وظلت الدولة البيزنطية على قيد الحياة حتى أواسط القرن الخامس عشر عندما استولى عليها الأتراك العثمانيون سنة ١٤٥٣ . أى أنها عاشت مدة تقرب من عشرة قرون ، بعد زوال الدولة الرومانية القديمة وتأسيس البرابرة ممالكهم على أنقاضها فى الغرب ، وذلك باعتبارها الوريثة الشرعية الوحيدة لتلك الدولة والامتداد الطبيعى لها . ومن هنا أثار إحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب أيام شارلمان وتجديدها أيام أوتو الكبير ، الكثير من الجدل والنقاش بين الكتاب والمؤرخين المعنيين بالفكر السياسى والفكرة الإمبراطورية فى القرون الوسطى — المترجم .

من البلغار والصرب . كذلك استخدم اللقب الإمبراطورى فى روسيا اعتبارا من القرن الثالث عشر . أما فى الغرب ، فقد كان ملوك قشتالة هم « أباطرة أسبانيا » . وكان ثمة اللقب الإمبراطورى الذى يحمله ادجار [١] وغيره فى انجلترا أيام الانجلو سكسون [٢] . وكان يوجد أيضا منذ القرن الثالث عشر « أباطرة » فى اسكنديناوه .

ووفقا لذلك ، فإن الفكرة الشائعة عن وجود « إمبراطورية غربية » ، كما لو لم يكن هناك سوى إمبراطورية واحدة فى غرب أوروبا ، إنما هى فكرة مضللة حتما . ويتزايد هـــذا التضليل إذا أخذنا فى الاعتبار أن اصطلاح « الإمبراطورية الغربية » « imperium occidentale » لم يستخدم قط بصفة رسمية ، اللهم إلا إذا استثنينا مناسبة واحدة عام ٨١٣ سأتناولها بالمزيد من التفصيل فيما بعد . وهكذا يتكرر السؤال : ماذا كانت تلك الإمبراطورية التى اعتزم الكتابة عنها ؟ وليست هناك سوى إجابة واحدة ، وهى إجابة قريبة من

---

(١) بعد وفاة الملك الانجلوسكسونى اثلستان (٩٢٤ — ٩٣٩) خلفه أخويه أدموند (٩٣٩ - ٩٤٦) ثم ادرد (٩٤٦ — ٩٥٥) . ولم تأت سنة ٩٥٤ حتى استطاع ادرد ملك وسيكس أن ينادى بنفسه ملكا على جميع انحاء الجزيرة البريطانية من بحر المانش إلى الكليد . وعند موته حكم ولداه ادويج (٩٥٥ — ٩٥٩) ثم ادجار (٩٥٩—٩٧٥) الذى بلغت وسيكس فى عهده ذروة مجدها وعظمتها . واستمر حكمه لمدة ستة عشر عاما لم تتخللها أية حروب ، حتى أنه عرف باسم « ادجار المحب للسلام » . وجدير بالذكر أنه خلال الصراع بين الأنجلو سكسون والغزاة الدانيين تمت تدريجيا عملية التمازج بين هذين العنصرين . وقد قطعت تلك العملية شوطا كبيرا فى عهد الملك ادجار . وساعد على ذلك الهدوء الذى عم المملكة خلال فترة حكمه . كذلك وجه ادجار عنايته إلى الكنيسة ، فأعاد تنظيمها وإصلاحها ، واعتنى بأمر الأديرة وقام بتنظيمها من جديد . وكان دنستان Dunstan رئيس اساقفة كانتربرى من كبار مستشارى هذا الملك ومعاونيه . أنظر Whitelock, op. cit., 52 ff.; Trevelyan, op cit., 80 ff. — المترجم .

(٢) فيما يتعلق بالانجلوسكسون ، أنظر ص ١١٥ و ح ١ و ١١٩ ح ٢ من هذا الكتاب — المترجم .

الحقيقة والصواب . ونعنى بذلك أن الإمبراطورية لم تكن مجرد حدث واحد على الإطلاق ، وإنما كانت سلسلة من الأحداث تختلف باختلاف العصور والأزمان . وتنطوى معظم الخلافات الظاهرة تحت التغيرات التى ألمت بهذا الاصطلاح الذى أشرت إليه باختصار . ومن الأخطاء الفادحة التى وقع فيها المؤرخ (١) ، وأخشى أن تكون كثيرة ، أنه كان يرى الاتصال مستمرا ممتدا فى كل مكان ، متناسيا ـ حسبما لاحظ ذات مرة المرحوم الأستاذ هيرنشاو (٢) Hearnshaw ـ بأن « الاستمرار ليس هو بحال وجه التاريخ الأكثر وضوحا » . ومن السذاجة أن نرى ، قضاء وقدرا ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة حتى عام ١٨٠٦ ، وقد كشف عن ذاته فى حفل تتويج شارل العظيم فى روما عام ٨٠٠ . وفى الحقيقة أن قصة الإمبراطورية التى عرفت فيما بعد باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، إنما هى قصة متقطعة غير متصلة أو ممتدة . فقد عنت أحداثا مختلفة لرجال مختلفين فى نفس الوقت ، وأحداثا مختلفة لرجال فى عصور مختلفة . والواقع أنها كانت عبارة عن أحداث مختلفة وقعت فى أزمنة مختلفة . وذلك ما حمل برايس على محاولة إبداع صورة متكاملة « لمجموعة من الآراء والأفكار التى ارتكزت عليها الإمبراطورية » ، وعدد من « القواعد الأساسية » التى « ظلت فى جوهرها على ما كانت عليه طيلة القرون الوسطى » . ومن ثم تعين فشلها ، لأنها بكل بساطة ليست حقيقة أو أمرا واقعا . إن ما « يصدق على القرن

---

(١) المقصود برايس — المترجم .

(٢) من أهم انتاج هيرنشاو F. J. C. Hearnshaw (ed.), The Social and Political Ideas of Some Great Mediaeval Thinkers, London and New York, 1923 ; idem (ed.) Medieval Contributions to Modern Civilization, London, 1921. وهو يحتوى على سلسلة من المحاضرات التى ألقيت فى كينجز كوليدج King's College بجامعة لندن . المترجم .

العاشر » ، كان يعتبر حقيقيا كذلك « بالنسبة للقرن الرابع عشر » . ولكن على العكس من ذلك ، فقد كانت الإمبراطورية فى القرن الرابع عشر فى جوهرها ومضمونها شيئا يختلف عن الإمبراطورية فى القرن العاشر ؛ تماما مثلما كانت إمبراطورية أوتو الأول (١) أو أوتو الثالث شيئا مغايرا فى جوهرها وطبيعتها عن إمبراطورية شارل العظيم .

ومن ثم يبدو أنه من المفيد بيان الأدوار الرئيسية فى تاريخ الإمبراطورية منذ عام ٨٠٠ حتى مجىء آل هابسبورج (٢) باختصار ؛ أى أن نرسم صورة

---

(١) بعد موت هنرى الأول أول ملوك الأسرة السكسونية ، حكم ابنه أوتو الأول (٩٣٦ ــ ٩٧٣) ، وهو المعروف باسم أوتو الكبير . وقد واصل سياسة أبيه فى النواحى الداخلية والخارجية والحربية . فأخمد أنفاس الدوقيات الكبرى التى كانت دائمة الثورة على ملوكها . ولكن أهم حادث فى تاريخ أوتو هو تجديده للامبراطورية الرومانية المقدسة التى أسسها شارلمان ، وذلك عن طريق التدخل فى الشئون الإيطالية . وقد ترتب على تجديد الإمبراطورية اهتمام الأباطرة الألمان بالشئون الإيطاليـة ، واصطدام مصالح ألمانيا بمصالح الكنيسة والبابوية ، وما أثير من آراء ونظريات قامت حول الكفاح بين البابوية والإمبراطورية . أنظر فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٣٩ ــ ١٤٢ ؛ وكذلك LaMonte, op. cit., 173—5. المترجم .

(٢) فى سنة ١٤٣٨ انتقل تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى النمسا التى كانت دولة ألمانية وإن لم يكن لها حق انتخاب الإمبراطور ، وذلك عندما تضافر عدد من الأمراء كانوا يعتبرون الفوضى فى الدولة أحسن ضمان لاستقلالهم . وتم انتخاب البرت النمساوى إمبراطورا فى ذلك العام . وكان هذا هو بداية حكم أسرة هابسبورج . وبقى تاج الإمبراطورية وراثيا فى تلك الأسرة منذ ذلك التاريخ حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٨٠٦ عقب معركة اوسترليتز التى انتصر فيها نابليون بونابرت . والواقع أن الأسرة المذكورة لم تخدم سوى مصالحها الخاصة ، دون أن تعمل شيئا لتوحيد ألمانيا نفسها ، وقد تم هذا فى عهد أسرة ألمانية أخرى هى أسرة هوهنزولرن البروسية فى أخريات القرن التاسع عشر . أنظر عن ذلك المراجع التالية : **R. Lodge, A History of Modern Europe (1885),15; A. J. P. Taylor, The Course of German History (1961), 12 ff.; D. Thomson, World History (1958), 23, 73 ; Waugh, op. cit., 314 ff.** ــ المترجم .

مجملة واضحة للتغير التاريخى ، تساعدنا على أن نزن وأن نتعمق فى الاستنتاجات المتعارف عليها عن الإمبراطورية فى العصور الوسطى . وقد تكون مثل هذه الصورة ، نظرا لضيق المساحة ، حاسمة قاطعة ومبسطة للغــــاية . ذلك أن امبراطورية العصور الوسطى تعيش اليوم بمثابة قوة فى أذهان الناس ، حيثما وحينما تجرى مناقشات حول الأفكار والمبادىء والمثل السياسية ، وذلك بسبب التعميات التى قامت حولها . فمن منا لا يستعيد آراء جيركه [١] Gierke اللامعة حسبما ترجمها وفسرها ميتلاند [٢] Maitland ؟ ولكن كم عدد الذين أخذوا بآرائه وطبقوها على نظرية المجتمع وفلسفة التاريخ ، قد كفوا عن تصحيحها فى ضوء الحقائق المستقرة بفضل الدراسات التاريخية المضنية ؟

ولقد وضعت مجموعة ضخمة من المؤلفات حول تاريخ الإمبراطورية لم تتناولها تناولا شاملا ، وذلك منذ أن كتب برايس وجيركه مؤلفيهما . ويمكن القول ـ إذا لم أكن حقا مخطئا فى معلوماتى ـ إن عددا قليلا من تلك البحوث ، إن وجد واحد منها ، قد تسرب إلى الكتب التى فى متناول أيدينا فى انجلترا بقصد الدراسة والتعليم . إننا نشبه رجلا يحاول أن يعمل على ضوء مصباح غاز

---

(١) من أشهر مؤلفات أوتو جيركه كتابه المعنون : O.Gierke, Das deutsche Genossenschaftsrecht, 4 vols., Berlin, 1868—1911. وقد قام ميتلانــد بترجمة القسم الخاص بالعصور الوسطى من الجزء الثالث من مؤلف جيركه سالف الذكر تحت اسم « النظريات السياسية فى العصور الوسطى » O.Gierke, Political Theories of the Middle Ages, trans. by F. W. Maitland, Cambridge, 1900. وهو عرض مختصر للاتجاهات الرئيسية فى الفكر السياسى الوسيط . والكتاب مذيل بقائمة كاملة بالمصادر والمراجع والملاحظات الهامة القيمة ــ المترجم .

(٢) من أحسن إنتاج المؤرخ ف. و. ميتلاند بحثه المعنون « لغـــة القانون الانجلو فرنسية » ، و « تاريخ القانون الانجليزى قبل عهد ادوارد الأول » بالاشتراك مع ف. بولوك F. Pollock ، فضلا عن ترجمته لقسم من الجزء الثالث من كتاب جيركه المشار إليه فى الحاشية السابقة ــ المترجم .

بعض المراجع للفصل الثانى

Abel, S. and Simson, B. v., Jahrbücher des fränkischen Reichs unter Karl dem Grossen. 2 vols. Leipzig, 1883-88.

Baxmann, R., Die Politik der Päpste von Gregor I bis auf Gregor VII. 2 vols Elberfeld, 1868–69.

Bréhier, L., La querelle des images. Paris, 1904.

Brosien, H., Karl der Grosse. Leipzig, 1885.

Bulfinch, T., Mythology ... Legends of Charlemagne. New York, 1913.

Cooper, A. J., Le pélerinage de Charlemagne. Paris, 1925.

Davis, H. W. C., Charlemagne (Charles the Great) : The Hero of Two Nations. London and New York, 1899.

Gasquet, A., Etudes byzantines : l'empire byzantin et la monerchie franque. Paris, 1888.

Harnack, O.,

1 — Das karolingische und das byzantinische Reich in ihren politischen Beziehungen. Göttingen, 1880.

2 — Die Beziehungen des fränkisch—italischen zum byzantinischen Reiche unter der Regierung Karls des Grossen und der spätteren Kaiser karolingischen Stammes. Göttingen, 1880.

Heldmann, K., Das Kaisertum Karls des Grossen. Weimar, 1928.

Himmelreich, L., Papst Leo III und die Kaiserkrönung Karls des Grossen im Jahre 800. Munich, 1919.

Hodgkin, T., Charles the Great. London, 1897.

Hoffmann, H., Karl der Grosse im bilde der Geschicht—schreibung des frühen Mittelalters. Berlin, 1919.

Huyskens, A., Karl der Grosse und seine Lieblingspfalz. Aachen, 1914.

Kampers, F., Karl der Grosse. Mainz, 1910.

Ketterer, J. A., Karl der Grosse und die Kirche. Munich and Berlin, 1898.

Kleinclausz, A., L'empire carolingien: ses origines et ses transformations. Paris, 1902.

Lilienfein, H., Die Anschauungen von Staat und Kirche im Reich der Karolinger. Heidelberg, 1902.

Macherl, P., Karl der Grosse : ein Lebensbild. Graz, 1912.

Martin, H., Charlemagne et l'empire carlovengien. Paris, 1893.

Mombert, J. I., A History of Charles the Great. New York, 1888.

Müntz, E., La légende de Charlemagne dans l'art du moyen—âge. Paris, 1885.

Munz, P., The Origin of the Carolingian Empire, 1960.

Mystakidis, B., Byzantinisch-deutsch Beziehungen zur Zeit der Ottonen. Stuttgart, 1891.

Ohr, W.,

1 — der karolingische Gottesstaat in Theorie und Praxis. Leipzig, 1902.

2 — Die Kaiserkronung Karls des Grossen. Tübingen, 1904.

Ostermann, A., Karl der Grosse und das byzantinische Reich. Luckau, 1895.

Pfister, C., Le personage et l'oeuvre de Charlemagne. Metz, 1914.

Rauschen, G., Die Legende Karl des Grossen im 11 und 12 Jahrhundert. Leipzig, 1890.

Servière, J. de la, Charlemagne et l'église. Paris, 1904.

Tiede, C., Quellenmässige Darstellung der Beziehungen Carls des Grossen zu Ost-Rom. Rostock, 1892.

Vétault, A., Charlemagne. Tours, 1908.

Wells, C. L., The Age of Charlemagne. New York, 1898.

Weston, J., The Romance Cycle of Charlemagne and his peers. London, 1905.

أنظر أيضا المراجع المذيل بها الفصل الأول من هذا البحث .

الفصل الثالث

الإمبراطورية فى عهد أوتو وخلفائه

تلك كانت المقدمة ، وهى إحدى القصص غير المتوقعة أو المرغوب فيها ، وهى كذلك من القصص بعيدة الاحتمال ، حتى بالنسبة لأنشط خيال مبدع . إنها قد تساعد على إيضاح السبب فى أن مؤرخا فرنسيا معروفا وصف ذات مرة أحداث عام ٨٠٠ باعتبارها « مسرحية فكاهية مرتجلة بمعرفة حفنة من رجال الكنيسة المتزمتين » .

وننتقل الآن إلى الدور الأول الذى دام مائة وعشر سنة كاملة ، وانتهى بمقتل الامبراطور برنجار (١) عام ٩٢٤ . وللمتسائل أن يقول : أليس الامبراطور برنجار ، الذى هو مجرد نموذج لشخص تافه ، تفسيرا كافيا للمغزى الذى ينطوى وراء تلك الأحقاب الإحدى عشر السابقة ؟ لم تكن هذه الفترة طويلة فى عمر الزمن ، ولكنها كانت ، مع ذلك ، طويلة المدى بما يكفى للدلالة على أن اللقب الامبراطورى ، الذى كان مجرد لقب دون أن تكون هناك إمبراطورية ، والذى منحه شارل لابنه لويس (٢) ، لم يكن له أهمية بالنسبة للفرنجة . فضلا عن

---

(١) الإمبراطور برنجار اوف فريولى هو ابن جيزيلا Gisela من زوجها إبرهارد صاحب فريولى Eberhard of Friuli . وقد حكم اعتبارا من سنة ٩١٥ ، ومات سنة ٩٢٤ . أنظر LaMonte, op. cit., 170, 175. المترجم .

(٢) خلف شارلمان ابنه لويس الصالح . وكان حكمه الذى امتد من سنة ٨١٤ إلى سنة ٨٤٠ كارثة على كيان الإمبراطورية الغربية ، بسبب سوء تصرفه مع أعوان أبيه . وفى عام ٨١٧ قرر تقسيم إمبراطوريته بين أبنائه الثلاثة ، مع اشراك كل منهم معه فى حكومة القسم الخاص به . ولم يقف الأمر عند ذلك ، بل ارتكب خطأ جديدا تحت تأثير زوجته الثانية عندما ضم بعض =

عجزه وقصوره عن أن يستقر ويثبت فى أرض فرنجية . ولا شك أن لويس نفسه قد أرسى أساسا قويا بفضل منصبه الامبراطورى . وجدير بالذكر أن لويس قد تخلى منذ البداية عن اللقبين الملكيين اللمباردى والفرنجى ، اللذين اهتم أبوه بالاحتفاظ بهما . واكتفى بأن أطلق على نفسه لقب « الامبراطـــور العظيم » « imperator augustus » . ولم يجد السؤال عن مغزى هذا اللقب ودلالته أية إجابة . فلم يكن اللقب المذكور رومانيا أو فرنجيا كما رأينا . ثم أن فكرة إمبراطورية « فرنجية » أو « كارولنجية » ما هى إلا اختلاق وخرافة نابعة من خيال المؤرخين الحديثين . وفى الحقيقة ، بدأ الشعراء الكارولنجيون ومؤرخو البلاط ورجال الدين والفلاسفة ، فى السنوات التى أعقبت عام ٨٠٠ ، ينسبون إلى تلك الامبراطورية شتى المعانى المتناقضة ، متأثرين فى ذلك بعظمة هذا المنصب وجلاله . إلا أنه لم يخرج فى الواقع عن كونه مجرد مركز شخصى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يكن مستغربا أن يحاول لويس الصالح ـ تحت تأثير التعزيم بعبارات السحر ـ أن يضفى على هـذا اللقب معنى وغاية كان لا يزال فى حاجة إليهما . ولا شك أنه كان قد عقد العزم ، حسبما أعتقد ، على تحويل كل أملاكه المشتتة إلى إمبراطورية موحدة تقوم على أساس الديانة المسيحية ، وذلك تحت ضغط رجال الدين من أمثال أجوبارد الليونى [١] Agobard of Lyons ، والفكرة الكنسية الهادفة إلى إقامة « إمبراطورية مسيحية » .

= أجزاء مملكتى ابنيه الأكبرين إلى ملك إبنه الأصغر . وبموت لويس سنة ٨٤٠ قامت حرب أهلية بين أبنائه الثلاثة استمرت ثلاثة أعوام ، وانتهت بعقد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ التى انشطرت الإمبراطورية بمقتضاها إلى ثلاثة أقسام على كل منها ابن من أبناء لويس الثلاثة شارل ولويس ولوثير . أنظر LaMonte, op. cit., 161. — المترجم .

(١) أجوبارد الليونى من كبـار علماء النهضة الكارولنجية التى ارتبطت بشارلمان وشخصيته . وهومن قادة الغرب فى الناحية العلمية . وقد اشتهر بنبذه للخرافات والخزعبلات =

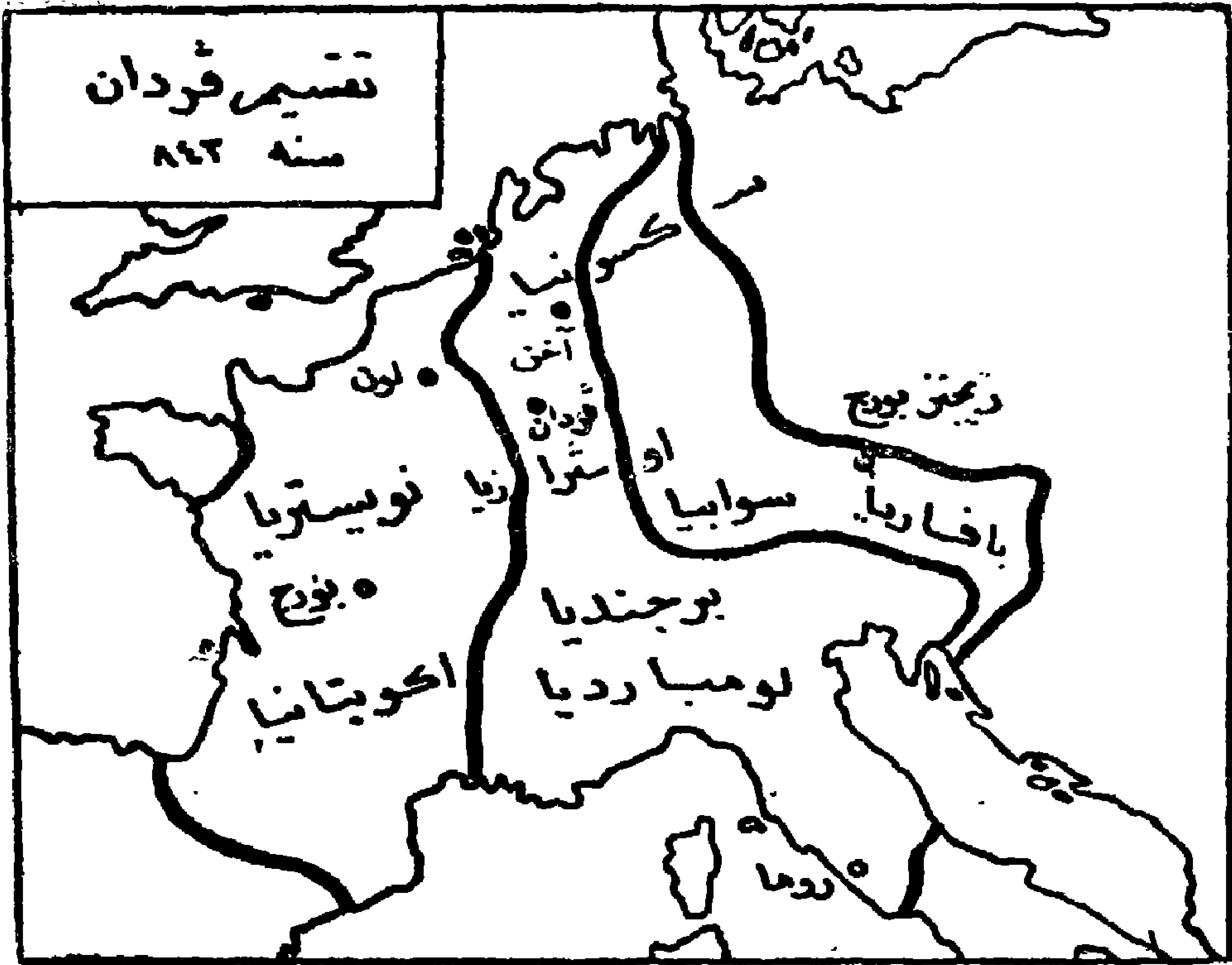
هذا هو فحوى الأمر الامبراطورى ordinatio imperii الشهير الصادر عام ٨١٧ ، الذى أشار فى سياق الحديث إلى وحدة الامبراطورية . ولكنها كانت خطوة ثورية جامحة يخشى عليها من الاخفاق . وكان رد الفعل على الأمر الامبراطورى سريعا ، ويشتم منه رائحة العداء . ففى سنوات قلائل كان هذا البناء الشامخ الهش قد انهار من أساسه . وأدت الحروب الأهلية التى نشبت فى القرن التاسع ، والتقسيمات المتوالية فى أملاك الفرنجة بين أبناء لويس وأحفاده ، إلى انكماش مستمر فى الأراضى التى كان يحكمها الامبراطور . واستمر الحال كذلك إلى أن انكمش اللقب الامبراطورى أيام البابا يوحنا الثامن (١) ، حتى غدا حامله يسيطر على مساحات ضيقة تشمل إمارة إيطالية صغيرة .

هذا ، ولم تسفر عن شىء الفكرة العجولة الخاصة باتحاد الامبراطورية مع الأراضى الفرنجية بهدف التوصل إلى نتيجة إيجابية . وكان للحروب الأهلية والتقسيمات نتيجة ثانية لا تقل عن الأولى فى مغزاها ودلالتها . فقد مكنت البابوية من تعزيز سيطرتها على اللقب الامبراطورى ، تلك السيطرة التى لم تتخل عنها إطلاقا فيما بعد . ولم يكن للبابا يد فى ارتقاء لويس إلى العرش عام ٨١٣ ، كما لم يكن له دخل عندما أعيد انتخاب لويس بعد وفاة والده فى عام ٨١٤ . ولم

= التى كانت منتشرة فى عصره ، وتوفى سنة ٨٤٠ . وعند الإشارة إلى اجوبارد يجب أن نذكر معه رجال أسهموا بنصيب ملحوظ فى تلك النهضة ، أمثال جون سكوتوس اريوجينا John Scotus Eriugena ، ولوبوس أوف فريير Lupus of Ferriéres ، وسيدوليوس سكوتوس Sedulius Scotus ، وهنكمار الريمى Hincmar of Rheims.
أنظر LaMonte, op. cit., 160, 243; Ullmann, op. cit., 238; Laistner, op. cit., 309 ff.; F. L. Cross, The Early Christian Fathers (1960), 137. — المترجم .

(١) جلس البابا يوحنا الثامن على الكرسى البابوى من سنة ٨٧٢ إلى سنة ٨٨٢ — المترجم .

خريطة رقم (٨) أ



خريطة رقم (٨) ب



تقسيم امبراطورية شارلمان

يكن له أيضا أى دور فى تنصيب لوثير(١) أكبر أبناء لويس عام ٨١٧ . ولكن الصراع بين أعضاء البيت الكارولنجى الذين كانوا جميعا بطبيعة الحال ينشدون التأييد البابوى ، يسر للبابوات تجديد الصلة بين الإمبراطورية وروما ، تلك الصلة التى كانت قد انقطعت فيما بين عامى ٨٠٠ و ٨١٢ . واعتبارا من عام ٨٢٣ حتى أيام مكسيميليان (٢) فى مستهل القرن السادس عشر ، لم يحظ أحد فى الواقع بأن يكون إمبراطورا ما لم يكن قد تلقى التاج فى روما على يد البابا . وهكذا يبدو أن الإمبراطورية ، التى أخفقت فى تحقيق معنى وغاية لها على أيدى الفرنجة ، كانت منذ حوالى سنة ٨٥٠ فى سبيل تكييف نفسها كأداة للبابوية . والواقع أنه كان قد وضع فى تلك السنوات أساس النظرية « البابوية » عن الإمبراطورية . وهى ، بطبيعة الحال ، نظرية ليست لها أصول تاريخية ، ولا أساس لها فى الحقائق التاريخية أيضا . وقد قدر لها أن تنتشر على نطاق واسع فى أواخر القرون الوسطى ، وإن لم تكن عالميـــة قط . ومضمون تلك النظرية ، التى عبر عنها

---

(١) لوثير هو ابن الإمبراطور الكارولنجى لويس الصالح . وكان الأخير قد وجد أن وحدة الإمبراطورية معرضة للأخطار بسبب المطامع والتنافس بين أبنائه الثلاثة ، فأصدر فى سنة ٨١٧ مرسوما يقضى بأن يرث أكبر أبنائه وهو لوثير اللقب الإمبراطورى والجزء الأكبر من الإمبراطورية ، وأن يحكم ابناه الآخران كل على مملكة صغيرة داخل نطاق الإمبراطورية وتحت سيادة لوثير نفسه . وكيفما كان الأمر ، فقد خلف أباه لويس بوصفه إمبراطورا سنة ٨٤٠ ، وحمل هذا اللقب حتى موته سنة ٨٥٥ . وفيما يتعلق بلوثير والصراع بينه وبين أخويه شارل ولويس ومعاهدة فردان سنة ٨٤٣ ونتائجها ، أنظر Sullivan, op. cit., 140—1; Downs, op. cit., 35-6. — راجع أيضا ص ٤٢ و ٤٣ و ١٤٢ ح ٣ و ١٩٥ ح ٢ من هذا الكتاب — المترجم .

(٢) مكسيميليان الأول من أباطرة أسرة هابسبورج . تزوج من مارى البرجندية ، وحكم بوصفه إمبراطورا من سنة ١٤٩٣ إلى سنة ١٥١٩ . أنظر S. R. Brett, Europe since the Renaissance (1956) I, 39, 71. — المترجم .

انوسنت الثالث (١) فى شكلها النهائى ، ينحصر فى أن البابا هو الذى يمنح التاج الإمبراطورى ، وله أيضا أن يمنعه إذا ارتأى ذلك مناسبا . ولكن البابوية فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر لم تكن تعرف كيف تتصرف مع الإمبراطورية بعد أن وضعتها تحت رقابتها . لقد كانت فى حاجة ملحة إلى إمبراطور ، كما تكشف عن ذلك تصرفات البابا يوحنا الثامن . ولكن هذه الحاجة جعلتها فى مأزق لا سبيل إلى الخروج منه . إذ رأت فى إمبراطور قوى نذيرا بالخطر . ولكن ما فائدة وجود إمبراطور بلغ به الضعف أن غدا عاجزا عن مساعدة البابا على الاحتفاظ باستقلاله ؟ وكان طبيعيا أن يعمل البابوات على ضمان أمنهم وسلامتهم ، وهم يواجهون الاختيار بين أمرين أحلاهما مر . وكانت النتيجة أن جرت البابوية الإمبراطورية إلى السقوط والانهيار معها ، وذلك بعد أن عجزت عن تأمين نفسها .

والواقع أن التدخل البابوى لم يكن على الأقل من بين العوامل التى قللت من قيمة اللقب الإمبراطورى حتى انتهى به الأمر إلى الإفلاس . وفى أعقاب

---

(١) يعتبر انوسنت الثالث من أقوى شخصيات العصور الوسطى . شغل الكرسى البابوى فى الفترة الواقعة بين عامى ١١٩٨و١٢١٦ . وهو بحق خليفة هيلدبراند الحقيقى . وقد تلقى ثقافة عالية ، وتفوق على كثير من علماء عصره فى الفلسفة واللاهوت والقانون . وعرف بتمسكه الشديد بحقوق البابوية ، وله آراء ونظريات واضحة وحاسمة فى هذا الصدد . ولذلك تميز عهده بتجدد الصراع العنيف بين البابوية والإمبراطورية حول المسائل العلمانية . وفى زمنه بلغت البابوية أقصى قوتها بعد انتصاراتها على القوى الزمنية فى الغرب وعلى رأسها الإمبراطورية . ولكن انغماس البابوية فى الشئون الدنيوية أدى فى نهاية الأمر إلى ضعفها وزوال هيبتها وتشكك الناس فى قدسيتها ، مما هيأ الجو لظهور عصر جديد . أنظر عن ذلك كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص ٦١ ح ٢ و ٢٧٣ و٢٩٩ ؛ فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٣١ وما بعدها ، وكذلك ـ Baldwin, op. cit., 48 58, 85—9; Contor, op. cit., 261—4; LaMonte, op. cit., 391 ff., 417 ff. ، راجع كلمة أيضا المترجم ص ٦٠ ـ ٦١ من هذا الكتاب ـ المترجم .

بابوية كل من نيقولا الأول (١) ويوحنا الثامن ، وقعت البابوية ومعها الامبراطورية تحت سيطرة الأرستقراطية الرومانيـة . واستتبع ذلك تعاقب أباطرة ضعاف لا حول لهم ولا طول . وقد وقـع الاختيار على البابوات من بين صفوف طبقة النبـــلاء الايطاليين ، وأولهم جى أوف سبوليتو (٢) Guy of Spoleto عام ٨٩١ . وفى عام ٩٢٤ إنتهى أمر اللقب الذى فقد معناه . فقد قضى عليه بظهور آل كريسنتيوس (٣) Crescentius الذين وجدوا فيه حجر عثرة فى سبيل جهودهم لإقامة إمارة لهم داخل روما وحواليها . لقد مات اللقب لأنه كان خلوا من أية قوة حيوية دافعـة ، بل وخلوا من التعبير عن أى مبدأ فعال . وباختفائه فى عام ٩٢٤ ، لم يترك أى أثر ينسب إليه ، ولم يتم انجاز شيء فى كافة المجـالات المادية والمعنوية ليس بوسع الملـكية القيـام به . وليس هناك شيء يجب أن ننسبه إلى بقاء اللقب الإمبراطورى وحيازته .

ومع ذلك ، فبـعد مضى أقـل من أربعين عاما ، استحوذ أوتو الأول على المنصب الإمبراطورى الذى كان قد انتهى فعلا غير مأسوف عليه فى عام ٩٢٤ . وبعد ذلك تعاقب الأباطرة طوال ثلاثمائة عام دون انقطاع . ويحق أن نتساءل :

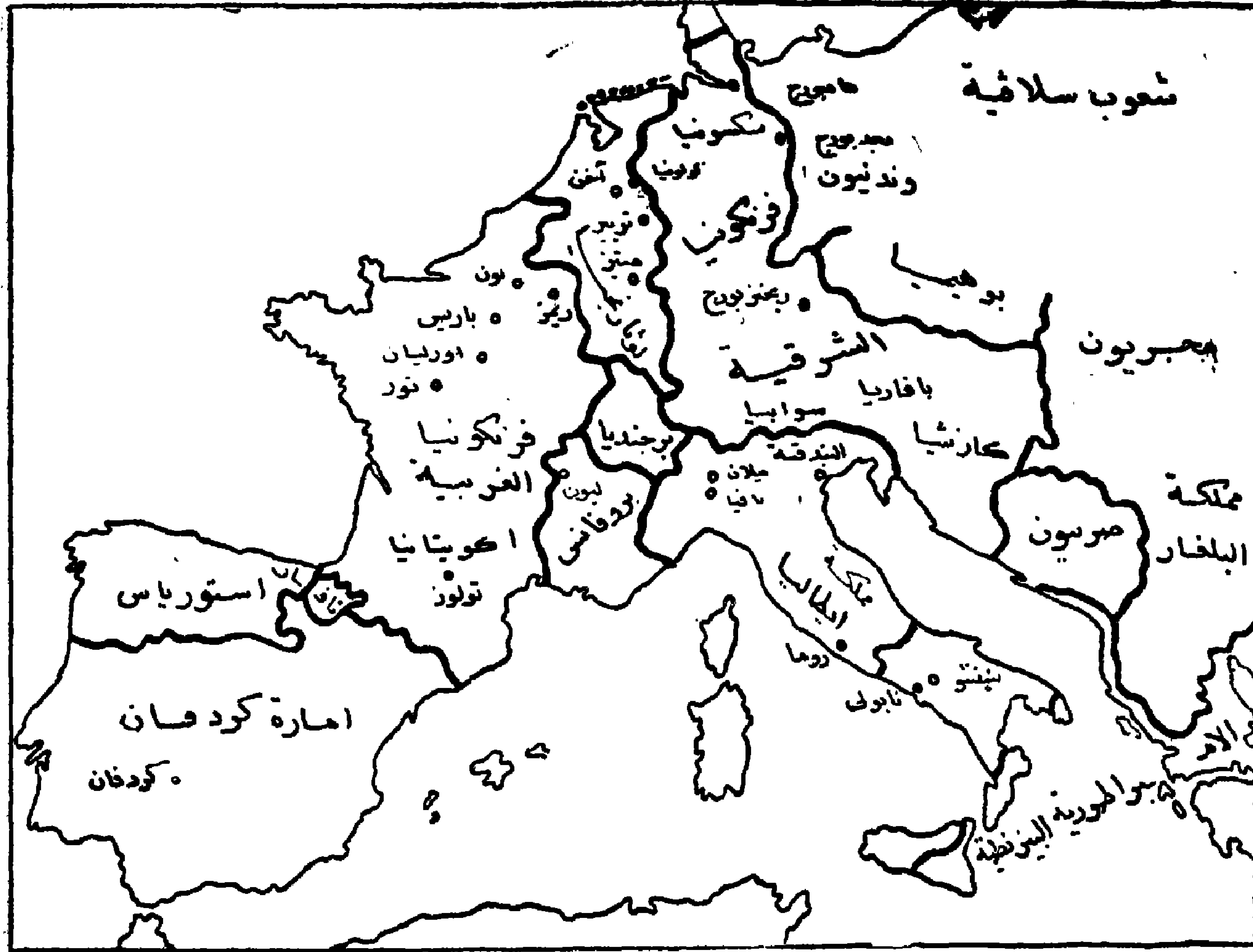
---

(١) شغل البابا نيقولا الأول الـكرسى البابوى فى الفترة من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٨٦٧ . وفيما يتعلق بآرائه وتصريحاته حول سيادة البابوية على القوى الزمنيـــة فى الغرب ، أنظر كولتون : نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٩ و٢٧٢ و٢٧٥ ؛ أنظر أيضا ص ٦٠ من هذا الـكتاب ـ المترجم .

(٢) كان البابا فورموزوس Formosus قبل توليه الـكرسى البابوى يعرف باسم جى اوف سبوليتو ، وقد شغل المنصب البابوى فى الفترة من سنة ٨٩١ إلى سنة ٨٩٦ — المترجم .

(٣) نجد مثلا واضحا لذلك فى تحالف السناتور الرومانى كريسنتيوس مـع الإمبراطور البيزنطى بازيل الثانى ضد إمبراطور الغرب أوتو الثالث فى أواخر القرن العاشر . وللمزيد من التفاصيل أنظر . LaMonte, op. cit., 142, 177 f , 180 المترجم .

خريطة رقم (٩)



تصدع الإمبراطورية الكارولنجية

هل كان أوتو يتطلع إلى منصب فارغ لا معنى له ، لو أن ما ذكرته كان صحيحا ؟ وردا على ذلك نعود مرة أخرى إلى الوراء ، وبالتحديد إلى أواسط القرن التاسع . لقد عرف الفرنجة الشيء القليل عن الإمبراطورية الرومانية ، وكانوا أقل اهتماما بها . إلا أنه كان لهم منذ عام ٨١٣ إمبراطور من بينهم . ولم يكن هنـــاك مناص من السعى إلى إضفاء معنى ومغزى على إمبراطوريتهم فى عبارات يفهمونها ، تماما مثلما فعل لويس الصالح فى فترة مبكرة ، والبابوات فى أيامهم تلك . وبوسعنا أن نتبين وجهة نظرهم بوضوح فى تلك الفقرات التى حاول فيها كتاب القرن التاسع ـ إرضاء لذواتهم ـ تفسير المنصب الإمبراطورى الذى تمتع به شارلمان . لقد اعتقدوا أنه كان إمبراطورا لأنه كان حاكما على عدد من الشعوب . ولم تكن نظريتهم ، بطبيعة الحال ، تستند إلى أسس تاريخية ، شأنها فى ذلك شأن النظرية البابوية (١) . وباختصار فقد كانت « إمبراطوريته » قائمة على الغزو والفتح . وقد أوجد النزاع بين المدعين الكارولنجيين المتنافسين أرضا خصبة لم تلبث أن استقرت فيها مثل هذه الأفكار والآراء .

وقيل إن شارل الجسور (٢) كان قد أعلن نفسه « إمبراطورا وأوغسطس » « emperor and augustus » عندما غزا مملكة اللورين عام ٨٦٩ ، وكان ذلك قبل تتويجه امبراطورا فى روما بست سنوات . والسبب فى هذا أنه كان حاكما على مملكتين . ووجه الشبه واضح بين « السيد الآمر » الأنجلو سكسونى الذى كان يعرف باسم « برتواندا » Bretwalda [٣] وبين « أباطرة » أسبانيا

---

(١) المقصود النظرية البابوية حول السيادة العالمية ـ المترجم .

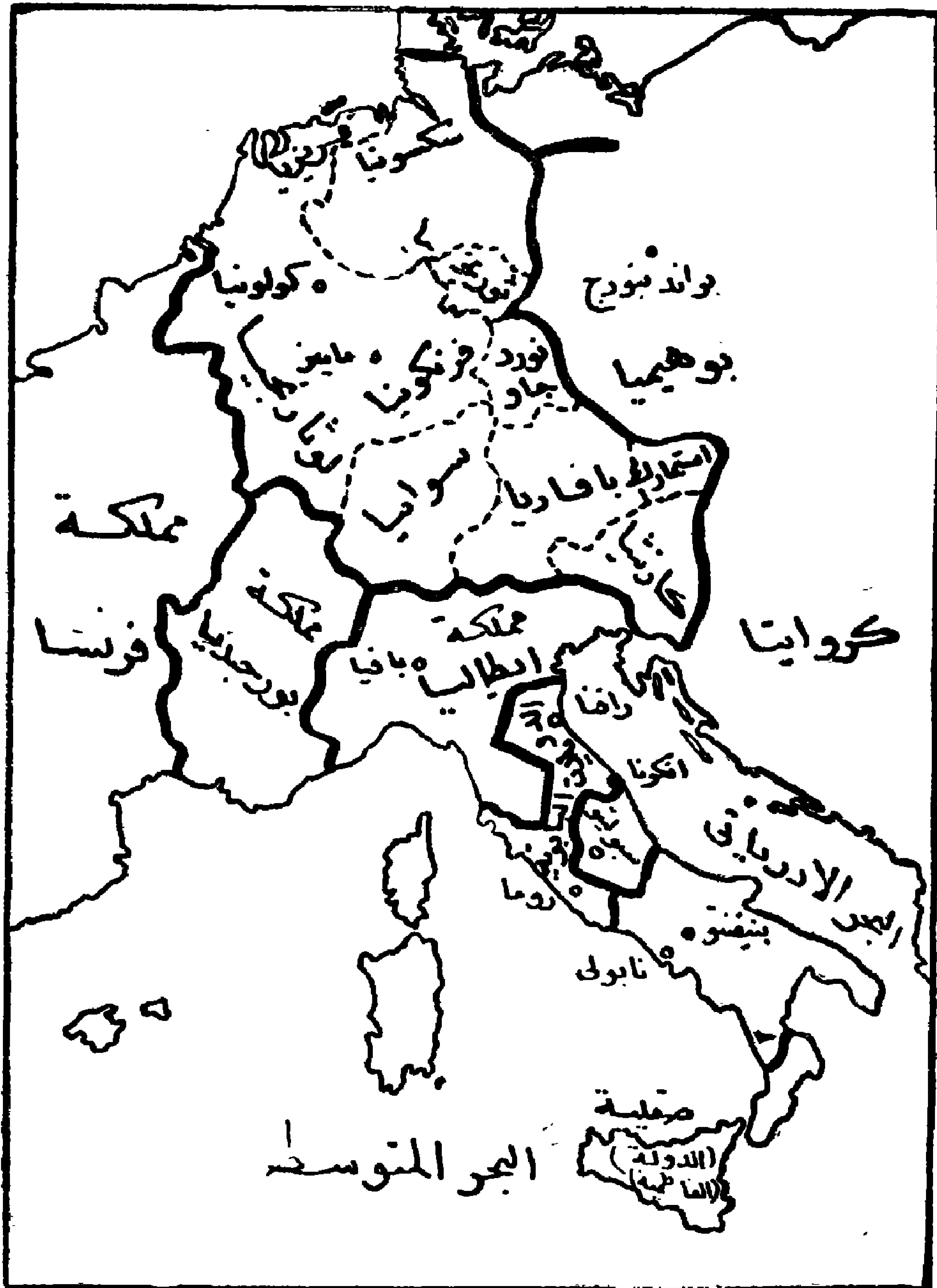
(٢) شارل الجسور هو ابن لويس الصالح ، وقد حكم من سنة ٨٤٣ إلى سنة ٨٧٧ ـ المترجم .

(٣) كانت انجلترا حتى الغزو الدانى الكبير (٨٦٥ـ٨٧٨) مقسمة إلى عدة ممالك . وكانت الممالك الواقعة جنوبى الهمبر ، لفترات طويلة ممتدة ، تحت حكم سيد آمر عرف ، =

واسكنديناوه . إنها فكرة عن امبراطورية لا شأن لها بروما على الاطلاق ، سواء أكانت روما القديمة ، أم الامبراطورية الرومانية التى كانت قائمة فى القرن التاسع ، أم روما التابعة للبابوية . وعندما انهارت الإمبراطورية الفعلية التى سلمها شارل ولويس لخلفائهم ، عاشت تلك الفكرة أولا لأنها كانت قد تأصلت جذورها فى أذهان الناس ، وثانيا نتيجة لاستمرار الأحوال والظروف السياسية التى أمدتها بالقوة والثبات. وكانت تلك هى الحلقة التى ربطت بين «إمبراطورية» القرن التاسع و« امبراطورية » أوتو الأول . ولم يتخل أوتو الأول فى سياسته قط عن الخطوط التى وضع أسسها الكارولنجيون المتأخرون . لقد امتدت سلطته إلى الشرق والغرب والجنوب . وكان كل ما يعنيه ، بصفة أساسية ، هو أن يضمن لنفسه نصيب الأسد فى المملكة الكارولنجية المشتتة ، وبخاصة أنقاض مملكة اللورين الوسطى . ولا تقدم سياسته فى هذا المجال أى جديد . وهى تطابق سياسة الكثيرين من الملوك الذين كافحوا فى سبيل الحصول على منصب «رفيع»، وهم يجمعون فتات الأراضى الكارولنجية . ولم يكن حصوله على روما وعلى المنصب الإمبراطورى ، سوى قمة سياسية ضمنت له السيطرة على لوثارنجيا وبرجنديا ، كما خضعت لمبارديا تحت حكمه . وتم بذل جهد كبير لإيضاح الدور الذى قامت به الامبراطورية فى سياسة أوتو . وقيل بحق إن النتيجة الوحيدة لذلك هى إبراز « أن مثل هذا الدور لم يكن له وجود فى الواقع » . إن الفكرة القديمة القائلة بأنه كان يسعى إلى إحياء سيادة شارلمان إنما تخالف الحقيقة . لقد

=وفقا لمصدر موثوق به يرجع إلى القرن التاسع باسم « برتوالدا Bretwalda » ، أى حاكم بريطانيا . ولم يكن هذا مجرد لقب أجوف . فقد كان أتباعه من الملوك يدفعون له الجزية ، ويحضرون مجالسه من وقت لآخر . كما كان عليهم الحصول على موافقته على الهبات التى يمنحونها من الأرض ، ويحاربون تحت لوائه زمن الحرب . أنظر عن ذلك Whitelock, op. cit., 48. — المترجم .

خريطة رقم (١٠)



الإمبراطورية الغربية فى القرن العاشر

ظل القسم الغربي من أراضى الفرنجة ، بصفة دائمة ، خارج نطاق الإمبراطورية ، ولم يطالب أحد إطلاقا بالسلطة أو السيادة أو حتى بمركز سام على تلك الأراضى. فلم تكن إمبراطورية أوتو رومانية من حيث النية أو الواقع . لقد كان لقبه التقليدى هو « الامبراطور العظيم » « imperator augustus » ، ولم يرد ذكر روما فيه . وكان هذا اللقب مجـــرد منصب شخصى فحسب . فهو لم يؤد إلى توحيد أراضيه بالمرة فى وحدة واحدة ، بأكثر مما فعله اللقب الإمبراطورى الذى تمتع به شارل العظيم فى عملية توحيد أراضيه فى إمبراطورية واحدة . وبعد عام ٩٦٢ ظل أوتو ـ كما كان من قبل ـ ملكا على كل من ألمانيا ولمبارديا . وقد أضفى عليه منصبه الإمبراطورى احتراما ، فضلا عن حكم دوقية روما الصغيرة . ولكن ليس هناك ما هو أبعد من ذلك . وها نحن الآن نعود مرة أخرى ، على وجه التقريب ، حيث كان شارل فى عامى ٨١٢ و ٨١٣ . ولكن امبراطورية أوتو كانت فى هذه المرة على أساس إقليمى أكثر انكماشا ، ولم يكن يدخل فى نطاقها القسم الغربى من أراضى الفرنجة وغيرها من الدول النامية فى غرب أوروبا ووسطها .

ولقد أدى تدخل أوتو الأول فى شئون إيطاليا وتتويجه فى روما عام ٩٦٢ ، إلى نتيجة واحدة بالغـــة الأهمية . إذ جعله هذا التدخل وجها لوجـــه أمام الامبراطورية الرومانية(١). وتم ذلك فى وقت كانت فيه الإمبراطورية الرومانية آخذة فى الصعود والاستعداد للتوسع والعودة إلى الغزو تحت قيادة نقفور فوكاس(٢) وبازيل الثانى (٣) . ويعتبر الصراع الذى ترتب على ذلك حدثا خطيراً فى

(١) أى بيزنطة ـ المترجم .

(٢) أنظر ص ١٤٤ ح ١ من هذا الكتاب ـ المترجم .

(٣) بعد موت الإمبراطور حنا تزمسكيس سنة ٩٧٦ ، قام أبناء رومانوس الثانى وهما بازيل الثانى وقسطنطين الثامن بحكم الدولة مشاركة . وقد اكتفى ثانيهما بأبهة اللقب =

تاريخ الإمبراطورية الغربية . إذ كانت هناك عوامل أدت إلى ما نحن بصدده. من ذلك المخاوف من التدخـــل البيزنطى فى السياسة الرومانية ، والمطالب موضوع الـنزاع بين القوى المتنافسة فى إيطاليا . ثم الرغبة فى انـتزاع لقب على الأراضى التى بيـد العرب والتى يحتمل معاودة غزوها . كانت هذه هى العوامل التى أدت إلى تحويل الإمبراطورية الغربية إلى إمبراطورية « رومانية » ، بمعنى « أرومتها » أى جعلها رومانية الصبغة والطابع . ولم يـكن أوتو الأول أكثر من « الإمبراطور العظيم » « imperator augustus » . ولكى يعزز أوتو الثانى[(١)]

=الإمبراطورى ، تاركا الحكم ومسئولياته لأخيه بازيل الذى قضى عهده الطويل (٩٧٦-١٠٢٥) فى حروب تـكاد لا تنقطع ضد جيرانه الروس والبلغار والعرب ، والتى كانت تنتهى فى الغالب لصالحه . وفيما يتعلق بموقفه حيال ايطاليـا البيزنطية ، فقد كان موفقا فى إحداث ما أراد من تغيير فى نظم الحـكم بها ، فى وقت كانت فيه الإمبراطورية الرومانية الغربية مشغولة فى أواخر القرن العاشر بهجمات العرب عليها ، مما حال بينها وبين تحقيق أطماعها الواسعة فى ايطاليا على حساب البيزنطيين . ولـكن واجه مركز بيزنطة فى ايطاليا خطر جديد منذ أواخر القرن العاشر فصاعدا ، ونعنى به الخطر النورمانى . وكان النورمان قد وصلوا إلى ايطاليا كجند مرتزقة يعملون فى خدمه أى أمير مقابل المـال الذى يغدقه عليهم . ولم يكونوا مصدر خطر على بيزنطة فى أول الأمر ، وهى التى كانت تستخدمهم فى جيوشها للقضاء على العناصر المتمردة . وكان بازيل الثـانى يأمل فى أن يذهب يوما ما إلى إيطاليا للقضاء على أطماع الإمبراطورية الغربية فيها ، وإجلاء العرب من البلاد التى استولوا عليها هناك . ولـكنه توفى سنة ١٠٢٥ وهو فى الثامنة والستين بعد حكم طويل حافل بالأعمال الـكبيرة فى الداخل والخارج ، التى جعلت من بيزنطة دولة عظمى آنذاك . وهكذا لم يقدر له تحقيق أمله ، بينما لو قدر له أن يعيش لـكانت هذه الأفـكار أو بعضها قد خرجت إلى حيز التنفيذ ولترتبت عليها آثار بالغة الأهمية. أنظر عن ذلك Ostrogorsky, op cit., 264 ff.; Baynes & Moss, op. cit., 23-4; Diehl, L'empire byzantin, 104 ff.; Bloy, Constantinople et Byzance, 151—201. — المترجم .

(١) أوتو الثانى من أباطرة الأسرة السكسونية ، حكم من سنة ٩٧٣ إلى سنة ٩٨٣ . وهو ابن أوتو الأول ابن هنرى الأول الصياد مؤسس الأسرة . وقد خرج عليه أثناء حكمه دوق بافاريا ، وتحالف ضده مع دوق بوهيميا وغيره من الدوقات . ولم يتمـكن أوتو من إخماد الثورة إلا بعـد خمس سنوات . ومن أهم ما قام به حملته على جنوب ايطاليا خلال عامى ٩٨١ — ٩٨٢ بقصد إجلاء العرب عنها وإضعاف سلطة بيزنطة فيها . وانتهت تلك الحملة=

إدعاءاتهضد بازيل الثانى ، فقدغدا « امبراطوراً رومانيا » Roman emperor. وما أن تقلد اللقب المذكور حتى أصبح ملازما له لا يفارقه .

ولتقدير مدى التسلل البيزنطى ، فقد تبنى أوتو الثالث (١) ، بالإضافة إلى ما تقدم ، الأفكار السائدة بين صفوف الأرستقراطية الرومانية عن « نهضة » روما بما يتفق ومصالحه الخاصة . وإن ما نعرفه الآن إنما هو المعنى والغاية العملية لسياسة أوتو الثالث « الرومانية » التى صرف النظر عنها ذات مرة بوصفها سياسة خيالية ضعيفة نابعة من عقلية شاب سريع التأثر سهل الانقياد . ومع ذلك لم تكن الإمبراطورية نفسها رومانية حتى فى عهد أوتو الثالث . وفى عهد خلفه هنرى الثانى (٢) ، كنا عندما نجـد عبارة « الإمبراطورية الرومانية » « imperium Romanum » فى استعمال رسمى ، ندرك أنها إنما تعنى المنصب الإمبراطورى فحسب . فليست «الإمبراطورية» « imperium » أرضا ، ولكنها مجرد وظائف الإمبراطور وسلطاته . وفى عهد الحاكم التالى، وهو كونراد الثانى (٣) ،

=بهزيمة شديدة لحقت به . أنظر لانجر : موسوعةتاريخ العالم ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ ، وكذلك LaMonte, op. cit., 175-6. للمترجم .

(١) أنظر ص ١٧٢ ح ٢ من هذا الكتاب — المترجم .

(٢) هنرى الثانى من أباطرة الأسرة السكسونية بألمانيا ، وقد حكم من سنة ١٠٠٢ إلى سنة ١٠٢٤ . وهو ابن هنرى رانجلر دوق بافاريا وابن عم أوتو الثالث وحفيد هنرى الصياد . وتم تتويجه امبراطورا فى روما سنة ١٠١٤ . واشتهر بالزهد والورع والتقوى ، كما كان سياسيا حازما . وقد ركز اهتمامه على النهوض بألمانيا وتعزيز سلطته فيها ، فأمر بأن تبقى الاقطاعات الكبيرة وراثية . واعتمد على طائفة رجال الدين لإمداده بالمستشارين ورجال الإدارة . كما تطلع إلى الكنيسة لتقدم له المساعدات الحربية والمالية اللازمة ، ومع ذلك فقد بسط سيطرته وهيمنته عليها . واهتم أيضا بإصلاح الأديرة وصبغها بالصبغة العلمانية. أنظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ — ٤٤٦ — المترجم .

(٣) أنظر ص ١٧٢ ح ١ من هذا الكتاب — المترجم .

بدأ اسم « الإمبراطورية الرومانية » فى الظهور فى المراسيم بمعنى جديد ، أى باعتباره اصطلاحا مجملا يتعلق بالأراضى الخاضعة لحكم كونراد .

لقد كان ذلك تجديداً عظيما له دلالته فى أكثر من ناحية . فهو أولا له مغزاه لأنه لم يوجد حاكم فى سلسلة الأباطرة ، اعتبارا من أوتو الأول فصاعدا ، كانت سياسته أكثر حمقا وواقعية من سياسة كونراد الثانى. وإن تلك التسمية الرومانية التى ظهرت أول ما ظهرت فى عهده ، هى فى حد ذاتها دلالة كافية على أنه لم يتبن تلك السياسة للتعبير عن إحياء إدعاءات ومطالب « عالمية » universal تتعلق بروما القديمة ، بل من أجل أسباب عملية خاصة بالدبلوماسية والسياسة الخارجية. ثم أن تلك التسمية لها مغزاها ، من ناحية ثانية ، لأنها تعنى أنه منذ عهد كونراد الثانى كانت قد رسخت الإمبراطورية أخيرا فى شكل كتلة اقليمية . ولم تعد طويلا مجرد لقب أو منصب يمكن انتقاله من حاكم إلى آخر حسب الرغبة ، مثلما عرض على ملك فرنسا أولا ، ثم على وليم دوق اكويتانيا (١) بعد وفاة هنرى الثانى عام ١٠٢٤ .

وعلى العكس من ذلك ، نجد أنه منذ حوالى عام ١٠٣٤ ، أصبحت تلك هى التسمية الرسمية التى تطلق على كافة الأراضى المتعددة الخاضعة لحكم الإمبراطور . وهذه الأراضى هى ، المانيا وبرجنديا وايطاليا . ومنذ ذلك الحين أصبحت المانيا وبرجنديا وايطاليا ممالك مستقلة ، لا يربطها ببعضها سوى ذلك الرباط الشخصى لحاكم مشترك لها . وهكذا غدت أجزاء تابعة لإمبراطورية واحدة . وكانت هذه الرابطة ، منذ عام ١٠٤٠ ، قد توثقت عراها . وظلت باقية بادخال

(١) عن وليم دوق اكويتانيا ، أنظر كتاب LaMonte, op. cit., 193, 381. المترجم.

اللقب الجديد « ملك الرومان » " King of the Romans " بوصفه لقب الإمبراطور المنتخب قبل تتويجه ، أو من أجل خليفة الإمبراطور المعين .

وقد أدى إقامة « ملك على الرومان » إلى تسوية مسألة التعاقب على الحكم بصفة نهائية . وحال هذا دون قيام أى محاولة أخرى لفصم الصلة بين المنصب الإمبراطورى والأراضى المرتبطة به منذ عهد أوتو الأول ، مثلما حدث فى عام ١٠٢٤ . لقد ارتبطت الوظيفة الإمبراطورية بالأرض للمرة الأولى والأخيرة ، مما أدى إلى وجود خليط من الأراضى . وهكذا سجل حكم هنرى الثالث (١) ، فى هذا الخصوص ، كما هو الحال فى كثير من المجالات الأخرى ، مرحلة حاسمة . وللمرة الأولى خلال قرنين ونصف من الزمان ، يسدل الستار عند نهاية حكمه على عمل قاطع محدد .

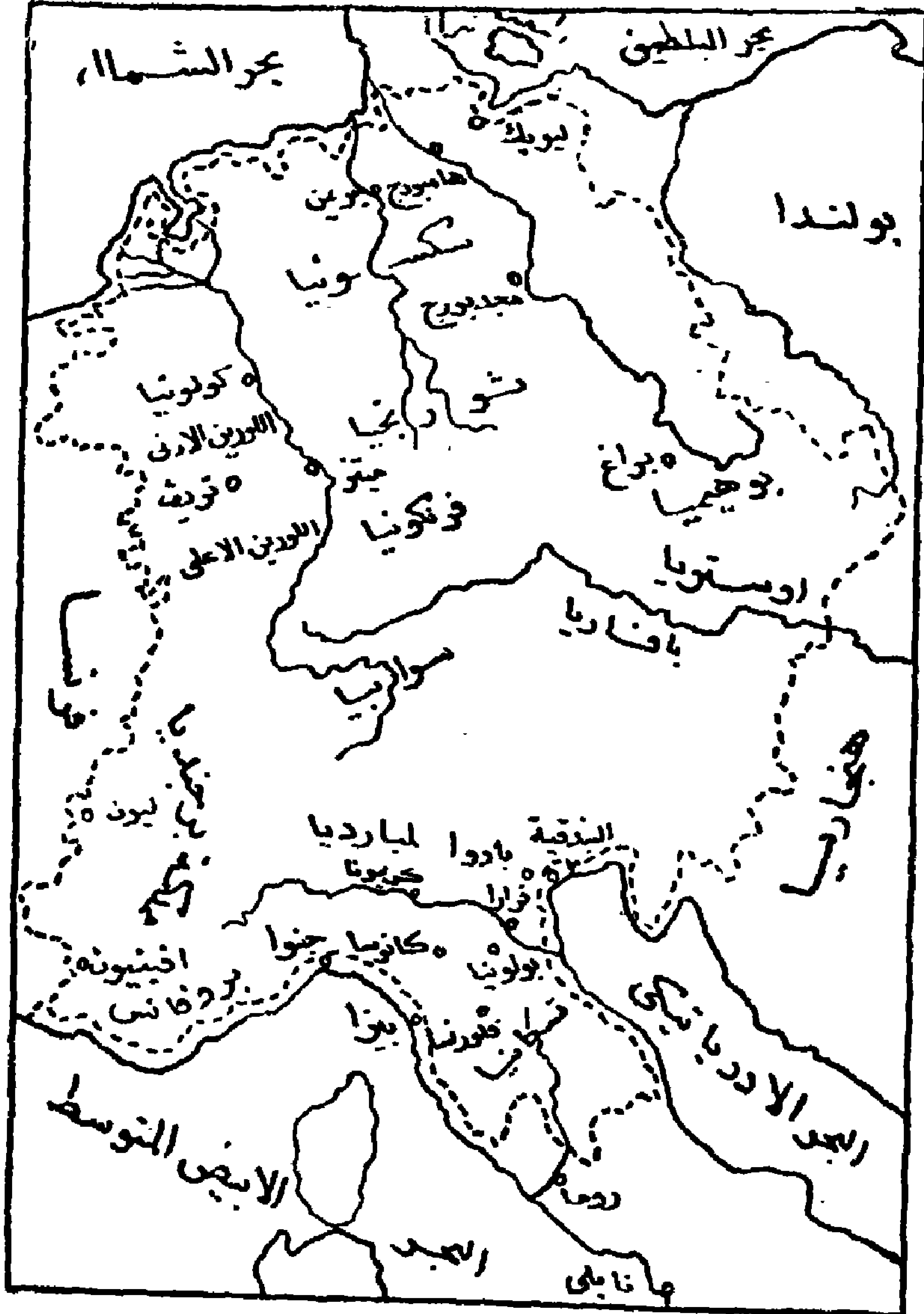
لقد فقدت « الإمبراطورية » طابعها المشوش المهزوز ، وحاجتها إلى معنى وغاية محددين ، تركا أثرهما فى تاريخها منذ عام ٨١٢ . وكانت قد تكفلت بالمعنى الذى احتفظت به منذ ذلك التاريخ حتى نهاية عهد أسرة هوهنشتاوفن (٢) .

---

(١) هنرى الثالث من الأباطرة الساليين ، حكم فى الفترة الممتدة من سنة ١٠٣٩ إلى سنة ١٠٥٦ ، وهو يعرف باسم هنرى الأسود . وقد بلغت السلطة الإمبراطورية أوجها فى عهده . كان مصلحا ، واحتفظ بقبضته الصارمة على الكنيسة . ويعتبر فى الواقع من أقوى الأباطرة الألمان ، بتأكيده السيطرة على بولندا وبوهيميا والمجر ، وكذلك الحق الإمبراطورى فى التعيين لمنصب البابوية بانتخاب كليمنت الثانى للبابوية . ويعتبر كذلك الأول فى سلسلة من البابوات الألمان المصلحين . أنظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٦٦ — ٥٦٧ ؛ وكذلك LaMonte, op. cit., 179—81. — المترجم .

(٢) حكم السكسون ومن بعدهم الساليان ، ثم أسرة هوهنشتاوفن الألمان التى امتد حكمها من سنة ١١٣٨ إلى سنة ١٢٦٨ . وقد عرفت الأسرة بهذا الاسم نسبة إلى شتاوفن وهى قلعتها فى سوابيا . وكان آل هوهنشتاوفن هم آخر الأباطرة الذين قاموا بمجهود جدى فى سبيل حكم ايطاليا ، وإن لم يصادفهم النجاح الذى كانوا يأملونه . فهم بهذا يعتبرون بحق أول

خريطة رقم (١١)



الإمبراطورية الرومانية المقدسة

أيام أسرة هوهنشتاوفن

وأصبح للإمبراطورية الآن طابعها المميز ، كما أصبح لها سلطة إقليمية حقيقية محددة واضحة المعالم . وهذا هو الوضع الذى لا مزيد عليه ، ذلك أنها لم تمتد فيما وراء حدود المانيا وبرجنديا وايطاليا .

وليست لدينا فكرة عن مسألة الزعامة أو القيادة الأوروبية . ومعلوماتنا أقل من ذلك فيما يتعلق بمسألة السيادة العالمية . كذلك لم يكن هناك شىء مشترك بين الإمبراطورية التى تم تشكيلها فى مركب التطور التاريخى ، وبين «الكومنولث المسيحى» أو «الامبراطورية المسيحية» imperium Christianum حسبما تصورها المفكرون الكنسيون ، سوى كرسيها فى روما .

هذه هى الحقيقة كاملة ، بما لها من أهمية بالغة فى تحديد مكان الإمبراطورية الجديدة فى المجتمع السياسى فى العصور الوسطى . ولعل هذه الحقيقة تفسر كذلك سبب عدم استقرار تلك الامبراطورية . ولو كان هناك « نظام إلهى تتغلغل أسسه فى صميم طبيعة الأشياء وترتيبها » لحظى — حسبما قال برايس — بالرضاء العام فى أوروبا . وكان ذلك فى الغالب نتيجة لسلسلة من الظروف التاريخية الطارئة ، التى لم ترسخ وتستقر بحكم العادة والتقليد العريق . ومن ثم فإنها لم تكد تتكون حتى داهمتها التحديات . ولم يكن لها فى نظر الناس خارج حدودها أى دعوى أو مطالب قدسية . وحتى فى داخل حدودها ، فقدعنت «الإمبراطورية»

= الأسر الألمانية الحاكمة التى أدركت ما يتضمنه التقليد الإمبراطورى من الناحية التاريخية ، وما يعنيه القانون الرومانى بالنسبة للحق الإمبراطورى . وكان لسياستهم أثرها الواضح فى قيام النزاع مرة أخرى بين البابوات والأباطرة ، والذى كانت ايطاليا ميدانه . ولكنه كان ، فى هذه المرة ، صراعا عنيفا بين فكرتين متنافستين ، وهما الفكرة الروحية والفكرة السياسية . أنظر عن ذلك لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ ، وكذلك Lodge, op. cit., 7; Taylor, op. cit., 5; H. A. Fisher, A History of Europe, (1960) I, 209, 251, 304, 413. — المترجم .

بالنسبة للألمان الذين أفادوا منها ، شيئا أهم وأكثر مما هى بالنسبة لأهالى برجنديا وايطاليا ، الذين لم يغب عنهم إطلاقا الإحساس الدال على خضوعهم للألمان الغزاة .

لقد كانت الإمبراطورية رومانية فى معناها الضيق المحدود ، حتى أنه لم توجد أى فكرة تتعلق بتأسيس إمبراطورية المانية مستقلة عن روما حسبما كان يرغب الألمان ، لو كان أهالى برجنديا وايطاليا قد أذعنوا لذلك فى سهولة ويسر . ولكنها كانت إمبراطورية المانية فى جوهرها ، بمعنى أن تأسيسها يعكس قوة الملكية الألمانية ونفوذها فى أوروبا فى القرن الحادى عشر . وواضح أن مثل تلك الإمبراطورية إنما كانت إنجازا مبتورا غير متكامل ، إن لم تكن فى الواقع عملا سلبيا للأفكار المتعلقة بالإمبراطورية التى كانت سائدة فى الدوائر الكنسية ، والتى حددت بوجه عام اتجاه الرأى السائد . ولقد عكست قدراً كبيرا من السلطة السياسية . ولكن ليس هناك من سبب يدعو إلى أن تؤدى الإمبراطورية إلى تغيير ميزان القوى الذى مهد لها . وبوسعنا حقا أن نرى من موقف سوجر أوف سانت دنيس (١) Suger of St. Denis أن « علوم

---

(١) سوجر رئيس دير القديس دنيس (١٠٨١ — ١١٥١) من كبار مستشارى لويس السادس ملك فرنسا . واستمر نفوذه خلال حكم لويس السابع أيضا . وتم تنشئته داخل الدير الملكى . وأثبت كفاءة عالية ، كما قدم خدماته للامبراطور قبل توليه رئاسة الدير . وبعد أن أصبح رئيسا للدير سنة ١١٢٢ ، قسم وقته وجهده بين واجبه كرجل دين وواجبه كوزير ملكى . وكان سوجر وصيا على العرش عندما قام لويس السابع بالحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) . وهو الذى شيد الكنيسة العظيمة الملحقة بدير القديس دنيس . كما أدخل بعض الإصلاحات فى الدير ، وفرض النظام بين الرهبان . وقام فى وقت فراغه بتدوين مذكراته عن فترة إدارته للدير ، وتاريخ حياة كل من لويس السادس ولويس السابع . ولا شك أنه يعتبر من كبار الوزراء الكنسيين فى فرنسا . كما كان خير سلف لكل من مزارين Mazarin وريشيليه Richelieu بعد ذلك بعدة قرون . كذلك كان

الألمان الإمبراطورية فيما وراء المادة ، لم تعد تجد لها مؤيدين فى الغرب . وظلت الفكرة القديمة المعارضة للإمبراطورية بوصفها لقبا مستقلا عن أى مزيج من الأراضى الإقليمية التى يمكن نقلها بحرية من حاكم إلى آخر حسبما رأينا ، باقية حتى عام ١٠٢٤ ، ولم تختف اختفاء تاما .

وقد برزت هذه الفكرة من حين لآخر خلال سنى ١١١٢ و ١١٣٩ - ١١٤١ و ١١٦٣ ، دون أن تكون لها أية نتيجة أو فاعلية أو أهمية ، وإنما لتوضح فى الغالب توضيحا كافيا أن المفهوم « الألمانى » عن الإمبراطورية باعتبارها وحدة إقليمية ، قد قام بواجبه كاملا ، وإن كان ذلك فى شىء من التحفظ . وحقيقة الأمر أن الإمبراطورية ظلت فى عهد فردريك الثانى (١) كما كانت فى عهد كل من

= لسوجر الفضل فى وضع موسوعة تاريخية هامة عرفت باسم « حوليات فرنسا الكبرى » Grandes Chroniques de France ، التى لقيت الشيوع والرواج فى وقتها . وهى عبارة عن تجميع المادة المتعلقة بملوك فرنسا ، التى أعدها وحافظ عليها من الضياع رهبان دير القديس دنيس . وقد بدىء فى إعدادها أيام سوجر ، واستمر العمل فيها حتى نهاية القرن الخامس عشر . أنظر LaMonte, op. cit., 296, 583 f. — المترجم .

(١) الإمبراطور فردريك الثانى هو ابن هنرى السادس وحفيد فردريك باربا روسا إمبراطور الدولة الرومانية الغربية المقدسة . امتد حكمه من سنة ١٢١٥ إلى سنة ١٢٥٠ . وامتاز بعلمه وسعة اطلاعه وتحرره من سلطان الكنيسة وقيودها . وقام بتقسيم أملاكه فيما وراء الألب بين أبنائه . واستقر هو نفسه فى جنوب ايطاليا ، حيث عمل على تعزيز سلطته بالقضاء على نفوذ البارونات ومحاولة إضعاف سلطان الكنيسة . ومما يذكر عن فردريك أنه تأثر بالثقافة المتحررة المتنوعة الأصول التى سادت تلك المنطقة من العالم . وكان معجبا بعلم العرب وعاداتهم وأخلاقهم، متسامحا ، يحترم جميع الأديان . كما كان بلاطه موئلا للعلماء من المسلمين والمسيحيين على السواء . كذلك كان على علاقة طيبة بالحكام العرب ، وعلى رأسهم الكامل محمد سلطان مصر الأيوبى الذى عقد معه سنة ١٢٢٩ معاهدة سلمية تنازل له فيها السلطان عن مدينة بيت المقدس دون حرب أو قتال . واستمرت تلك العلاقة الطيبة أيام الصالح نجم الدين أيوب . أنظر ا . باركر : الحروب الصليبية (١٩٦٠) ، ص ١٤٢ وما بعدها ؛ جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ، ص ٩٩ — ١٠٠ والحواشى . راجع ايضا =

كونراد الثانى (١) وهنرى الثالث (٢) . وفيما عدا ذلك ، لم تكن هناك إطلاقا فكرة أخرى عن الإمبراطورية . أما خارج المانيا فقد كان تقبل تلك الفكرة ليس عن طريق الاقتناع ، وإنما عن طريق قبول الأمر الواقع « de facto » . وقد صمدت الإمبراطورية دون أى تحديات لسنوات قلائل فى أواسط القرن الحادى عشر . وتمتعت بفترة من الاستقرار لمدة لا تزيد عن جيل واحد . ثم وقفت موقف الدفاع عن نفسها خلال قرنين من الزمان دون انقطاع تقريبا ، مع اتخاذ مخرج تكتيكى وهجوم عنيف مضاد ، ولكن دون أن تتخطى فى الواقع الأسلوب الذى اتبعته . ولم تكن الإمبراطورية - حسبما قيل فعـــلا - « من القوة بمثل ما ظهرت به » . فقد اختل مركزها عندما تطورت الظروف السياسية وتغير ميزان القوى فى أوروبا . ولم يعد بوسعها فى نهاية الأمر المحافظة على كيانها إلا بعد بذل جهد مضاعف فى مواجهـــة معارضة البـابوية والدول المتضامنة أو المتحالفة معها ، والتى لم تعترف إطلاقا بنفوذ الامبراطورية وسلطانها .

وجدير بالملاحظة أن البابوية فى عهد أسرة أوتو لم تقم بأى دور فى تشكيل الأفكار والآراء المتعلقـــة بالامبراطورية وتطويرها ، وذلك باستثناء فترة بابوية سيلفستر الثانى فقط (٣) . وكانت وجهة نظر البابوية عن الامبراطورية ، المبنية فى جوهرها فى عهد نيقولا الأول (٤) ، قد كفت — كما رأينا — عن

LaMonte, op. cit., 417—9, 476—7, 503—5; Baldwin op. = cit., 89-90, 106-7; C H. Haskins, Studies in Mediaeval Culture (1929), ch. VI, 124—47. — المترجم .

(١) أنظر ص ١٧٢ ح ١ من هذا الكتاب - المترجم .

(٢) أنظر ص ٢١٠ ح ١ من هذا الكتاب - المترجم .

(٣) شغل البـابا سيلفستر الثـانى الكرسى البابوى فى الفترة من سنة ٩٩٩ إلى سنة ١٠٠٣ - المترجم .

(٤) أنظر ص ٢٠١ ح ١ من هذا الكتاب — المترجم

أن نحسب متى وقع الكرسى البابوى تحت سيطرة « السلطة العلمانية » الرومانية . كما فتح إصلاح البلاط البابوى وإحيائه بفضل الأباطرة الألمان فى القرن الحادى عشر ، الباب لإمكانيات جديدة . وانتقـــل عنصر المبادأة فى غضون سنوات قلائل إلى أيدى البابوات . وكان ذلك منذ وفاة هنرى الثالث . وبوسعنا أن نعتبر الهجوم المضاد التالى فى عهد جريجورى السابع (١) بمثابة رد فعل لما تعرضنا له من موضوعات ، ونعنى بذلك ثبات الحدود واستقرارها ، وانتظام التعاقب على العرش فى المنصب الإمبراطورى ، الأمر الذى حرم البابا من بسط نفوذه الفعال على شخص الإمبراطور ، مثلما كان يمارسه فى القرن التاسع . وكان ذلك أيضا نتيجة لتطورات جوهرية فى عالم السياسة. وكان تدهور الإمبراطورية

(١) ظل البابا جريجورى السابع فى الكرسى البابوى من سنة ١٠٧٣ إلى سنة ١٠٨٥ . كان راهبا من أصـل توسكانى اسمه هيلدبراند . وكان طموحا عريض الآمال حتى لقد اتهمه أعداؤه بحب السيطرة والسيادة . وفى عهده بدأ الكفاح العنيف بين البابوية والإمبراطورية على الأمور الدنيوية . وكان يجلس على العرش الإمبراطورى وقتذاك صبى صغير هـــو هنرى الرابع . فانتهز جريجورى السابع الفرصـــة لإعلاء شأن البابوية على منافستها الإمبراطورية ، تمشيا مع السياسة التى كان قد رسمها جريجورى الكبير فى القرن السادس فيما يتعلق باستقلال البابوية دينيا وسياسيا على حساب الحكام والأمراء العلمانيين فى الغرب . وفعلا قام النزاع سافرا بين جريجورى وهنرى سنة ١٠٧٥ عندما خلع أتباع هنرى البابا جريجورى وعينوا بابا مناهضا له . بينما رد البابا بحرمان هنرى وأتباعه . وأعقب ذلك نشوب الحرب بين عاهلى المسيحية ، التى انتهت بانتصار البابوية وإذلال الإمبراطورية فى حادثة كانوسا الشهيرة فى تاريخ الكنيسة والبابوية خاصة ، وفى تاريخ أوروبا الوسيط بصفة عامة . ويقال إن البابا جريجورى السابع كان قد فكر جديا فى فترة بابويته فى ارسال حملة صليبية من مسيحيى الغرب إلى الشرق بحجة الدفاع عن بيزنطة ضد السلاجقة ، لولا النزاع الذى قام بينه وبين الإمبراطور الألمانى ، مما حال دون تحقيق هذا المشروع الذى ترك لخلفه البابا أربان الثانى أمر إخراجه إلى حيز التنفيذ . أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : العـــرب والروم واللاتين ، ص ١٧٤ — ١٧٦ ؛ و « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » (١٩٦٣) ، ص ٢٠١ ؛ فشر : نفس المرجع ج ١ ، ص ١٤٤ وما بعدها ؛ وكذلك Runciman, A Hist. of the Crusades, I, 198-9; Daniel-Rops, L'église de la Cathédrale et de la Coris. (1952), 541—2; Baldwin, op. cit., 36—41. — المترجم

الرومانية فى الشرق بعد وفاة بازيل الثانى (١) يعنى أن البابا أصبح بوسعه ، بعد أن زال التهديد من هذه الناحية ، أن يتخـــذ موقفا أكثر استقلالا فى معاملته للإمبراطور فى الغرب . كما كان ظهور النورمان فى البحر الأبيض المتوسط عاملا آخر فى نفس الاتجاه . ويعتبر الانشقاق الدينى بين الشرق والغرب عام ١٠٥٤ (٢) بمثابة نقطة تحول فيما نحن بصدده .

---

(١) أنظر ص ٢٠٦ ح ٣ من هذا الكتاب ــ المترجم .

(٢) يعتبر الانشقاق الدينى الكبير سنة ١٠٥٤ بين الكنيستين الشرقية والغربية من الأحداث الخطيرة التى كان لها أكبر الأثر فى التاريخ البيزنطى ، وفى تاريخ العلاقات بين العالمين اللاتينى والاغريقى ، وفى تاريخ المسيحية كلها . وقد أشار إلى هـــذه القطيعة المؤرخ ستيفن رنسيمان باعتبارها وصمة عار فى جبين المسيحية . وسببها أن بطريق القسطنطينية وقتذاك وهو ميخائيل كيرولاريوس Michael Cerularius ، كان يسعى أن يكون امبراطورا وبطريقا تشبها ببابا روما . واختار أواخـر أيام الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع للقيام بحركته الانفصالية . ذلك عندما أعلن أن البابوية أصبحت أداة مسخرة فى يد الدولة النورمانية الجديدة ، وأنها تحاول إزالة سيادة بيزنطة عن جنوب ايطاليا بتأييدها لأطماع النورمان فى هذه المنطقة ، وأنه ضمانا لمصلحة بيزنطـة يحسن أن تـكون كنيستها مستقلة بشئونها . وفى سنة ١٠٥٣ أرسل البطريق البيزنطى إلى أساقفته خطـابا يهاجم فيه بابوية روما وتقاليدها . واعتبر هذا بمثابة إعـلان الحرب على البابوية . وكان يجلس على الكرسى البابوى وقتذاك البابا ليو التاسع الذى كان يهدف إلى إعلاء النفوذ البابوى ، وتقوية مركز البابوية والكنيسة اللاتينية فى الغرب ليـكون لها دور فعال فى توجيه السياسة الأوروبية وفى السيطرة على الغرب باسم الدين ولما كانت مسألة انفصال الكنيسة البيزنطية عن بابوية روما فيها تحـدٍ صريح لنظرية عالميـة البابوية وسيادتها على باقى الكنائس المسيحية ، والمعروفة بنظرية « السيادة البطرسية » ، فقد بادر ليو التاسع بارسال خطـاب يعلن فيه أحقية سيادة الكنيسة الغربية على الكنيسة الشرقية . واستطاع البابا الرومانى القضاء على حركة البطريق البيزنطى ، عندما نجح فى استمالة الامبراطور البيزنطى إلى جانبه فى دعـواه . ولـكن العمر لم يمتد بليو التاسع فتوفى سنة ١٠٥٤ ، وخلا مركز البابوية لمـدة سنة . فانتهز ميخائيل كيرولاريوس هذه الفرصـة ، ونجح فى اجتذاب كبار رجال الكنيسة الشرقية ، ولا سيما انطاكية إلى جانبه . واضطر الإمبراطور البيزنطى إلى الخضوع لآرائه . وأعلن رسميـا فى مايو سنة ١٠٥٤ بكنيسة سانت صوفيا بالقسطنطينية أن الكنيسة الشرقية أصبحت مستقلة بشئونها استقلالا تاما عن الكنيسة اللاتينية فى روما . أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم =

وبعد ذلك بسنوات قلائل استخدم جريجورى السابع ضد أباطرة الغرب الأسلحة التى ابتدعها ليو التاسع (١) . وليس هناك داع لترديد الحديث حول ما يطلق عليه الصراع العلمانى . ويكفى القـــول بأن هذا الصراع قد سجل نهضة قامت على أسس مادية أقـــوى بكثير من النظرية البابوية عن الامبراطورية . ويرى جريجورى السابع أن الامبراطورية هى ذراع الكنيسة العلمانى . وهذه النظرية لا تقل فاعليتها عما سبق ، بسبب تأثـــيرها الشديد على سلسلة الوقائع والأحداث التاريخية التى تتبعناها بكاملها . ولا يقل رد الفعل الذى أثاره الهجوم البابوى عن ذلك فى مغزاه ودلالته . وكانت النتيجة هى الضغط على الإمبراطور للبحث عن أسس جديدة يواجه بها هذا الهجوم العنيف ، عوضا عن الأسانيد التى كان يرتكز عليها . فلجأ إلى وسائل دفاع أخرى ، وتشبث بأسلحة جديدة يواجه بها البابوية . وكان القانون الرومانى هـــو السلاح الأول من بين تلك الأسلحة . ولم يتأخر هنرى الرابع (٢) فى إقامة علاقات مع بطرس

= واللاتين ، ص١١٧ـ١١٨ والحواشى ، أنظر أيضا. Ostrogorsky, op. cit., 296 ff.; Runciman, Byzantine Civilisation, 124; Baldwin, op. cit., 96—8. — المترجم .

(١) جلس البابا ليو التاسع ، المعروف باسم البابا الرحالة ، على الكرسى البابوى فيما بين عامى ١٠٤٩ و ١٠٥٤ . أنظر الحاشية السابقة ـ المترجم .

(٢) هنرى الرابع من الأباطرة الساليين ، وقد حكم من سنة ١٠٥٦ إلى سنه ١١٠٦ ، وكان عمره ٦ سنوات عندما أصبح امبراطورا . وكانت الوصية عليه فى فترة قصوره هى أمه اجنس اوف بواتو Agnes of Poitou . وانتهز كبار العلمانيين والدينيين هذه الفرصة ، فانتزعوا لأنفسهم حقوقا فى السيادة دون أن يكون هناك من يكبح جماحهم واعتبرت هـذه بمثابة ضربة قوية موجهة للملكية الألمانية . وفى سنة ١٠٦٢ اختطف انو رئيس أساقفة كولونيا الإمبراطور الصغير ، واشترك مع ادالبرت رئيس أساقفة هامبورج ـ بريمن فى الحكم باسمه ، واقتسما الاديرة فيما بينهما . وفى سنة ١٠٦٦ تحرر هنرى من ادالبرت ، وكان هذا بداية حكومته الشخصية . وقد عرف عن هنرى أنه رجـــل موهوب ذكى متهور . وقامت سياسته على نفس الأسس التى وضعها اوتو من حيث استغلال الكنيسة كمصدر للدخل . =

كراسوس(١) Peter Crassus وغيره من المتخصصين فى مدرسة رافنا . وترتب على ذلك ظهور فكرة جديدة أكثر سموا وحماسا عن الإمبراطورية ومبناها . وإن هذه الفكرة التى ترجع أصولها إلى عهد جستنيان ، مع الاستعانة بكل ما هو نافع ومفيد من موسوعة القانون الرومانى (٢) ، إنما تمثل إحدى القوى التى تقف وراء الواجهة الرائعة التى نطلق عليها « امبريالية هوهنشتاوفن » . وهذا يفسر

= كذلك أخذ فى استعادة الأراضى الملكية وتنظيمها ، وخاصة فى سكسونيا ، وعمل جاهدا على تقوية الملكية فى المانيا . وجدير بالذكر أنه قام فى عهده النزاع المعروف فى تاريخ العصور الوسطى بين البابوية والإمبراطورية حول مسألة التقليد العلمانى ، والذى انتهى باذلال البابا جريجورى السابع للامبراطور الألمانى فى حادثة كانوسا الشهيرة . أنظر LaMonte, op. cit., 256—60. — المترجم .

(١) فيما يتعلق ببطرس كراسوس وآرائـه ، أنظر Lewis, Med. Political Ideas, I. 141, II. 512. — المترجم .

(٢) استقر عزم جستنيان على إعادة تنظيم وتنسيق القوانين الرومانية ، وعمل حصر شامل لها بما يتلاءم والظروف الجديدة . فشكل عددا من اللجان برئاسة مشرعه تريبونيان للقيام بهذه المهمة . وأثمر عمل اللجنة عن إصدار مجموعة القوانين المدنية عام ٥٢٩ التى عرفت باسم « Corpus Juris Civilis Justiniani » . وهى تعتبر من الأعمال الخالدة التى تمت فى عهد جستنيان ، ومن أهم آثاره وأبقاها . وقد وضعت هذه المجموعة على أساس تشريعات جريجوريانوس وهيرموجينيانوس وثيودوسيوس . فضلا عن قوانين الأباطرة المتأخرين ومؤلفات كبار المشرعين القدامى . وهكذا حفظ جستنيان للأجيال التالية آراء الثقات التى تدور حول المبادىء القانونية التى قامت على أساسها الدولة الرومانية القديمة . وتنقسم المجموعة المذكورة إلى ثلاثة أقسام : الأول ويتضمن الأحكام الإمبراطورية والمراسيم والقرارات والاستفتاءات القانونية الصادرة عن مجلس السناتو « Senatus consulta » . والثانى ويعرف باسم « Institutes » وهو كتاب مختصر فى أصول التشريع الرومانى ؛ والقسم الثالث ويعرف باسم شرح القوانين أو الديجست « Digest » ، ويتضمن القوانين المدنية بأكملها وعليها شروح الشراح والمفسرين . وظهرت فى هذه المجموعة الأخيرة أصالة جستنيان الحقيقية . إذ تعتبر أكبر الوثائق التشريعية التى تمخض عنها حكمه . كما أنها تعتبر حجة فاصلة فيما يتعلق بكافة المسائل القانونية . ونشر جستنيان قبل موته بعامين مجموعة أخرى عرفت باسم القوانين الجديدة « Novellae » ، وهى عبارة عن ترجمـة مختصرة لقوانين جستنيان باليونانية . وتظهر فى هذه المجموعة الأخيرة إدماج الروح المسيحية فى التشريعات =

لخاسر تبنى فردريك الأول (١) فى عام ١١٥٧ للقب المقدس epithet Sacrum التالى ، وهو « الإمبراطورية المقدسة » . وتم استخدام العبارات القديمة التى تتميز بجلالها لأهميتها فى الدعاية للإمبراطورية فى نضالها ضد الكنيسة . ومن ثم أصبحت الإمبراطورية هى « الامبراطورية المقدسة » sacrum imperium ، حتى يتسنى لها الوقوف على قدم المساواة مع الكنيسة المقدسة Sancta ecclesia.

ويجب عدم المبالغة فى أهمية مثل هذه البدع والأمور المستجدة المستحدثة . كما يجب ألا نفترض أن بلاغة رينالد اوف داسل (٢) Rainald of Dassel أو أشعار اركبويت (٣) Archpoet المبالغ فيها ، تعكس المبادىء التى كانت على أساسها تساس الإمبراطورية ، بأكثر مما ينبغى أن نفترض أن القانون الرومانى كان المصدر الوحيد أو الرئيسى فيما يتعلق بأفكار آل هوهنشتاوفن عن

= الرومانية الوثنية القديمة . أنظر عن ذلك Runciman, op. cit., 74-5; Barker, op. cit., 75—6; Ostrogorsky, op. cit., 51—2, 69—70. المترجم .

(١) فردريك بارباروسا هو امبراطور الدولة الرومانية الغربية المقدسة . حكم من سنة ١١٥٢ إلى سنة ١١٩٠ . وفيما يتعلق بأعماله وتاريخ حياته ، أنظر فشر : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٩٣ وما بعدها وكذلك LaMonte, op. cit., 267—74; Cantor, op. cit., 242—8; Machiavelli, op. cit., 22—4. — المترجم .

(٢) كان رينالد اوف داسل اعتبارا من سنة ١١٥٦ وزيرا ومستشارا للامبراطور فردريك باربارُوسا . وقد شغل منصب رئيس أساقفة كولونيا فى الفترة من ١١٥٩ إلى ١١٦٧ . وكان يعتبر اليد اليمنى للامبراطور الألمانى . أنظر Heer, Med. World, 154; Shorter Camb. Med. Hist., I. 564, 566, 569 f. — المترجم .

(٣) اركبويت هو أحد الشعراء الجلياردين فى العصور الوسطى . وكل ما نعرفه عنه أنه عاش حوالى سنة ١١٦٠ ، وكان من رجال الدين بكولونيا . ومما يذكر عن الشعراء الجلياردين أنهم كانوا يتمدحون فى أغانيهم الخمر والنساء والرياضة وحياة اللهو والترف . كما هاجموا رجال الدين من البابا حتى أصغر كاهن . أنظر عن ذلك LaMonte, op. cit., 557. — المترجم .

الامبراطورية. وتعتبر الإمبراطورية الرومانية الشرقية تحت حكم أسرة كومنين(١) مثالا له أهميته الكبرى. وبالمثل كان شأن آراء الفرنجة التقليدية التي بنيت على أساسها الحقوق الإمبراطورية، ليس باعتبارها منحة أو هبة من البابا أو الشعب الروماني، بل على أساس الفتح والغزو (٢). وقد وجه فردريك الأول خطابه إلى ممثلي مجلس الشيوخ الروماني قائلا: « لقد استولى أسلافنا على مدينتكم وعلى الأراضي الإيطالية من الإغريق واللومبارديين، وأدخلوها ضمن حدود الفرنجة. ولم يكن ذلك بمثابة هبة من أيد أجنبية، وإنما يعتبر غنيمة حصلوا عليها بمجهودهم الخاص ». وعندما سئل فردريك عمن حصل على إمبراطوريته، إن لم يكن من البابا نفسه، أجاب بقوله المأثور: « من الله وحده! ».

وبعد سنوات قلائل، وجد هذا الموقف الذي اتخذه فردريك بارباروسا أوضح تعبير له في الحديث القانوني المشهور الذي عبر عنه المشرع الكنسي هوجاشيو (٣) Hugaccio، وتلميذه جوهانس زيميكه Johannes Zemeke فيما يلي « الإمبراطور الفعلي هو من يقع عليه الاختيار عن طريق انتخاب الأمراء وحدهم، حتى قبل تثبيته على يد البابا ». وتعكس هذه الفكرة بوضوح العمل

---

(١) جاءت أسرة كومنين بعد أسرة دوكاس، وقد حكمت بيزنطة من سنة ١٠٨١ إلى سنة ١١٨٥. ومن أشهر أباطرتها مؤسسها الكسيس الأول كومنين الذي قامت في عهده الحملة الصليبية الأولى، والذي سجلت ابنته أنا تاريخ حياته وأهم أحداث عصره في كتاب باليونانية القديمة يعرف باسم الالكسياد Alexiadis، نسبة إلى الكسيس. أنظر عن ذلك جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين، ص ٢٢ — ٢٥ والحواشي — المترجم.

(٢) أنظر كلمة المترجم، ص ٣٨—٣٩ و٢٠٣ من هذا الكتاب — المترجم.

(٣) يعتبر هوجاشيو من أبرز المشرعين الكنسيين في العصر الوسيط، شأنه شأن جراشيان. وقد ترك أعمق الأثر على الفكر والقانون الكنسي في زمنه، وتوفي سنة ١٢١٠. أنظر عن ذلك: Crump & Jacob, op. cit., 327, 337, 352, 353, 356; Lewis, Med. Political Ideas, II. 390, 526. المترجم.

الحقيقى للتطور التاريخى منذ عهد كونراد الثانى وهنرى الثالث حتى أيام فردريك نفسه . وتمتاز المناقشات الجديدة المنبثقة عن القانون الرومانى بأهميتها ، ولكنها لا تسهم مساهمة إيجابية فى القضية الإمبراطورية . إنها فى حد ذاتها الرد على موقف البابوية ، بل هى أكثر من ذلك .

وتتشابه النظريات البابوية فى طابعها . وردا على المحامين الرومان ، أخذ البابوات يطبقون النظرية الأرسطالية الجديدة [١] لدحض النظرية القديمة عن الكنيسة والدولة . وقاموا بخلق نظرية أخرى أفضل من ذلك ، تتفق مع مطالبهم وادعاءاتهم الخاصة . وتعتبر مراسيم انوسنت الثالث ، حسبما أسلفنا ، تجربة لنظرية الوحدة التى نادت بها الأرسطالية الجديدة بقصد دحض نظرية « السلطتين » [٢] « The two powers » التى سيطرت على الفكر الوسيط حتى عهد البابا انوسنت ، ومفادها أن الإمبراطورية ترتبط بالبابوية ارتباطا وثيقا لا سبيل إلى الفكاك منه . وطالب انوسنت الثالث بإخفاء الحقائق التاريخية وطمس معالمها . ولكن لم يكن بوسع انوسنت نفسه زعزعة الاعتقاد العام فى مذهب سلطتين متعادلتين مستقلتين . ولهذا السبب وحده فشلت نظرياته فى كسب الثقة والاحترام ، اللهم إلا فى مجال الآراء والأفكار الفلسفية العتيقة الجدباء .

وتمتاز تصريحات البابا وردود فردريك الثانى التى ضمنها التهديد والوعيد بأهميتها من الناحية النظرية ، أكثر مما لها من الأهمية من الوجهة العملية . وفردريك الثانى هو الذى استخدم أسلحة انوسنت الثالث ليوجهها ضد البابوية .

---

(١) عن النهضة الأرسطالية الجديدة ، أنظر عبد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى ، ص ٨٧ — ٩٢ — المترجم .

(٢) فيما يتعلق بنظرية السلطتين ونظرية الوحدة وآراء انوسنت الثالث ، أنظر كلمة المترجم ص ٥٤ و ٦٠ — ٦١ من هذا الكتاب — المترجم .

ولقد دوت أصداؤها عبر الأجيال . ولكن النتائج الحقيقية كانت مغايرة تماما . لقد اهتم انوسنت الثالث ، أولا وقبل كل شيء ، بالمسائل العملية ، مثل اتحاد الإمبراطورية وصقلية وبعض الأراضي الإقليمية فى وسط ايطاليا . ولم تشكل نظريته عن الإمبراطورية طبقا لأصول ومبادىء كونية عليا ، وإنما صيغت كسلاح عملي لتعزيز سياسته فى تلك المجالات . فضلا عن أنه لم يكن هناك أمل يرتجى فى نجاح نظريته . وسرعان ما سجل والتر Walther احتجاجه فى قوله المأثور ، وهو أن البابوات كانوا يرغبون فى أن يكونوا دائما على حق . ولم تختف قط الركائز التى استندت عليها الإمبراطورية ، وهى التى تم تأكيدها بفخار فى كل من تصريح سباير [١] Decleration of Speyer ، واحتجاج الهال [٢] Halle protest ، اللذين صدرا فى عامى ١١٩٩ و ١٢٠٢ ، والتى قررها مرة ثانية أيكه فون ربجاو Eike von Repgow فى مجموعة من الوثائق القانونية المعروفة باسم Sachsenspiegel [٣] . وتم الأخذ بهذه النظرية مرة أخرى فى مجلس رينس Diet of Rhens عام ١٣٣٨ ، وكانت السبب فى تسوية المشكلة الإمبراطورية التى أثارها شارل الرابع [٤] فى عامى ١٣٥٥ و ١٣٥٦ .

---

(١) فيما يتعلق بتصريح سباير ، أنظر Cambridge Medieval History, VI, 53, 57. — المترجم .

(٢) وللمزيد من المعلومات عن احتجاج الهال ، أنظر Cam. Med. Hist., VI, 59, 62. — المترجم .

(٣) للمزيد من التفاصيل عن مذهب أيكه أوف ربجاو الذى وضعه قبل سنة ١٢٥٠ بقليل ، أنظر Cam. Med. Hist., VI, 110, 115, 436. — المترجم .

(٤) الإمبراطور شارل الرابع من أسرة لوكسمبورج ، حكم من سنة ١٣٤٦ إلى سنة ١٣٧٨ . وركز جهوده فى تقدم حكم أسرته فى سيليزيا والبلاتينات ولوساتيا وبراندنبورج، وكذلك فى سبيل تقدم بوهيميا . وأصبحت براج من أهم المدن الإمبراطورية فى عهده ، وأنشئت جامعتها سنة ١٣٤٨ . وفى عهده أيضا انتشر الوباء الأسود (١٣٤٨ — ١٣٤٩)،

ولم يكن نجاح البابوية فى المجال العملى لأن نظريتها عن الإمبراطورية قد صادفت قبولا ، بل لقدرتها على القيام بمساعدة الممالك القومية خارج نطاق الإمبراطورية ، وفى مقدمتها فرنسا . وقد جعل اتحاد ألمانيا وإيطاليا وبرجنديا من الإمبراطورية الكتلة الإقليمية صاحبة السيادة فى غربى أوروبا ووسطها . أما الممالك الوطنية ، التى كانت قد وطدت مركزها فى القرن الثانى عشر ، فقد قاومت السيادة الألمانية فى بادىء الأمر ، ثم أخذت تتحداها فيما بعد . ولم تقم تلك السيادة على أية مطالب معينة للسلطة الامبراطورية ، بل على مركز الامبراطورية القيادى فى شئون السياسة الدولية . وحتى ترجح كفتها فى ميزان القوى بين الطرفين ، فقد استغلت الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ، الأمر الذى أضر بكليهما . وغدت سياسة تلك الممالك هى العامل الحقيقى الحاسم بعد عام ١١٩٧ ، أكثر من الأثر الذى تركته النظريات التى قامت حول الصراع بين البابوات والأباطرة . واستمرت كذلك حتى بعد عام ١٢٥٠ .

وتبلور رد الفعل ضد السيادة الألمانية بعد ضعف الإمبراطورية ، وتغير ميزان القوى أثناء فترة النزاع العلمانى . ولقد أثارت الامبريالية الجديدة فى عهود آل هوهنشتاوفن ، وامبريالية كل من ريناله أوف داسل وأركبويت ، رد فعل عدائى فى البلاد المجاورة . ولو أنها كانت ، فى حد ذاتها ، ردا على مطالب بابوية هيلدبراند (١) الكنسية . ويبدو أن ريناله عندما أطلق على ملوك أوروبا باستخفاف وعدم مبالاة لفظ «الملوك الصغار» reguli ، إنما كان يعنى التلميح إلى

= كما استمر العمل فى وضع دستور رسمى للامبراطورية . أنظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٨١٤ — المترجم .

(١) نسبة إلى جريجورى السابع ، إذ كان إسمه الأصلى قبل جلوسه على الكرسى البابوى هو هيلدبراند . أنظر أيضا ص ٢١٦ ح ١ من هذا الكتاب — المترجم .

أنهم دون الإمبراطور مكانة . وتصدى فى الرد عليه جون أوف ساليسبورى(١) قائلا بلهجة لاذعة : « إذن فمن الذى جعل الألمان قضاة على الأمم ؟ » وكان هناك إصرار على أن سلطة الملوك والاباطرة قد انبثقت من نفس المصدر ، وهو أن « الملك إمبراطور فى مملكته » . والواقع أن هذا كان أمرا بدهيا أوليا . ذلك أن اللقب الامبراطورى لم يدل قط على مطالبة بالسيادة . إلا أنه كان فى الوقت نفسه دفاعا ضروريا ضد النظريات الجديدة المسعورة المؤيدة للإمبراطورية ، والتى كان المحامون الرومان يروجون لها . ويلوح أنها كانت ترمز إلى مطالب جديدة هامة .

وقد أثارت سياسة هنرى السادس (٢) القلقة المغامرة مزيدا من الانزعاج فيما بعد . ولم تكن تلك السياسة ، حسبما قيل مرارا ، مجرد محاولة وهمية لتحقيق

---

(١) إذا تحدثنا عن جون أوف ساليسبورى أسقف شارتر ، يجب أن نشير إلى مدرسة شارتر التى كانت أعظم مركز لتدريس العلوم الإنسانية فى القرن الثانى عشر . ففيها وصلت الدراسات الإنسانية ذروتها فى شخص جون المذكور (حوالى ١١١٥ — ١١٨٠) . وهو من أشهر تلامذة الفيلسوف بطرس ابيلارد . وكانت ثقافته الكلاسيكية ومعرفته بالكتاب اللاتين القدامى تسمح له بالاقتباس منهم والإفادة من إنتاجهم . وليس هناك من هو أحق من جون من علماء ذلك العصر بحمل لقب « عالم فى الدراسات الإنسانية » . وقد أنهى حياته باعتباره أسقفا على شارتر حيث تلقى تعليمه ودراسته . وترك عددا من المؤلفات منها كتابه عن رجل الدولة الذى ميز فيه بين الملك الصالح والطاغية المستبد . وكان جون من كبار المدافعين عن السيادة البابوية وعن نظرية « السيفين » . ومع ذلك فقد وجه نقدا مريراً إلى مفاسد الكنيسة ومباذلها . أنظر عن ذلك يوسف كرم : الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط، ص ٩٥ — ٩٦ ؛ ا. باركر : تراث الاسلام ، ج ١ (١٩٣٦) ، ص ٢٣٥ . راجع أيضا **LaMonte, op. cit., 558-9, 565, 577; R. A. Browne (ed.), British Latin Selections (1954), 57-9; Lewis, op. cit., I. 147, 169, 170—2, 197 f., 225, 246 f., 249, 276 f., II. 521 f.; Figgis, Political Thought, 193; Heer, op. cit., 78—9, 90—2.** — المترجم .

(٢) هنرى السادس ابن الإمبراطور فردريك بارباروسا من أباطرة أسرة هوهنشتاوفن الألمان . حكم من سنة ١١٩٠ إلى سنة ١١٩٧ . وتزوج من كونستانس ، وتم تتويجه =

فكرة تهدف إلى إقامة « إمبراطورية عالمية » universal empire ، أو « دولة عالمية » world-dominion ، ولكنها طبقت لتثير ردود فعل معادية . إذ يبدو أن الغرض منها كان تعكير صفو الأمن فى كافة البلدان المجاورة . ولم تكن النتيجة الأساسية هى « المساواة » "equality" بين الملوك والاباطرة ، وإنما كانت ادعاء البابوية بحقها فى منح التاج للأباطرة ، هذا الادعاء الذى لم يقم سوى بدور عابر فى مجال الشئون السياسية . ذلك أن البابوية لم تمتلك إطلاقا سلطة حقيقية فعالة تعزز مطالبها وادعاءاتها . وإن ما كان موضع خلاف أصبح بصفة أساسية الصلة التى تمت فى القرن الحادى عشر بين الملكية regnum والإمبراطورية imperium ، والتى على أساسها قامت الإمبراطورية بوصفها حقيقة تاريخية . وكان الهجوم موجها ضد هذا المبدأ باعتباره المدخل الرئيسى إلى الكيان الإمبراطورى . وغدا التساؤل بعد عام ١٢٥٠ هو إن كانت هذه الرابطة يرجى دوامها ، أم أنها سوف تنقطع . وأصبح هذا التساؤل طيلة قرن من الزمان هو موضوع الساعة فى مجال السياسة الأوروبية .

وأعقب ذلك سلسلة كاملة من المشروعات المتناقضة فى تتابع متصل سريع . وكان فى المقدمة أولئك الذين طالبوا « بنقل » الإمبراطورية (١) ، أى بفصلها

= سنة ١١٩١ ، وبلغت الإمبراطورية فى عهده أوجها من ناحية اتساع رقعتها . كان جنديا عالما بالحروب ، مثقفا ، عمليا ، وسياسيا ماهرا ، يمتاز بالشدة والصرامة والقسوة ، فضلا عن عقليته الجبارة . وقد أمضى الشطر الأكبر من حكمه فى حروب تكاد أن تكون مستمرة ضد الجولفيين الذين تزعمهم هنرى الأسد فى ألمانيا ، وفى سبيل إقرار النظام فى صقلية ، ومحاولة توحيد التاجين الألمانى والصقلى . وتوفى هنرى فجأة سنة ١١٩٧ ، وأعقب ذلك موجة من المرارة ضد الإمبراطورية فى إيطاليا . فضلا عن قيام حرب أهلية فى ألمانيا استمرت ١٤ سنة . أنظر لانجر : نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٧٨ — ٥٧٩ — المترجم .

(١) أنظر ص ١٨٤ ح ٣ من هذا الكتاب — المترجم .

عن ألمانيا وتثبيتها على أقوى سلطة فى القارة الأوروبية ، ونعنى بذلك ملك فرنسا . وهذا يعنى ، من الوجهة العملية ، دعوة موجهة إلى تعاقب ملوك فرنسا فى حكم إيطاليا وبرجنديا واللورين . أما من الوجهة النظرية ، فإنه يعنى إحياء الفكرة القديمة عن الإمبراطورية بوصفها تعبيرا عن الحكم والسيادة . ويعتبر بطرس ديبوا (١) أشهر مؤيد لهذه الفكرة عن الإمبراطورية .

وهناك كذلك المدافعون عن فكرة « إلغاء » الإمبراطورية ، التى كانت تعنى من الوجهة العملية أن تتخذ كل من المانيا وبرجنديا وإيطاليا طريقها الخاص تحت حكم ملوك منفردين . واستغل بعض الحكام الألمان وقتذاك تلك الفكرة ، وبخاصة آل هابسبورج . وانتشرت انتشارا واسعا بفضل روبرت صاحب

---

(١) بطرس ديبوا فرنسى ولد فى نورمانديا فيما بين عامى ١٢٥٠ و ١٢٦٠ . درس فى جامعة باريس ، واستمع إلى محاضرات فى اللاهوت والسياسة . وفى عام ١٣٠٠ عالج قضايا عديدة لكل من فيليب الرابع ملك فرنسا وادوارد الأول ملك انجلترا . وتوفى حوالى سنة ١٣٢١ . ووضع ديبوا فى أوقات فراغه مذكرات عديدة رفع معظمها إلى مليكه فيليب الجميل ، بخصوص إصلاحات فى النواحى الإجتماعية والحربية والمالية والكنسية . وبالرغم من أنه لم يكن من كبار الموظفين فى الحكومة ، إلا أنه كان محبوبا من الملك الفرنسى الذى كان يستمع إليه ويقبل مشورته . ولقد كان ديبوا مؤيدا قويا للملكية الفرنسية كما كان يأمل فى أن ينتخب ملك فرنسا امبراطورا ، وأن تؤسس سلطته العالمية ليس على الغرب فقط ، ولكن على الشرق أيضا . وكان هذا من الدوافع التى حولت انتباهه إلى مشروع حملة صليبية جديدة بقصد الاستيلاء على الأراضى المقدسة . ولعل أهم ما خلفه لنا فى هذا الصدد مقالته التى وضعها باللاتينية باسم « استرجاع الأراضى المقدسة » « recuperatione Terre Sancte » ، وهى تعتبر وثيقة هامة طالب فيها ديبوا القيام بإصلاحات عامة فى كل فرع من فروع المجتمع فى ذلك العصر . أنظر عن ذلك ا. باركر : الحروب الصليبية (١٩٦٠) ص ١٧٣ ؛ كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص ٢٧٤ — ٢٧٦ والحواشى ، راجع أيضا
A. S. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages (1938), 47-52; idem, Crusade, Commerce, and Culture (1962) 97 f.
أنظر أيضا ص ٦٢ — ٦٣ من هذا الكتاب — المترجم .

نابلى (١) الذى كان يأمل ، بهذه الوسيلة ، أن يترك حراً كى يبسط نفوذه وسلطانه على ايطاليا . ولم توضع أى خطة من تلك الخطط موضع التنفيذ . وكان للصراع من أجل المصالح الخاصة ، كما كان للخطر الكامن وراء قيـــام سلطة أ كبر ، أهميتهما البالغة بالنسبة لأى اقتراح جامد يظل قائما بعد المعارضة بين الأطراف المعنية التى كانت مضطرة إلى إثارتها . ومن ثم ، وضعت المسألة الإمبراطورية ، آخر الأمر ، على الرف بدلا من العمل على تسويتها .

وفى تلك الأثناء كانت الدعاية الخبيثة المضادة للإمبراطورية قد أثارت رد فعل مزدوج . كان رد الفعل الأول ، هو قيام اتحاد بين كافة القوى المحافظة فى المانيا ، وقد صادف ذلك قبولا فى مجلس رينس . ويتمثل رد الفعل الثانى فى ظهور أصحاب النظريات المؤيدة للإمبراطورية والمعارضة لها ، مثل اسكندر أوف روس (٢) Alexander of Roes فى المانيا ، ودانتى (٣) فى ايطاليا .

---

(١) يعرف روبرت الأول ملك نابلى باسم روبرت العاقل . خلف أباه شارل الثانى فى حكم نابلى ، مع مطالبته بحكم هنغاريا عن طريق زوجته يولاند صاحبة أراجون . وقد حكم من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١٣٤٣ . وكان شخصية بارزة فى السياسة الإيطالية لسنوات عديدة . وتزعم حزب الجلفيين بالمدينـــة فى مواجهة قوات الجبلين المعارضة . واكتسب شهرة كبيرة بوصفه زعيم المعارضة ، عند ما قام كل من هنرى السابع ولويس الباقارى بالحملة على ايطاليا . ومات ابنه شارل صاحب كالابريا فى حياة أبيه تاركا ابنتين فقط دون أن يعقب ابنا ذكرا . ورغبة من روبرت فى الإبقاء على وراثة العرش فى أسرته ، فقد رتب زواج حفيدته جوانا إلى ابن عمها اندراوس بن شارل روبرت ملك هنغاريا . أنظر LaMonte, op. cit., 437, 438, 693, 728. — المترجم .

(٢) عن اسكندر أوف روس وآرائه ، أنظر Lewis, Med. Political Ideas, II. 440, 446—8, 620 f. n. 20. — المترجم .

(٣) دانتى اليجييرى شاعر فلورنسى ، ولد سنة ١٢٦٥ وتوفى فى ١٣٢١ عن ٥٦ سنة . وفيما يتعلق بتاريخ حياته وعصره وإنتاجه الأدبى ، أنظر كولتون : نفس المرجع ، ص ٥٦ ح ٢ ، وكذلك J. Burckhardt, The Civilization of the =

وبقدر ما بقيت النظرية الإمبراطورية كقوة سياسية ، وهى التى لم يجد أحد ضرورة للتعبير عنها فى نصوص محددة ، فقد آبت فجأة إلى نفسها . وقد حصلنا على فيض من المعاهدات والمقالات التى كان بعضها من وحى مثاليـــة أصيلة ، والقليل منها لا شأن له بهذا الموضوع . وعن طريقها تشكلت وجهات نظرنا عن الإمبراطورية فى العصور الوسطى . ولا شأن لأصحاب النظريات بما كانت عليه الإمبراطورية . فقد اختص بعضهم بالدعاية التى يقوم بهـــا الساسة المحترفون ،

Renaissance (1944), 49—50; D. Hay, The Italian Renaissance = in its Historical Background (1961), 55—7, 74—7; Cantor, op. cit., 303—9. — ومن أهم ما دعا إليه دانتى فى ميدان السياسة هو الفصل بين السلطتين الزمنية والدينية . فالقيصر فى نظره هو القيصر ، والبابا هو البابا . ولذلك طالب بأن يكون الجهاز الكنسى قائمـــا على رعاية أرواح أتباعه فحسب ، بينما يكون الإمبراطور مكلفا بالمحافظة على الأمن والعدالة وحفظ النظام . كذلك نادى بفكرة الإمبراطورية العالميـــة universal empire . لقد وجد أن الحل الوحيد لوضع حد للصراع والتطاحن والمنافسات بين الدول فى عصره ، هو العمل على إزالة الفوارق قدر الاستطاعة بين الأمم والشعوب . وكان يرى فى شخص الإمبراطور هنرى السابع فكرة تحقيق تلك الإمبراطورية العالمية . وكان هنرى هذا أميرا على لكسمبورج ، ثم اختير ملكا على ألمانيا وامبراطورا على الدولة الرومانية المقدسة سنة ١٣٠٨ . وكتب إليه دانتى يدعوه لتحقيق وحدة العالم حسبما كان يراها هو . ومن أشهر مؤلفاته « الكوميديا الإلهية » التى تتألف من ثلاثة أجزاء هى الجحيم والمطهر والفردوس . وقد قام الدكتور حسن عثمان الذى توفر على دراسة دانتى وأدبه وانتاجه سنوات طويلة بترجمة الجزئين الأول والثانى من هذا العمل العظيم ترجمة دقيقة محققة مصحوبة بالشروح والحواشى القيمة . هذا ، وقد فرغ سيادته من ترجمة الجزء الثالث والأخير من هـذه الملحمة الشعرية ، وهو فى طريقه إلى الظهور . ومن مؤلفات دانتى كذلك كتابه المعروف «عن الملكية» De Monarchia الذى أوضح فيه فكرته السياسية الخاصة بضرورة توحيد العالم على يد الإمبراطور ، وفصل السلطتين الدينية والزمنية عن بعضهما . وفيه أيضا هاجم نظرية السيادة البابوية هجوما صريحا مكشوفا . وحاول هنرى تحقيق هذه الفكرة ، ولكن الوقت لم يكن ملائما لذلك ، فقد كان هذا العصر هو عصر نمو الوطنيات المستقلة والقوميات المحلية أنظر Figgis, op cit., 32—3; Lewis, op. cit., I. 153, 157, II. 430, 441—5, 447, 453 f., 465 f., 486—95, 538—40, 555, 591—4; Ullmann, op. cit , 258 ff., Heer, op. cit., 302—4; Taylor, Med. Mind, II. 307, 565. — المترجم .

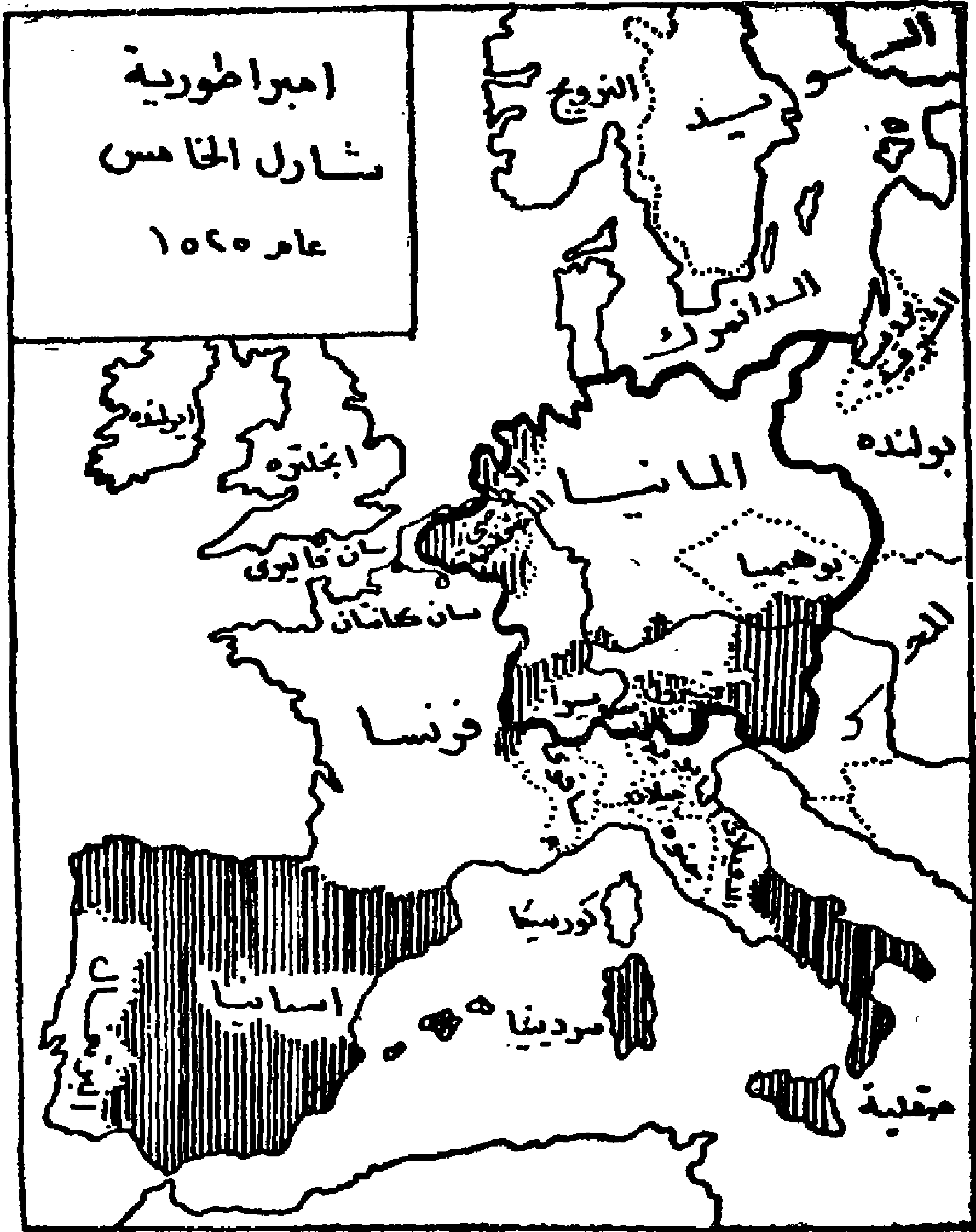
مستلهمين فى ذلك مشروعات للسلطات السياسية فى كلمات معسولة ناعمة يصاحبها رنين معنوى خداع . ويعكس البعض الآخر الحيرة التامة للرجال المخلصين الذين استولى عليهم الذهول من جراء التلون السياسى الجديد ، والذين أمعنوا النظر طويلا فى ماض خيالى قديم ، ووجدوا فى إمبراطورية وهمية كافة الصفات التى لم تحظ بها أو تتطلع إليها إطلاقا الإمبراطورية الحقيقية .

وفى تلك الأثناء ، لم يتم أى شىء لتسوية المسألة على الصعيد الدولى . إذ جردت الإمبراطورية فى الواقع من أراضيها . فتفتت الاتحاد الذى يضم المانيا وايطاليا وبرجنديا ، والذى قامت الإمبراطورية على أساسه . إذ تخلصت الواحدة منها تلو الأخرى من فاعلية النفوذ الألمانى . ولم يكن هناك إمبراطور خلال قرن من الزمان بعد وفاة فردريك الثانى ، وذلك باستثناء فترة عام واحد يقع فيما بين عامى ١٣١٢و١٣١٣ . والواقع أنه فيما بين عامى ١٢٥٠و١٨٠٦ لم يتم سوى تتويج خمسة أباطرة على يد البابا ، وهؤلاء الأباطرة هم : هنرى السابع، وشارل الرابع ، وسيجسموند ، وفردريك الثالث ، وشارل الخامس . (١) وكان سيجسموند ، الذى خطا خطوات واسعة فى طريق المصالحة ، لا يزال يستخدم المظاهر الإمبراطورية . ولكن من الذى تبلغ به الجرأة للجدال فى أن سيجسموند أو فردريك الثالث ، وهما الحاكمان الوحيدان اللذان حظيا باللقب الإمبراطورى خلال القرن الخامس عشر كله ، لم يكن لهما من الوظيفة الإمبراطورية سوى الإسم ومظاهر الزينة والأبهة ؟ وبعد عام ١٣٥٦ تحددت أملاك الإمبراطور بموجب

---

(١) الإمبراطور هنرى السابع من أسرة لكسمبورج ، وقد حكم من سنة ١٣٠٨ إلى سنة ١٣١٣ ، وحكم سيجسموند من سنة ١٤١٠ إلى ١٤٣٧ ، بينما امتد حكم فردريك الثالث ، وهو من آل هابسبورج ، من سنة ١٤٤٠ إلى سنة ١٤٩٣ . أما شارل الخامس فقد امتد حكمه من سنة ١٥١٩ إلى سنة ١٥٥٦ ، وتوفى سنة ١٥٥٩ — المترجم .

خريطة رقم (١٢)



حدود الامبراطورية   الاراضي التي ورثها شارل الخامس

تعهدات دقيقة لألمانيا . (١) وليس هناك ما يمكن تمييزه عن حكم ملك ألمانى من حيث المجال والغرض .

ودارت عجلة الزمن دورتها كاملة . أما الإمبراطورية التى كانت فى عام ٨١٢ مجرد لقب ، فقد انتهت أيضا بوصفها شيئا لا يزيد عن لقب فحسب . وكانت الإمبراطورية بعد عام ١٣٥٦ تفتقر تماما إلى المعنى والغاية والمضمون ، هذا إن لم تكن قد افتقرت إليهما منذ عام ١٢٥٠ مباشرة . ومن ثم لم تبق إمبراطورية العصور الوسطى .

---

(١) وقد انعكس ذلك فى ظهور اللقب الجديد فى عهد فردريك الثالث وهو «Sacrum Romanum imperium nationis Germanicae» أى « الإمبراطورية الرومانية المقدسة للوطن الألمانى » . وهو يدل ـ حسبما أبدى تسويمر Zeumer ـ على تحديد سلطات الامبراطور الإقليمية بحيث تكون مقصورة على الأراضى الألمانية .

بعض المراجع للفصل الثالث

Allshorn, L., Stupor mundi : The Life and Times of Frederick II. London, 1912.

Balzani, U., The Popes and the Hohenstaufen. London, 1888.

Below, G. v.,

1 — Der deutsche Staat des Mittelalters : ein Grundriss der deutschen Verfassungsgeschichte. Leipzig, 1914.

2 — Die italienische Kaiserpolitik des deutschen Mittelalters, mit besonderer Hinblick auf die Politik Friedrich Barbarossas. Munich, 1927.

Bernhardi, W., Konrad III. 2 vols. Leipzig, 1883.

Biehringer, F. J., Kaiser Friedrich II. Berlin, 1912.

Brackman, A. (ed.), Papsttum und Kaisertum. Munich, 1926.

Bresslau, H., Jahrbücher des deutschen Reichs unter Konrad II. 2 vols. Leipzig, 1879—84.

Brischar, J. N., Papst Innozenz III und seine Zeit. Freiburg, 1883.

Bühler, J.,

1 — Die sächsischen und salischen Kaiser. Leipzig, 1924.

2 — Die Hohenstaufen. Nach zeitgenossischen Quellen. Leipzig, 1925.

Calmette, J., La diplomatie carolingienne du traité de Verdun à la morte de Charles le Chauve, 843—77. Paris, 1901.

Carlyle, R. W. and Carlyle, A. J. A History of Medieval Political Theory in the West. 5 vols. Edinburgh and London, 1903—28.

وهو يعتبر العمدة في هذا الموضوع .

Cartellieri, A., Heinrich VI und der Höhepunkt der staufischen Kaiserpolitik. Leipzig, 1914.

Coleman, C. B., Constantine the Great and Christianity : Three Phases : The Historical, the Legendary, and the Spurious. New York, 1914.

Crivellucci, A., Le origini dello stato della chiesa : storia documentata. Paris, 1909.

Dahn, F., Die Könige der Germanen. 13 vols. Munich, 1861—1911.

Deslandres, P., Innocent IV et la chute des Hohenstaufen. Paris, 1907.

Duchesne, L., Les premiers temps de l'état pontifical. Paris, 1904. (English Trans. by A. H. Mathew, as "The Beginnings of the Temporal Sovereignty of the Popes, 754—1073," London, 1908)

Dungern, O. D., War Deutschland ein Wahlreich? Leipzig, 1913.

Dunning, W. A., A History of Political Theories, Ancient and Mediaeval. New York, 1902.

Emerton, E., Beginnings of Modern Europe (1250—1450). Boston, 1917.

Feierabend, H., Die politische Stellung der deutschen Reichsabteien während des Investiturstreites. Breslau, 1913.

Figgis, J. N., Political Thought from Gerosn to Grotius, 1414—1625. New York, 1960.

Fliche, A., Etudes sur la polémique religieuse à l'époque de Grégoire VII : les prégrégoriens. Paris, 1916.

Floto, H., Kaiser Heinrich der Vierte und sein Zeitalter. 2 vols. Stuttgart, 1855—56.

Frantz, T., Der grosse Kampf zwischen Kaisertum und Papstum zur Zeit des Hohenstaufen Friedrich II. Berlin, 1903.

Friedberg, E.,

1 — Die Grenzen zwischen Staat und Kirche. Tübingen, 1872.

2 — Die mittelalterlichen Lehren über das Verhältniss von Staat und Kirche. Part I. Leipzig, 1874.

Gerdes, H., Geschichte des deutschen Volkes und seiner Kultur im Mittelalter. 3 vols. (to 1250). Leipzig, 1891—1908.

Gierke, O., Das deutsche Genossenschaftsrecht. 4 vols. Berlin, 1868—1914. (Part of vol III trans. by F. W. Maitland, as «political Theories in the Middle Ages,» London, 1900).

Graefe, F., Die Publizistik in der letzten Epoche Kaiser Friedrichs II, 1239—1250. Heidelberg, 1909.

Greenwood, A. D., The Empire and the Papacy in the Middle Ages. London, 1901.

Gumplowicz, L., Geschichte der Staatstheorien. Innsbruck, 1905.

Gundlach, W., Die Entstehung des Kirchenstaates und der kuriale Begriff der «res publica Romanorum.» Breslau, 1899.

Hampe, K. L.,

1 — Deutsche Kaisergeschichte in der Zeit der Salier und Staufer. Leipzig, 1916.

2 — Mittelalterliche Geschichte. Gotha, 1922.

3 — Kaiser Friedrich II. in der Auffasung der Nachwelt. Berlin and Leipzig, 1925.

Harmon, M. J, Political Thought from Plato to the Present. New York, 1964.

Hartmann, L. M., Die ottonische Herrschaft. Gotha, 1915.

Henderson, E. F., A History of Germany in the Middle Ages. London, 1894.

Heusler, A., Deutsche Verfassungsgeschichte. Leipzig, 1905.

Hirsch, S., Jahrbücher des deutschen Reiches unter Heinrich II. 3 vols. Leipzig, 1862—74.

Hofmann, A., Politische Geschichte der Deutschen. 4 vols. Stuttgart, 1921—25.

Höhne, E., Kaiser Heinrich IV : sein Leben und seine Kämpfe, 1050—1106, nach dem Urteile seiner deutschen Zeitgenossen. Cütersloh, 1906.

Huillard—Bréholles, J. L. A., Historia diplomatica Friderici Secundi. 7 vols. in 12. Paris, 1852—61.

Hurter, F., Histoire du Pape Innocent III. French trans. by A. de Saint—Chéron and J. B. Haiber. 3 vols. Paris, 1855.

Jacob, L., Le royaume de Bourgonde sous les empereurs franconiens. Paris, 1906.

Janet, P. Histoire de la science politique dans ses rapports avec la morale. 2 vols. Paris, 1887.

Jarrett, B., Social Theories of the Middle Ages, 1200—1500. London, 1926.

Jastrow, I. and Winter, G., Deutsche Ceschichte im Zeitalter der Hohenstaufen, 1125—1273. 2 vols. Berlin, 1893—1901.

Kantorowicz, E., Kaiser Friedrich der Zweite. Berlin, 1927.

Keutgen, F., Der deutsche Staat des Mittelalters. Jena, 1918.

Kington, T. L., History of Frederick II. 2 vols. London, 1862.

Kleinclausz, A., L'empire carolingien : ses origines et ses transformations. Paris, 1902.

Knonau, G. M. v., Jahrbücher des deutschen Reichs unter Heinrich IV und Heinrich V. 2 vols. Leipzig, 1890-1909.

Knöpp, F., Die Stellung Friedrichs II. und siener beiden Söhne zu den deutschen Städten. Berlin, 1928.

Köpke, R. and Dümmler, E., Jahrbücher Kaiser Otto der Grosse. Leipzig, 1876.

Laehr, G., Die Konstantinische Schenkung in der abend—ländischen Literatur des Mittelalters bis zu Mitte des XIV Jahrhunderts. Berlin, 1926.

Leroux, A., Les conflits entre la France et l'empire pendant le moyen âge. Paris, 1902.

Lewis, E., Medieval Political Ideas. 2 vols. London, 1945.

Lindner, T.,

1 — Kaiser Heinrich IV. Berlin, 1881.

2 — Die deutschen Königswahlen, und Die Entstehung des Kurfürstenthums Leipzig, 1893.

Lodge, R., The Close of the Middle Ages, 1273—1494. London, 1922.

Loserth, J., Geschichte des späteren Mittelalters von 1197 bis 1492. Munich, 1903.

Lot, F. and Halphen, L, Annales de l'histoire de France à l'époque carolingienne : le règne de Charles le Chauve (840—877). Paris, 1909.

Luchaire, A., Innocent III. 6 vols. Paris, 1905—08.

Manitius, M., Deutsche Geschichte unter den sächsischen und salischen Kaisern, 911—1125. Stuttgart, 1889.

Mathew, A. H., The Life and Times of Hildebrand, pope Gregory VII. London, 1910.

Meister, A., Deutsche Verfassungsgeschichte, von den Anfängen bis ins 15 Jahrhundert. Leipzig, 1907.

Mirbt, C., Die Publizistik im Zeitalter Gregors VII. Leipzig, 1894.

Mühlbacher, E., Deutsche Geschichte unter den Karoligern. Stuttgart, 1896.

Müller—Mann, G., Die auswärtige Politik Ottos II. Lörrach. 1898.

Niehues, B., Geschichte des Verhältnisses zwischen Kaiserthum und Papstthum im Mittelalter 2 vols. Münster, 1877—87.

Nitzsch, K. W., Geschichte des deutschen Volkes bis zum Augsburger Religionsfrieden. Nach dessen hinterlassenen Papieren und Vorlesungen. 3 vols. Leipzig, 1892.

Peiser, G., Der deutsche Investiturstreit unter Kaiser Heinrich V bis zu dem päpstlichen Privileg von 13 April, 1111. Berlin, 1883.

Pfaff, V., Kaiser Heinrichs VI, höchstes Angebot an die römische Kurie (1196). Heidelberg, 1927.

Pfleiderer, O., Das deutsche Nationalbewusstsein in Vergangenheit und Gegenwart. Berlin, 1896.

Pflugk—Harttung, J. v.,

1 — Unterschungen zur Geschichte Kaiser Konrads II. Stuttgart, 1890.

2 — Die Papstwahlen und Kaisertum, 1046—1328. Gotha, 1908.

Pinton, P., Le donazioni barbariche ai papi. Rome, 1890.

Pouzet, T., La succession de Charlemagne et le traité de Verdun. Paris, 1890.

Raumer, F. von, Geschichte der Hohenstaufen und ihrer Zeit. Leipzig, 1878.

Resenstock, E., Könighaus und Stämme in Deutschland zwischen 911 und 1250. Leipzig, 1914.

Richter, G. and Kohl, H.,

1 — Annalen der deutschen Geschichte im Mittelalter von der Gründung des fränkischen Reichs bis zum Untergang der Hohenstaufen. 4 vols. Halle, 1873-98.

2 — Annalen des fränkischen Reichs im Zeitalter der Karolinger. 2 vols. Halle, 1885—87.

Rodee, C. C. , Anderson, T. J. & Christol, C. Q., Introduction to Political Science. New York, 1967.

Sallet, L., Les réordinations: étude sur le sacrement de l'ordre. Paris, 1907.

Scaduto, L., Stato e chiesa negli scritti ploitici dalla fine della lotta per le investiture sino alle morte di Ludovico il Bavaro (1122—1347). Florence, 1882.

Scharnagl, A., Der Begriff der Investitur in den Quellen und der Literatur des Investitu·streits. Stuttgart, 1908.

Schirrmacher, F. W., Die letzten Hohenstaufen. Göttingen, 1871.

Schmeidler, B., Hamburg—Bremen und Nordost—Europa vom 9. bis 11. Jahrhundert. Leipzig, 1918.

Schneider, F., Beiträge zur Geschichte Friedrichs II und Manfreds. Rome, 1912.

Schnürer, G., Die Entstehung des Kirchen—staates. Cologne, 1894.

Schramm, P. E., Die deutschen Kaiser und Könige in Bildern Ihrer Zeit, 751—1152. Leipzig, 1928.

Schröder, R., Lehrbuch der deutschen Rechtsgeschichte. Berlin and Leipzig, 1922.

Schumann, O., Die päpstlichen Legaten in Deutschland zur Zeit Heinrichs IV und Heinrichs V (1056—1125). Marburg, 1912.

Simonsfeld, H., Jahrbücher des deutschen Reichs unter Friedrich I. Vol. I (1152—1158). Leipzig, 1908.

Solmi, A., Stato e chiesa secondo gli scritti politici da Carlomagno fino al Concordato di Worms. Modena, 1901.

Stefano, A. de, L'idea imperiale di Federico II. Florence, 1927.

Steindorf, E., Jahrbücher des deutschen Reichs unter Heinrich III. 2 vols. Leipzig, 1874—81.

Sütterlin, B., Die Politik Kaiser Friedrichs II. und die römischen Kardinäle in den Jahren 1239-1250. Heidelberg, 1929.

Thompson, J. W., The Decline of the Missi Dominici in Frankish Gaul. Chicago, 1903.

Uhlriz, K., Jahrbücher des deutschen Reiches unter Otto II und Otto III. Vol. I, Otto II Leipzig, 1902.

Vehse, O., Die amtliche Propaganda in der Staatskunst Kaiser Friedrichs II. Munich, 1929.

Vogel, W., Die Normannen und das fränkische Reich. Heidelberg, 1906.

Waitz, G., Deutsche Verfassungsgeschichte. 6 vols. Berlin, 1880—96.

يمتد هذا المرجع حتى القرن الثانى عشر .

Wilmans, R., Jahrbücher des deutschen Reiches unter Otto III. Berlin, 1940.

Zeller, J.,

1 — Fondation de l'empire germanique: Otton le Grand et les Ottonides. Paris, 1873.

2 — L'empire germanique sous les Hohenstaufen. Pairs, 1881.

Zimmermann, B. F. W., Geschichte der Hohenstaufen, Stuttgart, 1865.

الفصل الرابع

آل هابسبورج وهوهنزولرن

لقد كان من الممكن إضفاء غاية ومعنى جديدين على هذا اللقب الأجوف ، كما كان الحال فى القرون الوسطى ، وذلك بمجرد أن تستحوذ عليه سلطة ترى فيه تقليدا جديرا بالذكر . وهذا ما حدث . إذ تلقت الإمبراطورية المحتضرة بعد قرن ونصف درسا قويا فى المسائل الأيديولوجية ، ثم تركت للمحافظة على كيانها.

وبعد ذلك عمل آل هابسبورج على إحيائها لصالح الهابسبورج ، وحتى ترتكز تلك الأسرة على فكرة ايديولوجية تحظى بموافقة أوروبا عليها ، الأمر الذى يمكنها من المطالبة بحقها الخاص . وفى عام ١٥٢٦ ولدت الإمبراطورية الرومانية المقدسة من جديد فوق منطقة موهاكس [١] . ومع ذلك ، ليس هناك وجه شبه بين الإمبراطورية الجديدة وإمبراطورية العصور الوسطى من ناحية المضمون والغاية والطابع والتناسق . فهى ليست وريثتها ، ولا هى شبحها ، ولكنها أشبه ما تكون بلقيطة مهجورة ألقى بها عند حافة قبرها . إذ انتهى أمر الاتحاد مع روما ، وهو ما يميز الإمبراطورية الوسيطة منذ عام ٨٢٣ حتى تاريخ صدور « المرسوم الذهبى » Golden Bull [٢] . فلم يتوج

---

(١) تقع موهاكس فى المجر على نهر الدانوب بالقرب من الحدود اليوغوسلافية . وفيها انتصر لويس الثانى دوق اللورين على الأتراك ـ المترجم .

(٢) يوجد مرسومان بهذا الاسم : الأول أصدره الإمبراطور فردريك الثانى فى ١٢ يوليو سنة ١٢١٣ ليضمن استمرار تعضيد البابوية له ، وهو يعرف باسم « مرسوم إجر الذهبى » The Golden Bull of Eger . وأكد فيه الوعود التى سبق أن بذلها =

أحد من آل هابسبورج منذ أيام مكسيميليان حتى عهد فرنسيس الثانى [1] فى روما . وفيما عدا شارل الخامس ، لم يكن هناك إمبراطور على الرغم من مطالبتهم جميعا بالمنصب الإمبراطورى ، كما لو كانوا قد توجوا وتم انتخابهم . لقد تميزت « الإمبراطورية » التى كانوا حكاما عليها بطابعها الخاص الذى هو من نتاج سياسة عصر النهضة وحركة الإصلاح الدينى المضادة . كما أنها كانت ثمرة للتحالف بين فيينا والكنيسة الكاثوليكية . وكانت قصتها اعتبارا من عام ١٥٢٦ حتى عام ١٨٠٦ نهاية ضرورية وحتمية ، مثلما كانت قصة شارل العظيم من عام ٨٠٠ حتى عام ٨١٢ مقدمة ضرورية . ذلك أن آل هابسبورج قد وضعوا أيديهم على إمبراطورية العصور الوسطى ، وأعادوا تنظيمها طبقا للقالب الذى اختاروه هم لأنفسهم .

= للبابا انوسنت الثالث . وبعد ذلك أعيد تتويج فردريك بموافقة البابا والبارونات ملكا على المانيا بمدينة اكس لا شابل سنة ١٢١٥ . وكان هذا نصرا للبابا فى المانيا ، بعد أن تعهد فردريك بأن تصبح الكنيسة الألمانية مستقلة بشئونها عن السلطة العلمانية ، وأن تكون تحت إشراف البابا مباشرة . ولم يكن كل من انوسنت أو فردريك ليتنبأ بتلك السنوات الطويلة من الكفاح التى جاءت كنتيجة لأحداث سنة ١٢١٥ آنفة الذكر . هذا عن المرسوم الأول ، أما الثانى — وهو الذى يهمنا — فقد أصدره شارل الرابع (١٣٤٧ — ١٣٧٨) ملك بوهيميا سنة ١٣٥٦ . ويعتبر شارل هذا من أعظم ملوك بوهيميا التى فضلها عن أى مكان آخر فى الإمبراطورية . ولكنه أهمل التزاماته باعتباره امبراطورا المانيا ، حتى لقد أطلق عليه الإمبراطور مكسيميليان فيما بعد اللقب المشهور « أبو بوهيميا والزوج الثانى للامبراطورية » The Father of Bohemia and the step father of the empire ولهذا اللقب مغزاه ودلالته . فقد كان مكسيميليان على حق ؛ لأن شارل اهتم أساسا بكيان مملكته الشرقية . إذ أدى انشغاله فى بوهيميا إلى أن يعلن فى المانيا المرسوم الذهبى سالف الذكر ، الذى حول الإمبراطورية من نظام الحكم الفردى إلى اتحاد ارستقراطى ، تجنبا لمساوىء الانتخابات المختلف عليها . وهكذا جعل من المانيا دولة مستقلة عن الإمبراطورية . أنظر LaMonte, op. cit., 419, 694—5; Waugh, op. cit., 99, 326; Downs, op. cit , 174—8. — المترجم .

(١) فرنسيس الثانى هو ابن هنرى الثانى وكاترين دى مديتشى . وقد حكم من سنة ١٥٥٩ إلى سنة ١٥٦٠ — المترجم .

وآل هابسبورج هم الذين خلقوا فعلا أسطورة « الإمبراطورية الرومانية المقدسة » . إذ اتشح شارل العظيم بأردية جديدة بوصفه سابقا لكل من شارل الخامس وشارل السادس . (١) وأعيد تكوين إمبراطورية اوتو كمثال يتفق مع الوضع الذى اختاره آل هابسبورج « لإمبراطوريتهم » ، بحيث تبدو حصنا للدفاع عن أوروبا المسيحية ضد الهراطقة ، أو مثل كومنولث يشمل العديد من الأوطان فى ظل هداية المبادىء المسيحية . ذلك أن الفكرة الإمبراطورية باعتبارها قوة « عالمية » تصاحبها وظائف ومسئوليات « عالمية » ضخمة تعمل على أن تهيء رباطا من الوحدة بين القوميات المختلفة ، كانت أمرا جوهريا بالنسبة لكيان النمسا السياسى . وهذا ما شاع أمره فى حينة . وتعتبر فكرة بعثة « mission » إمبراطورية ، التى عبث بها مؤرخو الإمبراطورية فى العصور الوسطى على هذا النحو ، مرحلة أخرى متميزة من مراحل السيادة الهابسبورجية .

وهكذا يمكن أن نتبين أول تحويل كبير فى إمبراطورية العصور الوسطى إلى شكل يتناسب مع مطالب العصر ومقتضياته السياسية ، أكثر مما فعلت الحقيقة التاريخية . وكان هـــذا فقط هو التحول الأول . وعندما تلاشت الإمبراطورية « المقدسة » فى القرن التاسع عشر ، كانت الإمبراطورية تتلهف شوقا إلى قومية ألمانية رومانسية . وبعد مجلس الفاتيكان ، أضفت الديانة الكاثوليكية تفسيرا من لدنها لا يقل عن ذلك غرابة ، إن لم يكن أكثر خداعا وتضليلا . وعندما تلاشت إمبراطورية أسرة هوهنزولرن (٢) فى القرن العشرين ،

---

(١) توفى شارل السادس سنة ١٧٤٦ — المترجم .

(٢) فى أوائل القرن الخامس عشر كانت الولايات الألمانية كثيرة متعددة . فإلى جانب النمسا ، كانت هناك براندنبورج وسكسونيا وبلفاريا وفورتنبورج . وفى عام ١٤١٥ منح الإمبراطور سيجسموند إمارة براندنبورج إلى فردريك اوف هوهنزولرن . وكانت أسرة هوهنزولرن تسيطر على أنحاء متفرقة من الأملاك فى المانيا . وفى سنة ١٥٢٥ استولى البرت أحد أفراد =

أعيد تنظيم الإمبراطورية مرة أخرى . ولكن هذه المرة بوصفها فكرة ايديولوجية ترمز إلى « النظام الجديد » الذى أوجده هتلر (١) ، وذلك عن طريق المؤرخين الذين كان إيمانهم واقتناعهم السياسى أقوى من نزاهتهم العلمية .

لقد كانت خاتمة إمبراطورية العصور الوسطى ، تلك الخرافة والأسطورة ، من بعض الوجوه ، أعظم أهمية من تاريخ الإمبراطورية نفسها .

تلك الأسرة والرئيس الأعظم لجماعة الفرسان الداوية على دوقية بروسيا ، وكانت وقتذاك تحت سيادة ملك بولندا . ومنذ ذلك التاريخ تولى حكم براندنبورج مع بروسيا عدد من الأمراء . وفى عام ١٧٠٠ تولى فردريك الثالث حكم الإمارتين معا ، وقد تسمى باسم الملك فردريك الأول بعد أن منحه الإمبراطور ليوبولد لقب ملك بروسيا . وهكذا كونت تلك الأسرة ملكية قوية فى بروسيا ، وعلى يدها تم توحيد ألمانيا كلها سنة ١٨٧٠ . وكان ذلك بفضل خطط بسمارك ومجهوداته . وفى سنة ١٨٧١ تم تتويج الملك البروسى إمبراطورا على الدولة الألمانية الموحدة . وظل الوضع هكذا حتى سقطت أسرة هوهنزولرن فى أعقاب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ إثر انهيار ألمانيا فيها . أنظر عن ذلك المراجع التالية : Brett, op. cit., 239 f.; Lodge, op. cit., 223; P. Myers, Medieval and Modern History (1923), 412. Cf. also Waugh, op. cit., 321, 326, 328, 334; A. E. R. Boak and others, The Growth of Western Civilization (1951), II. 504, 632. — المترجم .

(١) نجد مثلا واضحا لذلك فى كتاب H. Aubin, Das erste deutsche Reich als Versuch einer europäischen Staatsgestaltung, Breslau, 1941. — وقد يجد القارىء المعنى بتاريخ ألمانيا فيما بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٤٥ مجموعة حقيقية لأحاسيس وألقاب مماثلة ، وذلك فى الطبعة السادسة التى ظهرت خلال الحرب (١٩٤٣) لكتاب F. Schneider, Die neueren Anschauung der deutschen Historiker über die Kaiserpolitik des Mittelalters (1943).

بعض المراجع للفصل الرابع

Bachmann, A., Deutsche Reichsgeschichte im Zeitalter Friedrichs III und Maximilian I. Vols. I & II (1461-1486). Leipzig, 1884—94.

Beard, C. A., Robinson, J. H. and Smith, D. V., History of Civilization: Our Own Age. New York, 1945.

Berner, E. (ed.), Quellen und Untersuchungen zur Geschichte des Hauses Hohenzollern. 1901.

Boak, A. E. R., Hyma, A. and Slosson, P., The Growth of Western Civilization. 2 vols. New York, 1951.

Brett, S. R., Europe since the Renaissance. 2 parts (1494—1914). London, 1956.

Gisi, W., Der Ursprung der Häuser Zähringen und Habsburg. 1888.

Hare, C., Maximilian the Dreamer, Holy Roman Emperor, 1459—1519. London, 1913.

Heller, J., Deutschland und Frankreich in ihern politischen Beziehungen vom Ende des Interregnums bis zum Tode Rudolfs von Habsburg. Göttingen, 1874.

Herrgott, M., Genealogia diplomatica augustae gentis Habsburgicae. Vienna, 1737—38.

Hintze, O., Die Hohenzollern und ihr Werk. 1915.

Höfner, J, Die Hohenzollern und das Reich. 1918.

Kaser, K., Deutsche Geschichte zur Zeit Maximilians I, 1486—1519. Berlin, 1912.

Koser, R., Geschichte der brandenburgischen Politik bis zum westfälischen Frieden. 1913.

Koser, R., Naudé, A. and Hintze, O. (eds.), Forschungen zur brandenburgischen und preussischen Geschichte. 1888.

Kraus, V. v., Deutsche Geschichte im Ausgange des Mittelalters, 1438—1517. 2 vols. Stuttgart, 1888—1905.

Langl, Die Habsburg und die denkwürdigen Stätten ihrer Umgebung. Vienna, 1895.

Lichnowsky, E. M. F. von, Geschichte des Hauses Habsburg. Vienna, 1836—44.

Libenau, T. von, Die Anfänge des Hauses Hahsburg. Vienna, 1883.

Lindner, T., Deutsche Geschichte unter den Habsburgern und Luxemburgern, 1273—1437. 2 vols. Stuttgart, 1888—93.

Loserth, J., Geschichte des späteren Mittelalters von 1197 bis 1492 Munich, 1903.

Ludwig, E., Wilhelm der Zweite 1925. (English trans by E. C. Mayne, as «William II», 1926).

Merz, W., Die Habsburg. Aarau, 1896.

Michael, E., Geschichte des deutschen Völkes vom dreizehnten Jahrhundert bis zum Ausgang des Mittelalters. 6 vols. Freiburg, 1897—1915.

Otto, H., Die Beziehungen Rudolfs von Habsburg zu Papst Gregor X. Innsbruck, 1894.

Pierson, W., Preussische Geschichte. 1911.

Pratz, H., Preussische Geschichte. 4 vols. Stuttgart, 1899—1902.

Ranke, L. v., Zwölf Bücher preussischer Geschichte. 5 vols. in 3. Leipzig, 1874.

Redlich, O., Rudolf von Habsburg. Innsbruck, 1903.

Rogge, B., Fünf Jahrhundert Hohenzollernherrschaft. 1915.

Roo. G. de, Annales rerum ab Austriacis Habsburgicae gentis principibus a Rudolpho I. usque ad Carolum V. gestarum. Innsbruck, 1592.

Schalk, K., Aus der Zeit des österreichischen Faustrechts, 1440—1463. Vienna, 1919.

Schultz, A.,

1 — Geschichte der Habsburger in den ersten drei Jahrhunderten. Innsbruck, 1887.

2 — Deutsches Leben im 14 und 15 Jahrhundert. Leipzig, 1892.

Schuster, G., Aus der Geschichte des Hauses Hohenzollern. 1915.

Schwartz, P., 1415—1915 Brandenburg—Preussen und des deutsche Reich unter den Hohenzollern. 1915.

Seidel (ed.), Hohenzollern. Jahrbuch, Forschungen und Abbildungen zur Geschichte der Hohenzollern in Brandenburg Preussen. Leipzig, 1897—1903.

Stillfried, R. von and Märker, T. (eds.), Monumenta Zollerana. 1852—90.

Tuttle, H., History of Prussia. 4 Vols. Boston, 1884—96.

Waugh, W. T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932.

Weihrich, F., Stammtafel zur Geschichte des Hauses Habsburg. Vienna, 1893.

Wostry, W., König Albrecht II (1437—1439). 2 parts. Prague 1906—07.

خاتمة

الإمبراطورية بين الفكرة والحقيقة

يواجه المؤرخ الذى يتجه اليوم ببصره إلى إمبراطورية العصور الوسطى ، أولا بالعمل الرومانسى العظيم من القرن التاسع عشر الذى كتبه شلوس نويشفنشتاين Schloss Neuschwanstein فى أسلوب الفنان فاجنر . وإذا صرفنا النظر عما تقدم ، سوف نواجه الكيان المشوش لنظام الحكم النمساوى لكل من شارل السادس وماريا تريزا . (١) ونأتى بعد ذلك إلى البنيان القوطى الدقيق الذى صاغه دانتى ومعاصروه . وتعتبر تلك الإمبراطوريات جميعها ، على اختلاف أنواعها ، واجهات عظيمة الروعة . وقد انهارت كل هذه الأنظمة قبل أن نصل إلى الإمبراطورية كما كانت باعتبارها قالبا عاديا خلوا من الادعاء لبنيان رومانسى بدائى بسيط يمارس عمله كل يوم ، وذلك بالمقارنة بهذا البنيان الشامخ الذى زينت به الأجيال المتأخرة الإمبراطورية وأحاطته بها .

لقد حاولنا عرض الإمبراطورية كما كانت ، حتى نمدكم بصورة دقيقة لكيانها الأصلى ، الذى يمكن قياسه بالنسبة الأعمال الضخمة المتأخرة . ولنا أن نتساءل : ما هو المرجع المناسب الذى يمكن المؤرخ غير المتخصص فى تاريخ القرون الوسطى الاعتماد عليه فى هذا الصدد ؟ وأعتقد أن الجواب الشافى هو أن إعادة كتابة تاريخ الإمبراطورية سوف يؤدى إلى تعديل تلك النظرة الأعم لسير مجرى الحضارة ، بما فى ذلك حضارة القرون الوسطى . فضلا عن تأثيره فى الآراء

---

(١) هى ماريا تريزا النمساوية ابنة شارل السادس المتوفى سنه ١٧٤٠ . أنظر : Brett, op. cit., I. 256—269. — المترجم .

التى تتناول العلاقة بين الحضارات التى نجد أنفسنا جميعا ، نحن الذين نطالب بأن نكون مؤرخين ، مضطرين إلى صياغتها ، إما فى شكل رأى على افتراضى ، أو فى قالب يجب أن يتمشى مع مجالات دراساتنا المحددة . وترتبط مفاهيمنا عن طبيعة المجتمع السياسى فى العصور الوسطى فى الغرب بوجهة نظرنا الخاصة بطابع الإمبراطورية وغايتها ، تلك الإمبراطورية التى اعتبرت دائما محورا لهذا المجتمع.

ومن الواضح أن مفهومنا عن عصر النهضة ومكانه من التسلسل التاريخى بين القرون الوسطى والأزمنة الحديثة ، متأثر إلى حد بعيد بالأفكار التى كوناها عن المبادىء الرائدة والخصائص الأساسية للقرون السابقة . وأما المفارقات العديدة التى أوضحها المؤرخون وغيرهم حول الآراء والأنظمة السياسية فى كل من العصور الوسطى والحديثة ، فانها مشتقة إلى حد بعيد من وجهة النظر القائلة بأن المجتمع الوسيط كان يحكمه مبدأ « العالمية » universalism ويخضع « لمملكة عالمية » universal monarchy ، كان من شأنها أن أبقت على التقليد الخاص « بالحكم العالمى » وكذلك « حقوق روما الذاتية التى لا يجوز بطلانها » . وإذا كان هذا التفسير لإمبراطورية العصور الوسطى بوصفها « مملكة عالمية » قد جاوز الحد ، فمن الواضح أن مثل تلك التعميمات مع استدلالاتها واستنتاجاتها البعيدة فى حاجة هى الأخرى إلى المراجعة . وينطبق نفس الشىء على العلاقة بين المجتمعين الكنسى والسياسى ، التى يفترض أنها ميزت القرون الوسطى ، والتى زالت فى فترة الإصلاح الدينى .

ويرى برايس أن « الكنيسة الرومانية المقدسة والإمبراطورية الرومانية المقدسة » كانتا « شيئا واحدا بل ونفس الشىء ، وإن كان ينظر إليهما من زاويتين مختلفتين » . وكان أحد المبادىء الأساسية لإمبراطورية العصور الوسطى ، هو

« التوافق الحقيقى فيما يختص بحدود الدولة المقدسة ... مع حدود ... الكنيسة المقدسة » . ويرى برايس « أن من حق الإمبراطور أن يفرض الطاعة على العالم المسيحى » . وكان « ارتباط الإمبراطورية بالدين » هو الطابع « الأكثر وضوحا » . ولسنا بحاجة لبيان أن مثل هذه التعميمات ـ إن صحت ـ لكانت لها أهميتها القصوى فى تحديد وجهة نظرنا الكاملة فيما يتعلق بمجرى تاريخ الحضارة الغربية وطابعها . ولنفس هذا السبب لا يمكن تناولها على أنها آراء تعسفية جامدة، وإنما يتعين اختبارها مرارا وتكرارا فى ضوء المعرفة الواسعة ، مع تطبيق وسائل النقد العلمى السليم .

وتتعارض وجهة نظرنا الخاصة بالإمبراطورية فى العصور الوسطى مع وجهة نظر برايس ، فيما يتعلق بالمسائل التى تناولناها . فضلا عن كثير غيرها من نقاط الخلاف الجوهرية . وقد نشأت أوجه الخلاف هذه ـ من حيث النية على الأقل ـ من تقدير فاتر واقعى لسير مجرى الأحداث ، باحثة عن أفكار ترويها عن مجموعة الوقائع التاريخية التى اجتذبتها إليها . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فقد عمل برايس على « التقليل » من شأن الإمبراطورية ومكانها فى المجتمع الوسيط الذى استمد منه اصطلاح « المبدأ الرائد لأساطير القرون الوسطى ، والارتباط التام بين الأرض والسماء » . وفى رأى برايس أيضاً أن الإمبراطورية كانت وحدة على مستوى عال . ولكنها كانت من وجهة نظرنا نظاما سياسيا جامدا محددا من حيث الزمان والمكان . وليس معنى ذلك أن الأفكار والمثل العليا التى اعتقد برايس أنه توصل إليها وهى تكيف مصير الإمبراطورية ، لم تكن قائمة أو موجودة ، أو أنه لا قيمة لها فى تاريخ الحضارة الأوروبية . إن ذلك غير صحيح ، بحيث لا يختلف عن الأساطير والخرافات التى أحاطت بتاريخ

الإمبراطورية ، والتى لا قيمة لها هى الأخرى . وربما كانت أوروبا تدين ، سواء فى السراء أو الضراء ، لأسطورة شارلمان الممثلة فى ذروتهـــا فى أغنية رولان (١) ، أكثر مما هى مدينة لشارل نفسه كما عرفه التاريخ .

هذا ، ويتعين علينا أن نعنى بوضع كل من الأساطير والمثل العليا فى مكانها الحقيق فى موكب التطور التاريخى ، وألا نربطها بأنظمة لا تمت إليها بصلة . ولقد كانت الفكرة المسيحية عن الإمبراطورية ، أى فكرة إمبراطورية مسيحية imperium Christianum أو كومنولث مسيحى Christian commonwealth، قوة عظيمة فى القرون الوسطى ، لها نفوذها وتأثيرها فى أذهان وأعمال كثير من الملوك والأباطرة ، نذكر من بينهم شارل العظيم وأوتو الثالث وهنرى الثالث . وليس بوسعنا فصلها عن الصورة التى رسمناها لهـا . غير أننا ، بكل بساطة ، سنزيد الأمر تعقيدا إذا حاولنا إثباتها بمضاهاتها بالإمبراطورية الغربية كما كانت فى التاريخ ، أو فى الواقع بمقارنتها مع أية إمبراطورية أخرى فى هـذا العالم . ولم تكن الإمبراطورية باعتبارها حـــدثا تاريخيا ، سواء من حيث القصد

---

(١) تعتبر أسطورة حج شارلمان إلى الأراضى المقدسة ، وأنشودة رولان التى خلدت الحملة التى قام بها الإمبراطور الألمانى تجاه الأندلس سنة ٧٧٨ ، من أشهر الأساطير المعروفة فى الأدب الشعبى فى المجتمع الغربى الوسيط . ونظرا لما تحويه كل منهما من آراء تدعو إلى القتال ، فقد استغلتا زمن الحروب الصليبية لتحقيق أغراضها العدائية فى رقعة الشرق العربى . وللمزيد من التفاصيل عن الأسطورتين ، أنظر جوزيف نسيم يوسف : الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية ، ص ١٨٥ — ١٨٨ والحواشى ؛ والعرب والروم واللاتين ، ص ٥١ — ٥٢ والحواشى وص٦٣ ؛ ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ، ص ٥٦ ؛ وشارلمان ص ٢٨٥—٢٨٨. أنظـــر أيضا G. Paris, Med. French Literature (1903), 38-42; H. Pirenne, G. Cohen and H. Focillon, la civilisation occidentale au moyen âge (1941), 211-6; Cantor, op. cit., 235-7. — المترجم .

والنية ، أم من حيث الحقيقة والواقع ، تنظيما لمملكة الله على الأرض . لقد كانت دولة بين غيرها من الدول ، ولا تتمتع بحقوق تزيد عن تلك التي يتمتع بها جيرانها . فقد وصف ذاتى ـ حسبما قال برايس ـ « الكومنولث المسيحي العالمى فى صورة مثالية لا يمكن للجنس البشرى أن ينساها على الإطلاق » . ولم يكن هذا الكومنولث الذى بدا كعلاج لعيوب القرن الرابع عشر هو «الإمبراطورية الرومانية المقدسة» كما عرفها التاريخ .

ولا أفترض وجود ثغرة بين الفكرة والحقيقة فى تاريخ الإمبراطورية ، أو فى الواقع فى أى مكان آخر من التاريخ . وتتميز « فكرة » الإمبراطورية عن غيرها من الأفكار والمثل التى ذاعت وانتشرت حول الإمبراطورية بفضل الجهود الفردية للكتاب والمفكرين ، ومن بينهم أولئك الذين أيدوا سلطان البابوية ونفوذها . ولم تستقر هذه الفكرة غير لحظة فى القرن الحادى عشر . ثم لم تلبث أن تعرضت للهجوم عليها ، هذا الهجوم الذى تطور وتشكل ليطابق الدوافع الخارجية الخاصة ، وبخاصة مجموعة الأحداث الوقتية . ويعتبر ما ترتب على ذلك من نتائج وآثار ، شيئا لم يخططه إنسان قط ، وربما لم يرغب فيه أحد.

وتستهدف محاولتنا هذه تتبع العلاقة المتبادلة والتفاعل المشترك بين الفكرة والحقيقة فى مضمونها التاريخى . وتختلف الصورة الناتجة ـ حسبما تكشفت لنا ـ عن تلك التى رسمها المؤرخ السياسى الذى يتجه إلى تصوير الحقائق التى لا قيمة لها. كما أنها تختلف عن الصورة التى يعرضها السياسى الفيلسوف ومؤرخ الفكر الذى بوسعه تناول القيم التى لا أساس لها من الصحة . وتخلو مثل هذه الصورة من أية لمحة معقولة من الجمال الذى أدمجناه مع الصورة الأخرى . كما أنها فى حد ذاتها ليست أخاذة فى عموميتها . ولكن كم يكون الثمن تافها إذا جعلتنا أكثر قربا

لما كانت عليه الإمبراطورية فعلا ، حسبما تصورها رانك Ranke [1] . فن هذه النقطة وحدها فقط ، نستطيع أن نخطو مطمئنين خطوة أخرى إلى الأمام . فنعمل على تقدير أثرها القوى على المجتمع الأوروبى ، ومغزاها بالنسبة لقصة الحضارة الأوروبية . ولكن هذا موضوع آخر ليس بوسعنا التعرض له هنا .

(١) ل. ف. رانك من مؤرخى القرن التاسع عشر . له عدة مؤلفات بالألمانية منها موسوعته المعروفة عن تاريخ العالم فى تسعة أجزاء وهى : L. von Ranke, Weltgeschichte, 9 vols, Leipzig, 1896—98; cf. also idem, Zwölf Bücher Preussischer Geschichte, 5 vols. in 3 , Leipzig, 1878—79; idem, Savonarola und die florentinische Republik gegen Ende des 15 Jahrhunderts, Leipzig, 1877. — المترجم .

المراجع التى اعتمد عليها المترجم

فى

المقدمـــة والحواشى

---

١ - المراجع العربية

ابراهيم أحمد العدوى (الدكتور) :

١ - الإمبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية - القاهرة ١٩٥١ .

٢ - المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦١ .

السيد الباز العرينى (الدكتور) :

١ - الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١ م) - القاهرة ١٩٦٠ .

٢ - مؤرخو الحروب الصليبية — القاهرة ١٩٦٢ .

جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) :

١ - العرب والروم اللاتين فى الحرب الصليبية الأولى - ط. ثانيـة - الاسكندرية ١٩٦٧ .

٢ - « الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية » - مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية - العـدد السادس عشر - السنة ٦٢/١٩٦٣ - الاسكندرية ١٩٦٣ (ص ١٨٣ - ٢١١) .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) : أوربا العصور الوسطى - جزءان - القاهرة ١٩٥٨ - ١٩٥٩ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) ومحمد انيس (الدكتور) : النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٠ .

عبد الرحمن بدوى (الدكتور) : فلسفة العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٢ .

لطفى عبد الوهاب يحيى (الدكتور) : مقدمة فى نظم الحكم عند اليونان والرومان ـ دراسة فى حضارة البحر الأبيض ـ الاسكندرية ١٩٥٨ .

محمد صقر خفاجه (الدكتور) : هوميروس ـ القاهرة ١٩٥٦ .

محمد عبد المعز نصر (الدكتور) : الدولة والمواطن ـ بحث فى نظرية السيادة ـ الاسكندرية ١٩٥٢ .

نظير حسان سعداوى (الدكتور) : تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى ـ القاهرة ١٩٥٨ .

وهيب ابراهيم سمعان (الدكتور) : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ـ القاهرة ١٩٦٢ .

يوسف كرم :

١ ـ تاريخ الفلسفة اليونانية ـ القاهرة ١٩٥٣ .
٢ ـ تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط ـ القاهرة ١٩٥٧ .

٢ ـ المراجع المعربة

ارسطوطاليس : السياسة ـ نقله من الفرنسية إلى العربية أحمد لطفى السيد ـ القاهرة ١٩٤٧ .

اومان (شارل) : الإمبراطورية البيزنطية ـ تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ـ القاهرة ١٩٥٣ .

باركر (ارنست) : الحروب الصليبية ـ ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ـ القاهرة ١٩٦٠ .

باركر (ا) وآخرون : تراث الاسلام ـ جزءان ـ ترجمة على أحمد عيسى وآخرون ـ القاهرة ١٩٣٦ .

بينز (نورمان) : الإمبراطورية البيزنطية ـ تعريب الدكتور حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد ـ القاهرة ١٩٥٠ .

تشارلزوورث (م. ب) : الإمبراطورية الرومانية ـ ترجمة رمزى عبده جرجس ـ مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجه ـ القاهرة ١٩٦١ .

توينبي (ارنولد) : تاريخ الحضارة الهلينية ـ ترجمة رمزى عبده جرجس ـ مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجه ـ القاهرة ١٩٦٣ .

ديفز (ه. و. كارلس) :

١ ـ أوربا فى العصور الوسطى ـ ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ـ الاسكندرية ١٩٥٨ .

٢ ـ شارلمان ـ نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى ـ القاهرة ١٩٥٩ .

ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرستقراطية ـ تعريب الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ـ القاهرة ١٩٤٨ .

راوس (ا. ل) : التاريخ الانجليزى ـ نقله إلى العربية الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٤٦ .

رنسيمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ـ مراجعة زكى على ـ القاهرة ١٩٦١ .

سباين (ج) : تطور الفكر السياسى ـ جزءان ـ ترجمة حسن جلال العروسى ـ القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٤ .

فازيليف (ا. ا) : العرب والروم ـ ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى شعيره ـ مراجعة الدكتور فؤاد حسنين على ـ القاهرة [بدون تاريخ] .

فشر (ه. ا. ل) : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ـ جزءان ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العرينى والدكتور ابراهيم أحمد العدوى ـ القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

كلارى (ر.) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ـ ترجم الكتاب من الفرنسية القديمة وقدم له الدكتور حسن حبشى ـ القاهرة ١٩٦٤ .

كوبلاند (ج. و) وفينوجرادوف (ب) : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوربا ـ ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٤٨ .

كولتون (ج. ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ـ ترجمة الدكتور جوزيف نسيم يوسف ـ طبعة ثانية ـ الاسكندرية ١٩٦٧ .

لانجر (و) : موسوعة تاريخ العالم ـ ٥ أجزاء ـ أشرف على الترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة ١٩٥٩ - ١٩٦٦ .

لوبيز (ر. س) وآخرون : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ـ خمس مقالات قام بترجمتها توفيق اسكندر ـ القاهرة ١٩٦١ .

٣ - المراجع الأجنبية

Aristotle, Politics. Trans. by E. Barker. Oxford, 1961.

Atiya, A. S.,

1 — The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

2 — Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Atiyah, E., The Arabs. Edinburgh, 1958.

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1953.

Barker, E. (ed.), Social and Political Thought in Byzantium from Justinian I to the Last Palaeologus. Oxford, 1957.

Barrow, R. H., The Romans. London, 1955.

Baynes, N. H.,

1 — The Byzantine Empire. London, 1939.

2 — Byzantine Studies and Other Essays. London, 1960.

3 — «The Political Ideas of St. Augustine's De Civitate Dei,» London, 1962. Pub. in The Historical Association, Pamphlet No. 104.

Baynes, N. H. and Moss H. St. L. B. (eds.), Byzantium. Oxford, 1953.

Blakeney, E. H. (ed.), A Smaller Classical Dictionary. London, 1949.

Bloy, L., Constantinople et Byzance. Paris, 1917.

Boak, A. E. R. & others, The Growth of Western Civilization. Vol. II. New York, 1951.

Brett, S. R., Europe since the Renaissance. 2 parts. London, 1956.

Browne, R. A. (ed.), British Latin Selections, A. D. 500—1400. Oxford, 1954.

Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance. Trans. by S. G. C. Middlemore. London, 1944.

Burgh, W. G. de, The Legacy of the Ancient World. 2 vols. London, 1955.

Bury, J. B.,

1 — A History of the Roman Empire from its Foundation to the Death of Marcus Aurelius (27 B. C. —180 A. D.) London, 1913.

2 — A History of Greece. London, 1951.

Cambridge Ancient History, ed. by J. B. Bury and others. 10 vols. Cambridge, 1928—34.

Cambridge Medieval History, ed. by H. M. Gwatkin and others. 8 vols. Cambridge, 1929—36.

Cahen, C., La Syrie du Nord a l'époque des Croisades. Paris, 1940.

Cantor, N. F. (ed.), The Medieval World, 300—1300. New York, 1963.

Cary, M., A History of Rome down to the Reign of Constantine. London, 1938.

Cheney, C. R. and Semple, W. H. (eds.), Selected Letters of Pope Innocent III concerning England (1198—1216). London, 1953.

Coulborn, R. (ed.), Feudalism in History. Princeton, 1956.

Coulton, G. C.,

1 — Medieval Panorama. New York, 1955.

2 — Medieval Village, Manor, and Monastery. New York, 1960.

Cross, F. L., The Early Christian Fathers. London, 1960.

Crump, C. G. and Jacob, E. F. (eds.), The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1951.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية تحت اسم :

كرامب (ج.) وجاكوب (ا.) : تراث العصور الوسطى ـ مجموعة بحوث أشرف على تحريرها ج. كرامب وإ. جاكوب ـ ترجمة ومراجعة مجموعة من أساتذة الجامعات المصرية بالاشتراك مع الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ جزءان ـ القاهرة ١٩٦٥ و ١٩٦٧ .

Daniel—Rops, L'église de la cathédrale et de la croisade. Paris, 1952.

Davis, R. H. C., A History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis. London, 1958.

Diehl, Ch.,

1 — Byzance : grandeur et décadence. Paris, 1919.

2 — Histoire de l'empire byzantin. Paris, 1920.

Dill, S., Roman Society in the Last Century of the Western Empire. New York, 1958.

Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History. Princeton, 1959.

Figgis, J. N., Political Thought from Gerson to Grotius, 1414—1625. New York, 1960.

Finley, M. I., The Ancient Greeks. London, 1963.

Fisher, H. A. L., A History of Europe. 2 vols. Collins, 1960-61.

Fowler, W. W., Rome. Revised by M. P. Charlesworth. London, 1957.

Gewirth, A., Marsilius of Padua, the Defender of Peace. 2 vols. New York, 1956.

Glover, T. R., The Ancient World. London, 1953.

Hammod, N. G. L., A History of Greece to 322 B. C. Oxford, 1959.

Haskins, C. H.,

1 — Studies in Mediaeval Culture. New York, 1929.

2 — The Normans in European History. New York, 1959.

3 — Norman Institutions. New York, 1960.

Hay, D., The Italian Renaissance in its Historical Background. Cambridge, 1961.

Heer, F., The Medieval World : Europe 1100—1350. London, 1961.

Homo, L., Roman Political Institutions from City to State. London, 1929.

Hussey, J. M., The Byzantine World. London, 1957.

Jones, A. H. M.,

1 — Constantine and the Conversion of Europe. London, 1961.

2 — The Later Roman Empire. 3 vols. & maps. Oxford, 1964

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960.

Ker, W. P., The Dark Ages. London, 1955.

Kitto, H. D., The Greeks. London, 1954.

Laistner, M. L. W., Thought and Letters in Western Europe, A. D. 500 to 900. London, 1957.

Lamb, H., The Crusades. London, 1931.

LaMonte, J. L., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lewis, E., Medieval Political Ideas. 2 vols. London, 1954.

Lodge, R., A History of Modern Europe. London, 1885.

Machiavelli, N., Florence and the Affairs of Italy to the Death of Lorenzo the Magnificent. New York, 1960.

Mathews, S., Select Mediaeval Documents and Other Material Illustrating the History of Church and Empire. New York, 1900.

Matthew Paris, English History from the year 1235 to 1273. Tr. from the Latin by J. A. Giles. 2 vols. London, 1852-3.

McKilliam, A. E., A Chronicle of the Popes from St. Peter to Pius X. London, 1912.

McKisack, M., The Fourteenth Century, 1307-1399. Oxford, 1959.

Michaud, M., Bibliographie des croisades. 2 vols. Paris, 1822.

Mommsen, T. E., Medieval and Renaissance Studies. Ed. by E. F. Rice. New York, 1959.

Moss, H. St. L. B., The Birth of the Middle Ages, 395-814. London, 1937.

وقد ظهرت ترجمة عربية لهذا الكتاب تحت عنوان : موس (هـ.) : ميلاد العصور الوسطى ـ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد .

Myers, P., Mediaeval and Modern History. Boston, 1923.

Oman, C. W. C., The Art of War in the Middle Ages, A. D. 378—1515. New York, 1960.

Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey. Oxford, 1956.

Paetow, L. J., A Guide to the Study of Medieval History. London, 1931.

Painter, S., A History of the Middle Ages: 284—1500. London, 1966.

Paris, G., Mediaeval French Literature. Trans. from the French by H. Lynch. London, 1903.

Parker, H. M. D., A History of the Roman World from A. D. 138 to 337. Revised with additional Notes by B. H. Warmington. London, 1958.

Pirenne, H., Medieval Cities. Trans. from the French by F. D. Halsey. New York, 1948.

Pirenne, H., Cohen, G., and Focillon, H., La civilisation occidentale au moyen âge du XIe au milieu du XVe siècle. Paris, 1941.

Power, E., Medieval People. London, 1954.

Previté—Orton, C., W. (ed.), The Shorter Cambridge Medieval History. 2 vols. Cambridge, 1952.

Ridgeway, W., The Early Age of Greece. 2 vols. Cambridge, 1931.

Rostovtzeff, M., Rome. Trans. from Russian by J. D. Duff. New York, 1960.

Runciman, S.,

1 — Byzantine Civilisation. London, 1948.

2 — A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1954—55.

Stephenson, C., Mediaeval Feudalism. New York, 1942.

Stubbs, W.,

1 — Germany in the Early Middle Ages, 476—1250. Ed. by A. Hassall. London, 1908.

2 — Germany in the Later Middle Ages, 1200—1500. Ed. by A. Hassall. London, 1908.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Taylor, A. J. P., The Course of German History. London, 1961.

Taylor, H. O.,

1 — The Classical Heritage of the Middle Ages. New York, 1957.

2 — The Mediaeval Mind. 2 vols. Cambridge, 1959.

Thomson, D., World History from 1914 to 1950. London, 1958.

وقد ظهرت له ترجمة عربية فى مشروع « الألف كتاب » تحت اسم : تومسن (د.) : تاريخ العالم من ١٩١٤ إلى ١٩٥٠ - ترجمة حسين كامل أبو الليث .

Tout, T. F., The Empire and the Papacy : European History, 918—1273. London, 1909.

Toynbee, A. J., Hellenism : The History of a Civilization. London, 1959.

Trevelyan, G. M., A Shortened History of England. Aylesbury, 1960.

Ullmann, W., Principles of Government and Politics in the Middle Ages. London, 1691.

Ure, P. N., Justinian and his Age. London, 1951.

Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire. 2 vols. Madison, 1961.

Waugh, W. T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932.

Westermann, W. L., The Slave Systems of Greek and Roman Antiquity. Philadelphia, 1955.

Whitelock, D., The Beginnings of English Society : The Anglo—Saxon Period. London, 1954.

Woodward, E. L., History of England. London, 1957.

قائمـــة الخرائط

فهرس عــام

(أ)

الامبراطورية

(ح)

(ر)

(ز)

(س)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

الكنيسة

(ل)

محتويات الكتاب

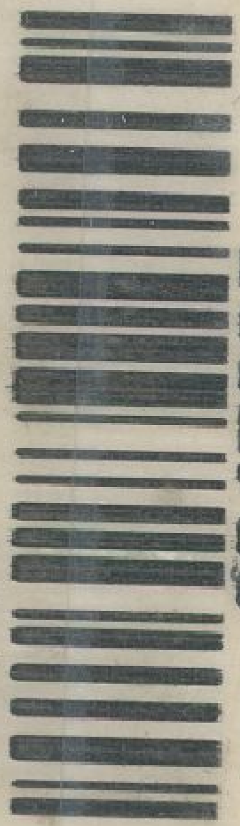
صفحة

صفحة

صفحة

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤	٧	العلي	العليا
٩	١٥	وفنوذ	وفنون
١٥	٧	لأمر	الأمر
٢٠	٢٢	فيجير	فيجيز
٤٩	٤	ومهناجه	ومنهاجه
٣٢	٢١	fo	of
٤٠	١٦	والبيزنطين	والبيزنطيين
٤٠	٢١	بيزنطه	بيزنطة
٨٩	٨	الاغريقى	الاغريق
٩١	٧	لختلفة	المختلفة
٩٨	١٩	لرومانية	الرومانية
٩٩	٢٨	ايصاليا	ايطاليا
١٠٧	٢٢	ترجم	135. ـــ المترجم
١٠٩	٢٨	المنافة	المنافسة
١٢٥	١٠	an	au
١٢٥	١٣	tn	in
١٥٦	١١	كبار تجار	كبار التجار
١٦٩	٢٠	هر	هو
٢١٥	١٢	بنود	بنفوذ
٢٤٥	١٢	تحويل	تحول
٢٤٨	١٣	Hahsburg	Habsburg



١٠٠٩٧٦

٨٠٠ م

الناشر دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش ال
منطقة الأسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول – ٢ م... (المنشية)